الكاتب والصحافي إدريس الحسيني

الخلافة المغتصبة

أزمة تاريخ ام أزمة مؤرخ؟



دار النخيل للطباعة والنشر

الخلافة المغتصبة

أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ؟

الكاتب والصحافي إدريس الحسيني

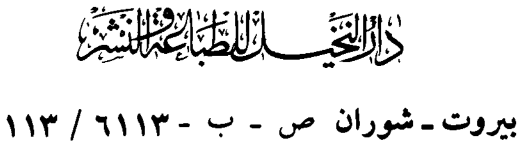
الخلافة المغتصبة

أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ؟

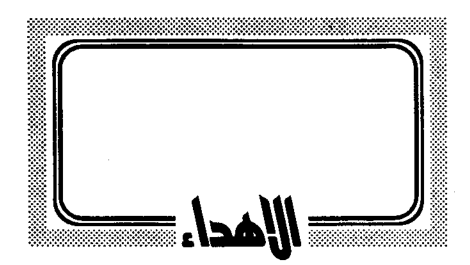
دار النخيل للطباعة والنشر

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م



بيروت - شوران ص - ب - ٦١١٣ / ١١٣



الى ريحانتي سعيدة ـ ام حيدر ـ على ماوفرته لي من اجواء مشجعة على البحث والدراسة .. ولما هي حقيقة به من جزيل الشكر وعظيم الفخار ..اهدي هذا الكتاب ، خدمة للحسين (ع) .


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في كتابي السابق ـ الانتقال الصعب ـ كنت قد تجاوزت الكثير من الموضوعات المهمة بسبب السرعة من جهة ، وبسبب تجنبي الدخول في مطارحات معقدة من جهة اخرى . ذلك ان كتاب ـ الانتقال ـ لم يكن سوى مجلى لتجربة استمرت رازحة بين أسوار الباطن القاتل والممل ، ميدانا لفورة عاطفية افقدتني كما سبق القول مني « تقنياتي المعرفية » ـ لذا كان الخطاب فيها ذا نبرة حادة تعبر في ذات الوقت ، عن حجم القلق الذي ظل يكتنفني ويتسلط على قريحتي . وهو القلق الذي يعاني من تسلطه كل باحث عن الحقيقة في أغوارها المظلمة ، وكل متنقل في ملكوت الاعتقاد ، في رحابه الواسعة . ومن جهة اخرى ،لأن العنصر الشخصي كان له حضور مكثف في كل زوايا الكتاب ، فكان أقرب مايكون الى قصة منه الى كتاب بحث وتحليل ! .

أود قبل ولوج أبواب البحث ، ان أتحدث عما اثاره كتاب « الانتقال » من ردود الفعل في بعض الأوساط ، وماأثاره من الإعجاب والأريحية في نفوس البعض الآخر . علما ان الكتاب كما سبقت الاشارة اليه ، لم يكن يهدف الى الانتصار لطائفة على اخرى ، ولالإنزال فئة مقابل اخرى . كانت الحقيقة هي مدار الكتاب ، الحقيقة وحدها ! .

كان مما آخذوني عليه ، تلك الطريقة العنيفة والطبيعة الخشنة التي تناولت بها الموضوع ، ومن جهة ثانية ، وجدوا علي فيما ذهبت اليه من مرويات مسقطة

ومزدرئة بأشخاص مقدسين ، كما فيه تعرض للصحابة والخلفاء الراشدين ! .

وثالثا ، عن تجاوزي مصلحة الوحدة وسعيي وراء الفتن التاريخية .

ولست واجدا على هؤلاء فيما ادعوه من الأمر ، خصوصا بعد أن أثلج صدري انطباع زمرة من العلماء والمشايخ ممن أثق في أهليتهم ونبوغهم .

أردّ على من رأى في اسلوبنا عنفا زائدا وجرأة مفرطة . بأنني لم اكتب كتابي الا بدافع الاحتجاج . فالقضية في تقديري متصلة بمصير الانسان أمام خالقه وبدينه الذي يشكل ينبوع ممارسته العبادية اليومية عندما ترى نفسك وقد دنوت قاب قوسين أو أدنى من لهيب النار ، وفجأة تكتشف حبل النجاة . أفلا يدعوك ذلك الى الجنون ، الى قول أي شيء في حق من قادك الى هذه الهوة السحيقة ، للهوه ولعبه . ماذا كنت انوي قوله لربي ، لو سألني عمن هو إمام زماني ؟! .

أفكنت مجيبا : ياربي إني لاأدري ! ماذا لو قضيت كل حياتي في معرفة كل الرجال ، وذهبت الى ربي وأنا لاأعرف عن أئمة أهل البيت شروى نقير ؟! .

افكنت مجيبا : ياربي اني قد عرفت مالك وابن حنبل والشافعي ، وأبا حنيفة .

وعرفت ياربي ، فولتير ومونتسكيو وفيرلين . . ولم أعرف الامام زين العابدين ، أو الامام الصادق ، أو حتى امام الزمان ؟! .

كيف كان يتهيأ لي ان الرسول ، بعدها سيحضنني في جنات الخلد والتمس القرب منه وبرفقة ابنه الحسين (ع) أأقول له ـ بالله عليك ـ ، هاأنذا جئتك يارسول الله بعد أن قربني منك تعبدي واتباعي لرجال ذبحوا وخذلوا ابنك هذا الذي بين جنبيك ؟! .

ان القضية اذا نظرنا اليها بمنظار الايمان ، والحق . سوف لاأكون الا كذلك ، عنيفا وجريئا . اما الذين وجدوا في تلك المرويات التي أثرتها في كتابي ، تحريضا بالصحابة والراشدين . فانني لاأجد طريقا يقوى ، ولا دليلاً تنهض في وجه من يرفض الروايات ، لا لضعف سندها ولا لرطانة متنها ، وانما فقط لأجل تعرضها للمقدسين ! .

ماذنب الرواية اذا جاءت بما يخالف المقدس ، وبما لايستجيب لهوى

المقدسين ؟!وهل هذا المقدس يستمد حجيته من النص أم أنه يستمدها من الذهنية التاريخية ـ السياسية ـ ؟! .

متى رأى الذين يقدسون أشخاصهم بالعيان ؟! حتى يقطعوا بأنهم كانوا على حالة اسطورية من التقوى والورع ؟! إننا لم نتعرف عليهم الا من خلال الروايات ، فلماذا نقف في وجه الروايات المناقضة علما بأن الرواية هي مصدرنا الوحيد لمعرفة رجال التراث ! انها رواية برواية ، واللبيب من يفهم بالعقل والاشارة ! .

ثم من هم هؤلاء الذين اسقطتهم ؟ أوليسوا هم الذين أسقطوا انفسهم . أو لم يسقطوا رسول الله (ص) عندما خالفوه في حياته واستنكفوا عن تنفيذ وصاياه في مماته . وقتلوا أبناءه وضيقوا على نسله الطاهر . لقد قال عنه عمر : إنه يهجر . ورفض هو وأبو بكر تجهيز جيش أسامة بن زيد . وتصرف أبوبكر في ماله (ص) بلا حق .

لقد اسقطوه في عين عامة المسلمين ، أسقطه عمر وهو ينزله منزلة ابي بكر في الهدى ، عندما قال :

لأن لم استخلف فان الرسول لم يستخلف ، وان استخلف فقد استخلف ابوبكر .

لقد اسقطوه ـ بأمي وأبي ـ فكيف أجد حرجا في التعرض لهم بحق . انني لم أرم تسقيطهم ، ولكنني حاولت فقط ارجاعهم الى أحجامهم الطبيعية ، أزلت فقط ورقة التوت عنهم لتنكشف عوراتهم أمام أجيال المسلمين . أفهذا يعتبر تسقيطا ؟! ثم بالله عليك ، متى كانوا كبارا حتى نسقطهم ؟! وهل وجودهم كبارا وعمالقة في الأذهان المسحورة بكذب المؤرخين كافٍ لجعلهم كبارا وعمالقة في واقعهم التاريخي . كيف أكبر من قال عن نفسه :

« ان لي شيطانا يعتريني » . أو « كل الناس افقه منك ياعمر » .

نعم . . لقد تعرضت مثلا لنسب عمر بن الخطاب ،وذكرت ماعلق به من رواسب جاهليّه بسبب ماسبق من تكريعه للخمر . واني لم اقل شيئا لم يثبت في

واقع الأمر ، فنسب عمر كما ذكرته كان مما جاء في مثالب النسابة الكلبي وهو من الممدوحين عند العامة وقد مدحه ووثقه بن خلكان ، كما اعتمد رواياته إبن خلدون ، وكثير من حفاظ ومؤرخي العامة . وان وجد من يؤاخذني على تعرضي لما ولده الادمان على الخمر في شخصية عمر . فان ذلك ليس اسرافا مني لم يسبقني أحد اليه . قلت في الانتقال :

« وعلى الرغم من ان الخمر كانت من عادة العرب ، الا ان التواريخ والسير ، تثبت ان من بين العرب من كان يتورع عنها » وهذا اسراف بدا مني لمّا بتُ أحاسب عمر على فعل قام به في الجاهلية . ولكن كان أجدر بمن اعترض على ذلك أن يفهم سياق حديثي ، الذي كان يهدف تحليل شخصية عمر النفسية والاجتماعية . ولعل قولة سبقت من ابن خلدون تعزز ماادعيناه ، اذ قال : « وقد كانت حالة الاشراف في العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ، ولم يكن الكرم شجرتهم ، وكان شربها مذمة عند الكثير منهم »[1] .

وهذا يدل على ان عمر الذي كرعها في جاهليته لم يكن من اشراف العرب ، حسب هذا الزعم .

أما الذين اعتبروا كتابي واقعا ضد الوحدة ، وباعثا على الفتنة التاريخية . فماذا أقول لهم ؟ .

ان عقلي لم يعد يفهم هذه الفلسفة الوحدوية المجحفة ، ولا ذائقتي بالتي تستسيغ هذه النغمة السياسوية . اي وحدة هذه التي تقوم على مذبحة الحق ؟! .

وأي فتنة بدأت وانتهت ؟! كيف استلت وأنا أرى مجاميعهم تعقد الجلسات وتؤلف البحوث الطوال في تكفير أهل الولاية ومحاصرة المد العلوي .

لنعد فيما نعود اليه الى طاولة المفاوضات التاريخية وبعقلية نيرة ومنهجية موضوعية .

وعلى كل حال فأنا لاأروم الفتنة ولا إعاقة الوحدة . واذا كانت الفتنة هي أن أكشف عن وجه الحقيقة والوحدة وأن لاأساهم في تعزيز الباطل ، فنعم الفتنة هي

---

(١) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ١٨) .

ونعم الفرقة كانت ! .

هناك دائما دواعي تدفع الانسان الى مثل هذه المشاريع . هو هذا الجهل العريض والامية المنتشرة في ارجاء الوطن الاسلامي ، هذا الجهل وتلك الامية لهما رابطة بمجمل المباني المذهبية عند المسلمين ، فأصول الفقه وقواعده يتغذى بمنهجية الفقهاء كما تحددها ملكاتهم ومبانيهم ، وهذه الملكات وتلك المباني تقوم على علم الحديث ، وهذا الأخير يقوم على السند في اتصاله وعدالة رجاله ، وهنا تكمن الثغرة الخطيرة أي في عدالة الراوي التي تقوم على المزاج السياسي والايديولوجي ، المزاج الذي لايمكن فهم حقيقته الا بإرجاعه الى سياقه التاريخي ، لماذا يتحول ابوهريرة الدوسي الذي رفض عمر بن الخطاب نفسه رواياته ، ونعته الامام علي (ع) بالكذب على رسول الله (ص) الى رجل صادق الرواية موثق عند أهل السنة والجماعة . أليس هو ذات المزاج السياسي والايديولوجي لأن أبا هريرة كذب على الرسول (ص) لدعم بني أمية لقاء حطام الدنيا ، وماذا كان سيعطيه علي (ع) فيما لو ظل عمره كله يمدحه . وهل ان اباهريرة الدوسي هذا الذي جمع في ذاكرته مالذّ وطاب من مرويات ، كيف لايدعوه ماحفظه من رسول الله (ص) الى نصرة الحق الذي قاتل من أجله علي (ع) أولا أقل أن لايروم معسكر معاوية لينصره بأكاذيبه المفضوحة ، وان الذي بشهادته ذاته انه صاحب الرسول (ص) لاشباع بطنه ،كيف لايصاحب معاوية بعد ان ضمن له وفرة الدنيا بعد ان لم يحلم بها في حياته ، علما ان صحبة معاوية لاتقتضي منه سوى مزيدا من الكذب والتجديف .

إن الجهل المطبق ، والأُمية المنتشرة تجعل من الضروري ان تنهض الاصوات المسؤولة بالدعوة الى مايلم شعث الاسلام الحق ويرأب صدعه ويعيد حبك نسيجه المنفوش .

في مناقشاتي الكثيرة مع العامة ، كنت أضع هدفا من احتجاجاتي . أن تعالوا جميعا للتباحث الموضوعي الهادف الى تصحيح ماينوء به الصرح الاسلامي من متعلقات الماضي ، لنجعل من مواد دراساتنا ، مادة تعني بالفقه المقارن تكون أساسا للتعريف بمختلف المذاهب الاسلامية ، والاسس التي تقوم عليها وتاريخية نشوءها وتطورها ، يتولى توضيحها علماء نزيهون يمثلون مختلف المدارس والمذاهب

الاسلامية ، غير أن الواقع ظل دائما يجري بعكس الاتجاه المطلوب ، الامام الصادق (ع) مثلا ، هو ذلك العملاق الكبير الذي على يده تخرج كبار الفقه الاسلامي ، نراه يقبر في ذاكرة النسيان ، في حين هناك بعض الاصوات المختنقة بتعسفها ، تحاول عبثا انقاذ بعض المذاهب من تحت الرميم ، وتعيد بناء الطلل المنسي .

فمتى مالم يتنازل الطرف الآخر عن موقفه الصارم الذي لايتسع لرأي الآخر ، فإن المشكلة ستبقى عالقة الى الأبد . حتى ولو طال المزمار بطلب الوحدة ، ان الرافضي ظلت ولازالت هي عنوان كل معتصم بولاية الائمة الطاهرين من أهل البيت ، وكان التشيع ولايزال تهمة مسقطة للسمعة . ففي الماضي المتخلف كانت تهمة التشيع تعني الجريمة التي لاحد فيها غير الاعدام في دولة خلفاء بني امية والعباس . وحب علي تهمة تتلف عدالة الراوي عند المحدثين ، ومن هنا كان بينهم والتعرض للإمام النسائي أن ينسبوا له التشيع عندما كتب في خصائص الامام علي (ع) فنال بها ماشاء له الخلفاء من الشتم والضرب كما أن الشافعي الذي يعد أحد ائمة المذاهب الاربعة كان ممن أتهم بالتشيع لأهل البيت (ع) وكان البخاري يرفض الرواية عنه ،ولم يخرج أحاديثه كما ذكر الرازي في مناقبه ، وكذلك الطبري المؤرخ الكبير وصاحب أول تفسير جامع عند العامة ،لم ينجُ من هذه التهمة التي رجم من أجلها ،في حين لايجد المحدثون حرجا في ان يخرجوا أحاديث لمن عرف بالنصب لأهل البيت . فقد اخرج البخاري لعمر ابن حطان ، وهو خارجي ، كما اخرج النسائي لعمر بن سعد قاتل الحسين . ان هذه التهمة أصبحت معنية في حد ذاتها . ان يكون المرء شيعيا كاف لاخراجه من الملّة أو الآدمية في عصور الظلام .

وساعدت في ذلك بلاغات العرب في تشويه صورة أعدائهم أو أقلياتهم ،ولعل الكثير ممن يجهل مغزى هذه التهمة كان ينخرط بسهولة في هذه الجوقة الناصبية ، وذلك من باب حشر مع الناس عيد . فكثير من أهل الشام ظلوا يلعنون عليّا (ع) في المنابر ، ولم يعرفوه عن قرب ، حتى اذا جاء الشامي الى الكوفة ويسأل عن علي (ع) فيقال له إنه بالمسجد ، يأخذه العجب ، ويدهشه الأمر ، معربا عن حالته بقوله : أو علي يصلي !؟ .

وهو حال من انخرط بغباء في هذه الجوقة الناصبية في عصرنا ، لقد قال ابن الاثير في كامله :

« قال علي بن عيسى : لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والالحاد ماعرفوه ولافهموه » .

ويؤسفني جدا ان تستمر الحقيقة في الغياب عن هذه الامة النائمة ،والتي زادها نوما كسلها في التماس عقيدتها الصحيحة ،مكتفية بماحملته اقلام التحريف على أديم التاريخ .

وهناك ايضا بعض من صغار القوم الذين لايعلمون الكتاب الا أماني ،ممن راموا تهديدنا بعد سماعهم الكتاب ، ويا ليتهم قرأوا ماجاء فيه وتمعنوه ، اذن لإستناروا منه مايرشد البابهم في الفجاج المختلفة ، وقضوا به على عتمة أذهانهم وجهالاتهم . وبعضهم وجد علينا في اتهامنا جمهورهم بالجهل والامية . وكأنهم ممن أخذتهم العزة بالجهل .

فترفعنا عن الالتفات الى استفزازاتهم الصغيرة ، وأحجمنا عن التنغم بأقاويلهم احجام الساري عن نقيق الضفادع . انهم حاولوا تسلق مقامات العلماء بجهلهم وصغارهم . هؤلاء رحمة بهم سوف لانعطي أهمية لما قالوه .

وفي النهاية أود أن أقول ان كتابنا هذا محاولة في استدراك مافاتنا هناك . عاملين الوسع في مناقشة القضايا الكبرى في الفكر الاسلامي وعقائده وتاريخه . التي مازالت عالقة في أذهان المسلمين لايتوفر لديهم فيها حل شافٍ ولاجواب منطقي . ولأن الامامة ومايتصل بها من موضوعات هي مفتاح كل الصراعات التي شهدها التاريخ الاسلامي ، وحيث كانت هي الأساس الذي تكاثرت عليه جميع الاتجاهات والمذاهب الكلامية والفقهية ، كان لابد من التطرق اليها بمزيد من البحث والايضاح . ولأن اختيارنا المنهجي ـ ايضا ـ ظل هو التاريخ ، لما يمثله هذا الأخير من أهمية قصوى في تسهيل البحث وتيسير الايضاح ، تقرر عندي أن يكون هو ميدان الدراسة من دون أن يقودنا ذلك الى رفض الميادين الاخرى التي تساهم ايضا في تيسير البحوث .

فاذا كان التاريخ كذلك ، ساحة يتحرك فيها وعينا بكل ماله علاقة بالفكر الاسلامي ، وانه ساحة ضرورية لفهم نشوء وتطور وتكامل الظاهرة الفكرية والسياسية والمذهبية كان من الواجب علينا تبني قواعد الممارسة التاريخية والمنهج التاريخي الذي يعطي للسياق دورا أساسيا في الحدود التي تتجلى فيها سلطة السياق التاريخي على الوقائع والأحداث وعلى عملية تفكير هذه الوقائع والاحداث .

ومادام المنهج الذي تبنيناه يدعونا الى اعادة المباني المذهبية الى طبيعتها البسيطة من جهة تعقدها بفعل الصيرورة التاريخية ، والى وجدتها من جهة تداخلها بالعناصر الاخرى المتعددة ، التي تؤسس المبنى المذهبي . كان لابد من الرجوع الى النص النبوي الذي يقع في خط النص القرآني من الناحية البيانية .

وذلك في ضوء السياق التاريخي الذي وقعت فيه محنة النص النبوي وانطلقت سلطة الرأي ، لتحل محله . ولأن السقيفة لم تكن سوى المنعطف الأول ، أو بؤرة لإنعكاس المخبوء والمستتر من واقع المجتمع الاسلامي ، بدأنا حديثنا عن ملابساتها محاولين التعرض لمجريات أمرها . لتعيدنا مرة ثانية الى السقيفة . اذ ان هذه الأخيرة هي بمثابة محطة ضرورية لفهم السيرة النبوية فهما حقيقيا . وكذلك محطة ضرورية في ايضاح تاريخ الخلافة والخلفاء . وحيث أن أول واقع فعلي للخلافة يتجسد فيما أسموه بالخلفاء الراشدين ، كان اهتمامي ايضا منصبا على هذا الموضوع للوقوف عند حقيقته ، والنهوض بدليل تاريخي ، لإعادة المصداقية والاعتبار الى النص ذي المعنى المغيب ، من أجل اعادة تأسيس الفهم والوعي بتاريخنا الاسلامي . ولأن هذه التركيبة« الراشدة » لها علاقة بالصحبة وقضية الصحابة . كان لابد من التطرق الى هذا الموضوع الشائك لتوضيح جوانبه .
وبعد ذلك هناك بعض القضايا التي اطلقت عليها اسم « الاصنام » والتي أرى من الضروري هدمها ، لأنها تحجب الحقيقة على الانسان . وهي عبارة عن مسائل كثيرة مثار جدل ونقاش بين المذهبين . وحيث أن الأمور في جريانها لم تكن سوى امتداد لمنعطف السقيفة كنت أود لو أشير الى أن السقيفة لم تشكل أول منعطف الا فيما يتعلق بالمرحلة التي توفي فيها الرسول (ص) بينما هناك منعطفات اخرى جرت قبل ذلك ، مثل واقعة الفتح . فالفتح كان يشكل منعطفا مهما في التاريخ الاسلامي ، حيث دخل الجميع الى الاسلام ، وهذا منعطف رسم مرحلة القوة في

الدولة الاسلامية يومذاك .

غير ان دخول الجموع الغفيرة من مؤلفة قلوبهم وطلقاء . جعل المجتمع الاسلامي يدخل مرحلة جديدة من التحدي ، هي مرحلة المنافقين في المجتمع الاسلامي . وأردت في هذه المرة أن أجعله منطلقا في تفهم باقي المجريات .

وبعد ذلك حاولت أن أردف بحثي هذا ، بطرح قضية الامامة كما حللها ابن خلدون في تاريخه . مع الرد عليه فيما ذهب اليه من مزاعم ، وكان ذلك هو الشق الثاني من البحث .

أسلوب الكتاب واضح جدا . لامحل فيه للتعقيد اللغوي . يعتمد طريقة النظّار في الرد على المبطلين ، كما يعتمد التحليل في فهم جانب من الظاهرة المدروسة . ميسر للقراءة والفهم والاستيعاب .

« ربي يسر لي امري » .

« واحلل عقدة من لساني » .

« يفقهوا قولي » .

٢٨ / ٤ / ١٩٩٤ م .

الدار البيضاء ـ المغرب .

Casablanca MAROC

مدخل

حركة النفاق في المجتمع الاسلامي

هناك مرحلتان مرت بهما تجربة الرسالة في مقاومة الشرك العربي .

الاولى : تجسدت في مسلسل المعارك والحروب التي قادها الرسول الأعظم (ص) ضد مشركي مكة من أجل الاطاحة بهم .

الثانية : كانت بعد الفتح الاسلامي ودخول أخلاط كثيرة من العرب الى الاسلام .

لقد كان أصل الصراع الذي جرى في بداية الدعوة ، هو ماأسماه القرآن الكريم صراع الشرك والايمان .

وكان هدف الإسلام ابتداءً هو اخراج الناس من ظلمات الجاهلية الى نور الاسلام . فالجاهلية تمثل كل ماله علاقة بقيم الشرك ، مقابل الاسلام الذي يمثل قيم التوحيد . وكان لكل معسكر رموزه وفعالياته . فالجاهلية عرفت رموزها وقياداتها في بني أمية بن حرب بقيادة ابي سفيان . الذي كان وراء أخطر الحروب وأضراها على المسلمين ، ولكم كاد الاسلام ان ينتهي ويهلك أهله بسبب تلك الحروب ، ولعل أهم تلك المغازي التي كادت تذهب ريح المسلمين ، هي غزوة الأحزاب التي وصفها القرآن ، قائلا :

﴿ واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾[٢] .

(٢) ـ سورة الأحزاب (آية ١٠) .

وكان مما قاله الرسول (ص) داعيا به ربه في تلك المعارك :

« اللهم ان تهلك هذه العصابة ، لن تعبد في الارض »[٣] .

فهذه الحروب التي قادها المشركون بقيادة بني أمية . لم تكن حروبا سهلة . بل انها كلفت المسلمين خسائر كثيرة في الاموال والارواح . وكان الوحي يعايش هذه المحنة عن كثب . وكثيرا مالعن وواعد بالنار مشركي قريش . ونزلت آيات كثيرة تبشرهم بعذاب أليم .

وكما كان لمعسكر الشرك رموزه وقياداته ، فان المعسكر الاسلامي تمثلت رموزه وقياداته في بني هاشم وعلى رأسهم الرسول (ص) وعلي (ع) . تكرست تلك العداوة بين الفريقين بين ابي سفيان ووزراءه من دهاقنة الشرك ، ونبي الله محمد (ص) ووزيره علي (ع) عداوة أشد ماتكون العداوة .

وكان الفتح بمثابة منعطف مهم في حياة الجماعة المسلمة . فالاسلام سوف يتحول من مستوى العصابة والجماعة الثائرة ، الى مستوى الدولة . والشرك سوف يتحول الى عكس ذلك ، من تجمع مركزي الى حالة ضعيفة وفاشلة . وهذا التحول الكبير في تجربة المسلمين كان له أثران : أحدهما ايجابي تجلى في قوة الاسلام وشمول حاكميته . والثاني نتج عن دخول تلك الاخلاط في الاسلام بمن فيهم الطلقاء الذين عفا عنهم الرسول (ص) بعد أن أمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة .

ان الهزيمة العسكرية للشرك ليست كافية لتحسين ايمانهم ،لقد انهزموا بعد ان نفذت كل حيلهم ومكايدهم لتحطيم الاسلام . وبعد ان نصبوا كل مايملكون من حواجز ، وافرغوا كل مافي كنانتهم حتى الأهزع .

لقد دخل المشركون مرحلة جديدة من العمل وسلكوا استراتيجية الهدم من الداخل وبأسلوب سري للغاية . فتحولوا الى شريحة منافقة في المجتمع ترصد الفرصة للإنقضاض عليه .

ولم يكن النفاق في حقيقة الأمر سوى امتداد طبيعي ومنطقي للشرك . فهو

---

(٣) ـ سيرة ابن هشام (٢ / ٢٦٩) .

حلقة من حلقاته التاريخية . ظل بنو أمية على امتداد احفادهم يمثلونه . في حين استمر التوحيد مع محمد وعلي وبنيه (ع) .

ان الطبيعة الامتدادية للشرك ، نلمحها في عودته بعد ان استتب الأمر لبني امية عندما لحقت أهل البيت (ع) أعنف ضربة بقتل الامام الحسين (ع) تمثلها يزيد وهو يومها مالك لزمام الامور :

ليت اشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحا	ثم قالوا : يايزيد لاتشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لست من عقبة ان لم انتقم	من بني أحمد ماكان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولاوحي نزل[4]

وأوضح الرسول الاعظم (ص) فيما أوضح للمسلمين . من ان سمة النفاق تتجلى في بغض هذا البيت الهاشمي وفي بغض علي (ع) لذلك شاع قوله عليه الصلاة والسلام : « ياعلي ، لايحبك الا مؤمن ، ولايبغضك الا منافق »[5] .

وعندما جعل القرآن سمة المنافقين في لحن القول ، أدرك المسلمون ان ذلك يتم من خلال موقفهم من علي (ع) ، لقد روى الجمهور عن ابي سعيد الخدري أنه قال في قوله تعالى :

﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول** ﴾[6] قال : « **ببغضهم عليّا عليه السلام** »[7] .

وفي قوله تعالى :

﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ماكتسبوا** ﴾[8]

---

(٤) ـ تاريخ ابن كثير (٨ / ٢٠٤) .

(٥) ـ كنز العمال (١١ / ٥٩٨) وكتاب السنة (٥٨٤) والمصنف (٧ / ١٩ و ٣٩٤ و ٥٠٣) وكفاية الطالب (٦٨ ، ٧٢) ومصابيح السنة (٤ / ١٧١) ومناقب الخوارزمي (٣٩) وفرائد السمطين (١ / ١٣١) والترمذي (٥ / ٦٣٥) و ٦٤٣) ومناقب ابن المغازلي (١٩٠ / ١٩٥) ومسند أحمد (٢٩٢٦) .

(٦) ـ سورة محمد (آية ٣) .

(٧) ـ الدر المنثور (ج ٦ ص ٦٦) .

(٨) ـ سورة الاحزاب (آية ٥٨) .

ذكر جمع من المفسرين انها نزلت في علي (ع) لأن نفرا من المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه[٩] .

وكانت أولى ارهاصات النفاق في مجتمع الرسول (ص) هي تلك المحاولة المشؤومة التي استهدفت حياة الرسول الاعظم (ص) وهي محاولة اغتيال قامت بها جماعة من الملثمين المنافقين . فعندما رجع رسول الله (ص) قافلا من تبوك الى المدينة ، وكان ببعض الطريق ، مكر به ناس من أصحابه فتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق . وأرادوا أن يسلكوها معه . فأخبر رسول الله (ص) خبرهم فقال : من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فانه أوسع لكم فأخذ النبي (ص) العقبة وأخذ الناس بطن الوادي الا النفر الذين أرادوا المكر به استعدوا وتلثموا . وأمر رسول الله (ص) حذيفة بسوقها بينما هم يسيرون اذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه فغضب رسول الله (ص) وأمر حذيفة أن يراهم فرجع ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم وضربها ضرباً بالمجن وأبصر القوم وهم متلثمين فأرعبهم الله حين ابصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر فأسرعوا حتى خالطوا الناس وأقبل حذيفة ، حتى أدرك رسول الله (ص) فقال اضرب الراحلة ياحذيفة وامش انت ياعمّار . فأسرعوا وخرجوا من العقبة ينتظرون الناس فقال النبي (ص) ياحذيفة هل عرفت من هؤلاء الرهط أحدا . فقال حذيفة عرفت راحلة فلان وفلان ،وكانت ظلمة الليل غشيتهم وهم متلثمين . فقال عليه السلام : هل علمتم شأن الركب وماأرادوا قالوا :

لا يارسول الله قال : فانهم مكروا ليسيروا معي حتى اذا اظلمت لي العقبة طرحوني منها .

قالوا : أفلا تأمر بهم يارسول الله اذا جاءك الناس تضرب أعناقهم ، قال : أكره أن تتحدث الناس وتقول أن محمدا قد وضع يده في أصحابه فسمّاهم لهما ثم قال اكتماهم »[١٠] .

لقد بلغت خطورة النفاق في المجتمع الاسلامي حدا بات من الضروري معه

---

(٩) ـ تفسير الرازي (٣ / ٢٧٣)وإسباب النزول للواحدي ٢٧٣ .

(١٠) ـ دلائل النبوة (٥ / ٢٥٧) .

ان يعمل الرسول (ص) على تركيز المهمات الكبرى في يد وزير له ، انتخبته السماء لنصرته وخلافته ، وهو علي بن ابي طالب (ع) .

لقد كان من الطبيعي أن ينطلق ابوبكر بآيات البراءة ليقرأها على الناس فيما لو كان الأمر في بدايته ، ولكن الأمر يتعلق بقضية كبيرة في مرحلة حرجة . بدأت الرسالة تحدد مواقفها مع الداخل بشكل يثير الاستفهام . فكان لابد أن يؤدي سورة البراءة الامام علي (ع) ولو اقتضى الحال أخذها من أبي بكر .

وملخص الحادثة أن النبي (ص) كان قد انفذ أبابكر بسورة براءة الى مكة . فلما بلغ ذا الحليفة بعث اليه عليّا ، فردّه ، فرجع ابوبكر الى النبي (ص) « فقال : يارسول الله ، انزل فيّ شيء ؟ قال : لا ، ولكن جبرائيل جاءني وقال : لايؤدي عنك الا أنت ، أو رجل منك »[11] .

وفي تلك الظروف ، اقتضى الاحتياط وضبط المهمات من الرسول (ص) ان يبقي يوم تبوك عليّا بالمدينة على أهله ، وذلك بعد أن كان الرسول (ص) يبقي فيها في مغازيه الاولى بعض الضعاف من غير ذوي الأهلية ، أمثال ابن ام مكتوم الضرير ، غير أن الظروف قد تغيرت بعد الفتح ، وأصبحت المدينة مكتضة بالعناصر المنافقة ، وكان من الضروري الابقاء على رجل ذي خبرة وبأس شديد .

لهذا السبب أبقى الرسول (ص) عليّا (ع) وخلفه في المدينة ،وزهد في وجوده في المعركة مع أنه أسد الحروب الرسالية جميعها .

ولكم حاول المنافقون استفزازه كي يبرح المدينة ليخلوا لهم الميدان من مراقب متنمر ذي بأس شديد . ذكر ابن هشام ان المنافقين أرجفوا به وقالوا :

« ماخلفه الا استثقالا له ،وتخففا منه » فأخذ علي (ع) سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله (ص) وهو نازل بالجرف فقال : يانبي الله ، زعم المنافقون انك انما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني .فقال : كذبوا . ولكن خلفتك لما تركت

(١١) ـ مسند أحمد (١ / ٣ و ١٥١). والدر المنثور (٣ / ٢٠٩). والرياض النضرة (٢ / ١٣١) وذخائر العقبى (٦٩). وخصائص النسائي (٨٢). والمصنف (٧ / ٥٠٦). وكفاية الطالب (٢٥٤) وشواهد التنزيل (١ / ٢٣١) . ومصابيح السنة (٤ / ١٧٢) . ومناقب الخوارزمي (١٦٤) والترمذي (٥ / ٦٣٦). وتفسير الطبري (م ٦ ج ١٠ / ٦٥) .

ورائي . فارجع فأخلفني في أهلي وأهلك ، أفلاترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لانبي بعدي ، فرجع علي (ع) الى المدينة .

بقي النفاق اذن حديث الايام ، تتناقله الألسن ، وتحمله الانباء عبر الاصقاع المفتوحة .

ونزلت يومها سورة بكاملها من القرآن تحت هذا الاسم ، وربط القرآن في أكثر من موقع ،النفاق بجانب الشرك والكفر :

﴿ ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾[١٢] .

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾[١٣] .

﴿ يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾[١٤] .

﴿ يأيها النبي اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين ﴾[١٥] .

﴿ ولاتطع الكافرين والمنافقين ﴾[١٦] .

﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾[١٧] .

والآيات السابقات تدل على أن النفاق أصبح في مستوى خطورة الكفر . وأنه امتداد للشرك .

ولم تكن هذه الخطورة باليسيرة على الفئة المؤمنة . ولا بالأمر الهين على من انطوى على حسن السريرة . لقد خاطب عمر بن الخطاب الناس بعد وفاة الرسول (ص) بنفس المنطق المنسجم مع ذلك الظرف التاريخي ، وبنفس القضية التي يجدونها في انفسهم وتستسيغها اذهانهم . اذ قال عمر للمغيرة حين قال له : مات والله رسول الله (ص) فقال عمركذبت مامات رسول الله ولكنك رجل

---

(١٢) ـ سورة النساء (آية ٤٠) .

(١٣) ـ سورة التوبة (آية ٦٨) .

(١٤) ـ سورة التوبة (آية ٧٣) .

(١٥) ـ سورة الاحزاب (آية ١) .

(١٦) ـ سورة الاحزاب (آية ٢٤) .

(١٧) ـ سورة الفتح (آية ١) .

تحوسك فتنة ولن يموت رسول الله حتى يفني المنافقين »[18] .

ولم يكن هناك من هو أكثر نفاقا وتبييتا للاسلام من اولئك الذين تمسكوا بشركهم حتى زمن الفتح . والذين لم يؤمنوا اذ اسلموا وهم معرضون . انما كانوا من الطلقاء الذين بدا للرسول (ص) ان يبقيهم على قيد الحياة بعد ان كان أمر بقتلهم . هؤلاء كانوا في طليعة المنافقين الذين شاعت أخبارهم في أصقاع الجزيرة العربية . وقد سبق أن حذر الرسول (ص) المسلمين من خطر الاموية ، عندما رأى الرؤيا الشهيرة . فلقد سمعوا منه عليه السلام قوله في الآية ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ هم بنو امية ، وذلك عندما رأى بني الحكم ابن ابي العاص ينزلون على منبره فساءه ذلك [19]فنزل قوله تعالى :

﴿ وماجعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن ﴾[20] .

وازدادت خطورة النفاق بعد وفاة الرسول (ص) وبدأوا يتطلعون الى مشاريع هدامة . فقد روى البخاري عن حذيفة بن اليمان قال :

« ان المنافقين اليوم أشرس على عهد رسول الله (ص) كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون » .

كل هذه القرائن تثبت أهمية الموقف ، وخطورة الظرف الذي سبق وفاة الرسول الاعظم (ص) .

لقد كان هناك ايضا كثيرٌ من الامور تقتضي حلا شافيا قبل وفاة الرسول (ص) . فالمسلمون قادمون على محاربة الروم وفارس . أمامهم بلاد كثيرة لم تفتح . . . وفي الداخل هناك حركة النفاق المنتشرة والمتوزعة على المناطق ، وذات نفوذ كبير . . والدعوة الى الله شأن بدأ يعرف هو الآخر نوعا من الصعوبة

(١٨) ـ مسند أحمد (١١٨/٣) وشرح النهج (١ / ١٧٩) وطبقات ابن سعد (٢ / ٢٦٦) والبداية والنهاية (٥ / ٢٤٢) .

(١٩) ـ تفسير الطبري (٩ / ١١٢) وتفسير الآلوسي (١٥ / ١٠٧) والدر المنثور (٤ / ١٩١) وتفسير الرازي (٢٠ / ٢٣٧) .

(٢٠) ـ سورة الاسراء (آية ٦٠) .

والتعقيد . . فالأيام التي يستقبلها المسلمون تتطلب منهم منهجا جديدا ودقيقا في الدعوة . اذ انهم سوف ينفتحون على ديانات وفلسفات لم يكن للعرب سابق عهد بها . ولم يكن أحدهم متمرسا على ضروب المحاججات الكلامية والفلسفية . لقد كان الرسول (ص) هو الوحيد الذي تزعم حركة الاحتجاج على أهل الديانات . فمن هو هذا الذي أوتي علم الأولين والآخرين ليتصدى لهذه التيارات الدينية وغير الدينية ، بلغة العلم ومنطق الجدل وفكرة الوحي ؟! .

وهل كان في نية الرسول (ص) ان يترك امته لتقع على قراءة اساغوجي فورفوريوس ، أو ميتافيزقا ارسطو . حتى تتعلم منطق الدفاع عن دينها ، وافحام الخصم والانتصار للعقيدة . بما يعزز ايمان الناس ويزلزل قلوب المناوئين . فلابد للعلم النبوي ان يجد طريقه الى خلف معين ، تتم تربيته وانشاءه لهذا الدور الخطير . ولهذا كانت فترة موت الرسول (ص) على جانب من الخطورة . ولحظة حرجة فيما لو أمعنا النظر فيها . انها اللحظة التي ينتظر فيها الانسان انفلات الروح من انسان عزيز . واللحظة التي تضحى فيها الوصية انفس من الدنيا عند المحيطين به .

لحظة وفاة الرسول و كانت جديرة بأن تشد انظار القوم الى الرسول (ص) وتنسيهم انفسهم ،بل التصارع على الخلافة . كانت تلك المصيبة الكبرى جديرة بأن تنسيهم الدنيا لبضعة أيام .

وكان جدير ـ ايضا ـ بمن هم حول الرسول (ص) ان يهتموا أيما اهتمام بما يلفظه هذا الرجل العظيم من قول في نهاية رحلته من بين اظهرهم . فهو رجل ليس كباقي الناس .

غير ان الواقع يختلف ـ تماما ـ عما يفترض من طيبة هذه القلوب واستنارة تلك العقول .

لقد كانت نهاية صامتة ولعمري انهم جعلوها كذلك حتى لايثيروا على انفسهم لومة لائم على حق أضاعوه . وحقيقة سكتوا عنها . مات الرسول (ص) صاحب الامة العريضة ، وصاحب الهموم الكبرى التي كان يركز عليها حتى نهاية عهده كاهتمامه بتجهيز جيش اسامة . مات هذا النبي العظيم وترك امته مضطربة من

دون أدنى وصية أو اشارة تشد ظهر مصيرها . الى من يخلفه في الأمر وكيف يخلفه فيه . واذا كانت قضية الخلافة هي منشأ الخلاف عند المسلمين ، وبداية التصدع في صرح الامة . فكيف لايسمع فيها لرسول الله رأي ؟! .

الا ان الحقيقة المرة ليست كما يحاول عرضها المزورون للأحداث التاريخية ، جهلا أو طمعا . الحقيقة المرة هي أن رسول الله (ص) مافتيء يوصي امته في نهاية عهده بمن يخلفه في امته . غير ان تيار الاغتصاب وجه الأمر الى وجهة معاكسة تقوم على الرأي الكسير والاغتصاب الجائر . كانت هناك حبكة جميلة ، وطبخة لذيذة أعدها هذا التيار . لذلك سوف يتبين لنا كيف كان الرسول (ص) يدبر الأمر وكيف كان تيار الاغتصاب يتتبع هذه التدابير بخطى حثيثة ، ويعيق تنفيذها .

التدابير النبوية في تركيز الامامة

كانت هناك طرق كثيرة ومختلفة . اعتمدها الرسول (ص) في تركيز الامامة وترسيخها في وجدان المسلمين وهي كالتالي :

١ ـ العمل على اشاعة الامامة لعلي بن أبي طالب (ع) .

لم يكن الامام علي (ع) رجلا عاديا كباقي رجالات الرسول (ص) والذين عملوا على جعله كذلك هم ممن يتجاهل على التاريخ . ويتعسف على وقائعه ظلما وعدوانا . فالامام علي (ع) كان صنوا وأخا وخليفة لرسول الله (ص) في كل أحواله . والذي فهمه المسلمون من اهتمام الرسول (ص) التواصل بهذا الرجل المتميز ، هو أنه امام المستقبل ، وخليفة الرسول (ص) من بعده .

لقد اعتاد الامويون ومن جاء بعدهم ، ان يضخموا من شأن الخلفاء حتى لايبقى لعلي (ع) فضيلة تذكر . ونحن سوف لانقع فريسة لتلك المرويات التي تكذبها القرائن التاريخية ، وتسخر من ابتذالها الألباب الملمة والمحيطة بكل السياق التاريخي الذي نشأ وتحرك فيه هؤلاء الثلاثة . وسوف أفرد لذلك بابا أحاول استيفاء القول فيه عن قيمة هؤلاء الخلفاء ان شاء الله .

وأهم تلك المواقف التي كان يرمي من خلالها الرسول (ص) الى اظهار امامة علي (ع) في المستقبل مايلي :

أ ـ يوم الدار .

ب ـ أحاديث الوصية .

ج ـ يوم الغدير .

أ ـ يوم الدار :

وهو موقف جرى تحت سمع وبصر صناديد قريش وكبرائها ، وعلي (ع) يومها لايزال في طور الغرارة والصبا . اذ قرع الرسول (ص) مسامعهم ، معلنا اختيار علي (ع) وزيرا له وخليفة من بعده . وملخص الحادثة كالتالي :

انه عندما نزل قوله تعالى : ﴿ **وانذر عشيرتك الأقربين** ﴾[٢١] .

قام الرسول (ص) يدعو أقرباءه ، وفيهم أبولهب فقال (ص) :

« يابني عبدالمطلب ، اني والله ماأعلم شابا في العرب جاء بأفضل مما جئتكم به ، اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرني الله عزوجل أن أدعوكم اليه . فأيكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » ؟ .

فسكت القوم ولم يجيبوا الا علي (ع) قال : « انا يارسول الله أكون وزيرك على مابعثك الله . وبعد أن كررها ثلاثا ، التفت اليهم وقال :

ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم (أو عليكم) فاسمعوا له ، وأطيعوا . فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبي طالب ،قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع ، وجعله عليك أميرا »[٢٢] .

كان هذا هو أول موقف رسالي في الدعوة الى الاسلام . طرح فيه علي (ع) بقوة . وكان الأمر بانذار العشيرة ، وهي أول خطوة للدعوة تزامنت مع طرح امامة علي (ع) ، لما في ذلك من تلازم وتكامل بين الدعوة والامامة .

ب ـ احاديث الوصية الاخرى

---

(٢١) ـ سورة الحجر (آية ٩٤ ـ ٩٥) .

(٢٢) ـ تاريخ الطبري (٢ / ٣١٩ ـ ٣٢١) . وفرائد السمطين (١ / ٨٥) . وشواهد التنزيل (١ / ٤٢٠). وكفاية الطالب (٢٠٤). وينابيع المودة (١ / ١٢٢) .

وكان من دأبه صلوات الله عليه ان يعلن وصيته لعلي (ع) بشكل واضح ، لأصحابه كالذي رواه العامة عنه ، قال الرسول (ص) :

« لكل نبي وصي ووارث ، وان وصيي ووارثي علي بن ابي طالب »[٢٣] .

وعندما نزل قوله تعالى :

﴿ اني جاعلك للناس اماما ، قال : ومن ذريتي ﴾[٢٤] .

روى الجمهور عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله (ص) « انتهت الدعوة اليّ والى عليّ لم يسجد أحدنا قط لصنم ، فاتخذني نبيا واتخذ عليّا وصيّاً »[٢٥] .

وفي قوله تعالى :

﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾[٢٦] .

روى الجمهور ايضا ، عن ابن عباس وسعيد الخدري ، عن النبي (ص) : « عن ولاية علي بن ابي طالب »[٢٧] .

ج - يوم الغدير :

عندما وصل النبي (ص) من حجة الوداع الى مكان اسمه غدير خم يقع بين قلة والمدينة قرب الجحفة بناحية رابغ . قام خطيبا في المسلمين بعد أن أخذ بيد علي (ع) فقال :

« ألست أولى بالمؤمنين من انفسهم ؟ قالوا بلى يارسول الله ! . قال : فمن كنت مولاه ، فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

ثم قال : « أيها الناس اني تارككم وانتم واردي علي الحوض ، واني سائلكم حين تردون عليّ ، عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما . قالوا : وما الثقلان

---

(٢٣) - أسد الغابة (١ / ١٧٥) . ومناقب الخوارزمي (٨٥) .

(٢٤) - سورة البقرة (آية ١٢٣) .

(٢٥) - المناقب ابن المغازلي (٢٧٧) .

(٢٦) - سورة الصافات (آية ٢٤) .

(٢٧) - الصواعق المحرقة (١٤٩) . وكفاية الطالب (٢٤٧) . ومناقب الخوارزمي (٢٧٥) . وشواهد التنزيل (٢ / ١٠٦) .

يارسول الله ؟ .

قال : الثقل الأكبر كتاب الله ، سبب طرفه بيد الله ، وطرف بأيديكم ، فاستمسكوا به ولاتضلّوا ، ولاتبدّلوا ،وعترتي أهل بيتي »[28] .

وهناك أمثلة كثيرة من تلك الفضائل التي كانت تعكس مدى اهتمام الرسول الاعظم (ص) بولاية علي (ع) وسوف نذكر بعضها في مقام آخر .

وكان الرسول (ص) يعمل على تركيزها في أذهان المسلمين ، حتى يستقرئوا من خلالها أحقية الامام علي (ع) في خلافة النبي (ص) . وظل عليه الصلاة والسلام يسلك طريقا هادئا في ذلك حتى لايثير بها حفيظة قوم وتر علي (ع) قلوبهم بقتله أجدادهم على امتداد المعارك التي خاضها مع الرسول (ص) وحتى يتجنب عليه الصلاة والسلام حقد الحاقدين الذين رأوا في تنصيب علي (ع)تفويتا لمصالحهم ومطامعهم الخسيسة .

ولما كان الوحي يراقب عن كثب محنة الرسول (ص) خفف ذلك القلق عنه وأمره بأن يصدع بالحق ، اكمالا للدين وختما لشريعته . فكان أن خطب فيهم خطبته الشهيرة بغدير خم . وفيها اكتمل الدين بقوله تعالى :

﴿ اليوم اكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾[29] .

كان هذا هو التدبير الذي انتهى اليه الرسول (ص) هو أن يصدع بالحق ،ولايخفي الأمر وليكن مايكون ،فالأمر الهي : **﴿ يأأيها النبي بلغ ماأنزل اليك من ربك فان لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾**[30] .

فلتذهب نفوس حسرة ، وليسلك الرافضون مذاهبهم .

---

(28) ـ مسلم (٥ / ٢٥ و٢٧) . ومسند أحمد (٣ / ١٧ و ٢٦ و ٥٩ و ٤ / ١٦٧). والمستدرك (٣ / ١٠٩ و ١٤٨) . ومناقب الخوارزمي (١٥٤) . وينابيع المودة (١ / ٣٢). ومجمع الزوائد (٩ / ١٦٥) . وكفاية الطالب (٢٥٩) . ومصابيح السنة (٤ / ١٨٥ و ١٨٥) . وكتاب السنة (٣٣٧ و٦١٣ و ٦٢٩) .

(29) ـ سورة المائدة (آية ٣) .

(30) ـ سورة المائدة (آية ٦٧) .

فالأمر اليوم أجل من أن يسكت عنه .

لقد كان تلطف الرسول (ص) في الأمر من باب ان المجتمع أصبح غاصا بالمنافقين ، وبمن لازالت في قلوبهم موجدة عليه وعلى علي (ع) وبني هاشم في كل ماجرى لهم . انه يعلم أن الأغلبية منافقة ، ولذلك رفضت الامامة لعلي (ع) واغتصبت حقه في ذلك انتقاما لماضيها الشركي .

٢ ـ التدبير الثاني / ابعاد المسلمين الى جهة الخارج .

ذكر ابن سعد في طبقاته ، انه لما كان يوم الاربعاء بدء برسول الله (ص) المرض ، فحمّ وصدع . فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده ثم قال : « أغز بسم الله في سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله فخرج وعسكر بالجرق فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار انتدب في تلك الغزوة فيهم ابوبكر وعمر بن الخطاب وأبوعبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص وسعيد بن زيد وغيرهم ، فتكلم قوم وقالوا يستهل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ، فغضب رسول الله (ص) غضبا شديدا فخرج وقد عصب على رأسه عصابة ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه » ، ثم قال « أما بعد ، أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في امارة أسامة ، ولئن طعنتم في امارة أسامة لقد طعنتم في امارة أبيه من قبل ، وأيم الله انه كان للإمارة خليق وان ابنه من بعده لخليق للإمارة » ثم نزل « فدخل بيته وذلك يوم السبت لعشرة خلون من ربيع الاول وثقل رسول الله (ص) فجعل يقول انفذوا بعث أسامة » .

إن المدقق في نبرة الخطاب الأخير . . والملابسات التي لفته يدرك الى اي مدى كان الرسول (ص) يراهن على ذهاب الجيش الى مهمته وبذلك يتم اجلاءه من المدينة . فالإمعان في تجهيز جيش اسامة زيادة على الابقاء على علي (ع) بجواره في اللحظة التي سيفارق فيها الحياة . . له دلالة قوية على أن الرسول (ص) كان يروم الى اجلاء كل من من شأنه الطمع في خلافة الرسول (ص) والتطلع اليها .

فهو من جهة يبين لهم أن أمر الامارة من اختصاص النص . وانه عندما أمر عليهم اسامة انما عمل ذلك من جهة اختياره الذي لادخل لمشورة فيه . فالمشورة لامدخلية لها في المسؤولية . . وهو من جهة اخرى يبين لهم انهم وأسامة وغيره

سواء . وانهم ليسوا دوي ميزة تناقض تأمير اسامة عليهم . . وان أسامة على صغر سنه يبقى جديراً بها ممن كانوا معه . وكأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن البعض سوف يرفض امامة علي (ع) لصغر سنه . فبادر الى هذا النوع من الاختيار لجعله درسا لأمته الى الأبد ! .

لقد حاول الرسول (ص) وبكل امعان اجلاءهم بعيداً عنه ولو ان وجودهم يومها كان أفضل من غيابهم ، اذن ، لأبقى عليهم رسول الله (ص) في المدينة وهو يعلم أن وفاته لاشك واقعة ! .

لكن ماالذي وقع ؟ .

كان تيار الاغتصاب من جهة واعيا بمقاصد الرسول (ص) مطلعا على تدابيره فأبوبكر وعمر بن الخطاب يدركان تمام الادراك ، أن شيوع امامة علي (ع) سوف يخلق لهما متاعب كثيرة . . وأن اجلاءهما خارج المدينة قد يفوت الفرصة عليهما ،فان كان ابوبكر وعمر بن الخطاب قد استشكلا تأمير اسامة عليهم فان ذلك كان محاولة منهم لإفشال خطة الرسول (ص) . هم مصممون على طلب الخلافة ، فاذا أنزلهم الرسول (ص) تلك المنزلة ،فكيف يتسنى لهم الصعود مجددا ، بعد أن يرسخ في وجدان المسلمين ان ابابكر وعمربن الخطاب ،هما كباقي المسلمين ، وانهما وإياهم سواء تحت امرة اسامة . ومن هنا عملا على افشال ذينك التدبيرين من خلال رفضهم امتثال الأمر .

انهم لم يجهزوا جيش اسامة ، وبقوا هناك على مقربة من الرسول (ص) يتتبعون مجريات الأمور . كان عمر يسترق السمع عن طريق عائشة في حين هرب ابوبكر الى منزله بالسنح[٣١] بل ان عمربن الخطاب ظل رافضا لإمارة أسامة ، على الرغم من تشبث الرسول (ص) بها عندما قال : « لعن الله من تخلف عن جيش اسامة »[٣٢] .

وذكر بن جرير الطبري في تاريخه ، ان عمر بن الخطاب طلب من أبي بكر ايام خلافة هذا الأخير ، عزل اسامة بن زيد . بل انه أحيانا يواجه بها اسامة وكأنه يجتر

---

(٣١) ـ الكامل (٢ / ٣٢٣) .

(٣٢) ـ الملل والنحل (٦) وشرح النهج (٦ / ٥٢) .

شيئا ما وجده في نفسه من ذلك الاختيار عندما كان يلقى اسامة بن زيد فيقول له :

« السلام عليك ايها الامير » ، ويقول :

« مات رسول الله وانت علي أمير »[٣٣] .

لقد كان ـ اذن ـ وجودهما في المدينة خطرا على الرسول (ص) وعلي (ع) لذلك بادر الرسول (ص) الى محاصرتهم باسلوب آخر أوضح للعيان بأن يعهد بشكل جلي ونهائي يكشف فيه عن الخليفة الشرعي من بعده . غير أن عمر بن الخطاب الذي كان يتجسس على كل مايصدر عن الرسول (ص) بادر الى منع الناس من احضار الكتاب والدواة للرسول (ص) لكتابة العهد ولم يكن لمنع عمر للناس عن احضار الدواة دلالة غير أنه خاف من أن يكون واضحا للجميع ليسهل عليهم بعد ذلك مزاولة التلبيس .

وقد عرف ذلك برزية يوم الخميس كما يقول ابن عباس ، لقد قال لهم الرسول (ص) :

« ائتوني بدواة وقرطاس اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا . فقال عمر بن الخطاب : ان الرسول يهجر » ، وقال : « حسبنا كتاب الله »[٣٤] .

لقد افشل عمر بن الخطاب ذلك التدبير ، وسكت الرسول (ص) بعد أن تبين له عدم جدوى كتابة العهد الأخير .

ولَنبْقَ الآن في اطار حديثنا عن السياق الذي تحرك فيه تيار الاغتصاب ، وكيف أن النفاق كان على ضربين ، أحدهما مثله تيار الاغتصاب والآخر مثله التيار الأموي .

---

(٣٣) ـ السيرة الحلبية (٣ / ٢٣١) ومختصر تاريخ دمشق (٤ / ٢٥٢) وكنز العمال (١٣ / ٢٧١) .

(٣٤) ـ البداية والنهاية (٥ / ٢٢٧) . وطبقات أبن سعد (٢ / ٢٤٢) وتذكرة السبط (٩٦٥) . ومسند أحمد (١ / ٢٢٢ و ٣٢٥ و ٣٥٥) . و صحيح البخاري (١ / ٥٤ / ١١٤) . ومسلم (٣ / ٤٥٤ و ٤٥٥ / ١٦٣٢ ـ ١٦٣٤) . وشرح النهج (٢ / ٥٤ و ٥٥) وتاريخ الطبري (٣ / ١٩٢ و ١٩٣) . والملل والنحل (٦) . والكامل (٢ / ٣٢٠) .

وعندما انتقلت روحه الشريفة ، وعلي (ع) منهمك في تغسيله . . لم يكن آنئذ ابوبكر في المقام .

لقد ذهب الى السنح ، في حين قام عمربن الخطاب على عادته ببلبلة الناس . وأظهر نوعا من الجنون ليدخل الناس في موضوع جانبي ، ويثير الغوغاء حتى لايعطي للناس فرصة في الالتفات الى من يخلف رسول الله . . ولكم قيل له ان الرسول (ص) قد مات ،ولكم قرئت عليه الآية التي قرأها عليه ابوبكر ،فهازاده ذلك الا إصراراً على تظاهره بالجنون وعدم الوعي حتى اذا جاء ابوبكر وذكره بما سبق ان ذكره به الآخرون ،استكان بشكل يثير الشك في أمرهما .

أخذ عمر يهدد بالقتل كل من قال ان محمدا قد مات . ويقول : ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي . وان رسول الله مامات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه اربعين ليلة ،ثم رجع بعد ان قيل مات ، والله ليرجعن رسول الله ،فليقطعن ايدي رجال وأرجل من يزعمون أن رسول الله مات .

وعندها قرأ عليه عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم في المسجد :

﴿ ومامحمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين ﴾ .

ولم يكن ذلك ليرد ابن الخطاب عن تشويشه للمسلمين . وقد خرج العباس فيما يرويه ابن سعد في طبقاته وكذا أنساب البلاذري ، خاطبا في الناس معلنا موته .

وكان عمر بن الخطاب كما ذكروا في حالة من الهوس والهذيان : « فمازال عمر يتكلم حتى ازبد شدقاه » .

فلما أقبل ابوبكر جلس عمر بن الخطاب وسكت عندما كان ابوبكر يتلوا الآية التي تليت عليه فما ردته عن تهديده للناس . فقال عندها :

« ايقنت بوفاته الآن ، وكأني لم أسمع هذه الآية »[٣٥] .

ولايغيب على حاذق مثل هذه الفبركات . اذ لو أن شدقيه أزبدا لجنة أصابته لفراق النبي (ص) أو مس لحقه حسرة على رحيل الرسول (ص) لما سكت عند قدوم صاحبه ابي بكر . ولما هرع الى السقيفة لكي لاتفوته الخلافة ولكان أجدر بمن أصابته تلك الجنة ولحقه ذلك المس ، ان يحضر جنازة الرسول (ص) وذكر صاحب كنز العمال « وان أبابكر وعمر لم يشهدا دفن النبي (ص) » .

وفي حديث عائشة كما نقله ابن هشام وابن كثير وأحمد بن حنبل : « ماعلمنا بدفن الرسول حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل ليلة الاربعاء » .

لقد احتفظ كل من ابي بكر وعمر بوجودهما في المدينة . ولم يعطوا اهتماما لوفاة الرسول (ص) كما تقدم . بل كان همهما ان يجادلا الانصار على الخلافة ويطرحا نفسيهما أوصياء على الامة في غيبة أهل الرأي ورغما عن رغبة كبار الصحابة .

---

(٣٥) ـ الملل والنحل (٧) .وشرح النهج (١ / ١٧٩) .والبداية والنهاية (٥ / ٢٤٢) .وطبقات أبن سعد (٢ / ٢٦٦) .ومسند أحمد (٣ / ١١٨) .

نتيجة المدخل

نستخلص من هذه المقدمة السريعة أن النفاق ظل موجودا في المجتمع الاسلامي الى مابعد وفاة الرسول الاعظم (ص) ويشكل بؤرة المعاناة اليومية للمسلمين . كما نستخلص أن حركة النفاق في المجتمع الاسلامي لم تكن واحدة . بل كانت عبارة عن فصائل وتيارات تختلف أهواءها ومقاصدها . فهناك من قد دخل الاسلام ليركب متن الصراع . وليكون له الأمر من بعد الرسول (ص) وهذا المنطق كان موجودا يومها في الجزيرة العربية . فعندما عرض النبي (ص) نفسه على بني عامر بن صعصعة فيما ينقله ابن هشام في السيرة ، قال : قال له رجل :

« أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك . قال : الأمر لله يضعه حيث يشاء . فقالوا له : افتهدي نحورنا للعرب دونك ، فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لاحاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه » .

لقد ادرك الكثير من العرب ، ان دعوة الرسول الاعظم (ص) لها شأن عظيم في المستقبل وانها لاأقل تبقى صفقة مربحة مادام يمثلها أعظم شخصية هاشمية . لقد عبر عن ذلك رجل من بني عامر بن صعصعة : « والله لو انني أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب »[٣٦] وهذا اغراء كافٍ لاولئك الذين افتقروا للرفعة والمجد في الجزيرة العربية . فتلك اذن ، فرصة لهم لطلب المجد وركوب

(٣٦) ـ سيرة ابن هشام (٢ / ٧٣) .

صهوة الدعوة الاسلامية من اجل تحقيق هاتيك المآرب . واذا كان بنو عامر بن صعصعة ممن قد عبر عنها بتلقائية واسلوب صريح ، فان هناك من هم اقل شأنا منهم ، وأكثر مكرا ليندسوا في الحركة النبوية لينتظروا ماوعدهم به الرسول الاعظم (ص) من فتح قصور كسرى وقيصر .

لقد حارب ابوسفيان رسول الله (ص) ردحا طويلا من الزمن وكان الكثير من العرب يفضلون انتصار الرسول (ص) ليس انتصاراً للحق الذي جاء به ، وانما انتصارا لقضيتهم .

فمحمد (ص) أولى لهم من أبي سفيان الذي أذلّهم ، ولهذا لم يكن في المصلحة القبلية أبو بكر ولا عمر ان ينتصر أبو سفيان الذي ينتمي الى « قصي » سادة قريش ، وهما من تيم بن مرة وعدي ، وهما اذل حي في قريش .

وهناك حادثة ينقلها بن هشام في السيرة تعكس ذلك الوجه من الحقيقة . . فقد ذكر ان العباس ركب بغلة النبي ليلة فتح مكة . . وخرج يبحث عن رسول يوفده الى قريش فيخبرهم بقدوم النبي (ص) ليأتوا اليه فيستأمنوه . فرأى أباسفيان فقال له : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك . ثم أردفه وأخذه ليستأمن له من النبي (ص) وكلّما مرّ على نار من نيران المسلمين قالوا عمُّ رسول الله (ص) على بغلته حتى مرّ عمر بن الخطاب . فلما رأى اباسفيان على عجز الدابة ،قال : أبوسفيان ! عدو الله ،الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولاعهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله (ص) فركض العباس بالبغلة وسبقه ، قال العباس : فاقتحمت عن البغلة ،فدخلت على رسول الله (ص) فركض العباس بالبغلة وسبقه ، قال العباس : فاقتحمت عن البغلة ،فدخلت على رسول الله (ص) ودخل عليه عمر ،فقال : يارسول الله هذا ابوسفيان قد أمكن الله منه بلاعقد ولاعهد .فدعني فلأضرب عنقه ،قال : فقلت : يارسول الله اني قد أجرته ، ثم جلست الى رسول الله ، فأخذت برأسه فقلت : والله لايناجيه الليلة دوني رجل . فلما أكثر عمربن الخطاب في شأنه ، قلت : مهلا ياعمر « فوالله إنه لو كان من رجال بني عدي بن كعب ماقلت هذا ،ولكنك عرفت انه من رجال بني عبد مناف » .

ان الاسلام كما فهمه نفر كبير منهم ، هو أن يرفع الله به أقواما ويحط به آخرين . فالقبلية كانت هي الاساس الذي يقوم عليه شأنهم ويتشكل منه وجدانهم . ويذكر المسعودي ان ابابكر قد بلغه في أيام حكمه عن ابي سفيان ، أمر ، فأحضره وأقبل يصيح عليه ، وأبو سفيان يتملّقه ويتذلل له ، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر ، فقال لقائده : على من يصيح ابني ؟ فقال له : على أبي سفيان ، فدنا من أبي بكر وقال له : أعلى أبي سفيان ترفع صوتك ياعتيق ؟ وقد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية . لقد تعديت طورك وجزت مقدارك ، فتبسم ابوبكر ومن حضره من المهاجرين والانصار ، وقال له : ياأبت ، ان الله قد رفع بالاسلام قوما وأذلّ به آخرين » .

وذكر بن عساكر في تهذيبه ، ان عمر بن الخطاب قدم مكة ،فقالوا له : ان أبا سفيان ابتنى دارا ، فألقى الحجارة فحمل علينا السيل ، فانطلق معهم عمر ، وحمل الحجارة على كتف ابي سفيان ، فرفع عمر يده وقال : الحمد للهالذي آمر اباسفيان ببطن مكة فيطيعني .

أما موقف هؤلاء من بني هاشم الذين كانوا حطب النار في كل صراعات المجد . فقد كرهوا لها الخلافة فيما بعد : حتى لايجتمع لها فضل النبوة والخلافة . فعندما قال البعض لعمر : فما يمنعك منه ؟ قال : أكره أن اتحملها حيا وميتا[٣٧] ، وفي رواية :لاأجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة [٣٨] .

ولقد أدرك بعضهم خلفية تيار الاغتصاب ، وواجههم بنفس المنطق . فهذا سعد بن عبادة الخزرجي يرفض بيعة ابي بكر ، وتحصل بينه وبين عمر مشادات كلامية ،ويقول له : « لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع » .

وأما أبو سفيان الذي أدرك أن أبابكر وعمر بن الخطاب مافعلا ذلك الاّ طلبا للرفعة : « مابال هذا الأمر في أقل حي من قريش ، والله لئن شئت لأملأنها خيلا ورجالا »[٣٩] .

---

(٣٧) ـ الإمامة والسياسة (١ / ٤١) .

(٣٨) ـ شرح النهج(١ / ١٨٩) .

(٣٩) ـ تاريخ الطبري (٢/٤٤٩) .

حتى ان ابا سفيان هذا الذي كان حريصا كأشد مايكون الحرص على هدم الاسلام . وبذل وسعه في اقصاء بني هاشم هاهو اليوم يربكه الموقف ، ويعز عليه أن يتأمر عليه أهل حي انما هو أحط حي في قريش . ولإمارة بني هاشم يومها أحب اليه ألف مرة من امارة بني تيم بن مرة وعدي بن كعب . لقد قالها يومئذ :

« أما والله لئن بقيت لأرفعن من أعقابها »[٤٠] .

وقد طلب البيعة من علي (ع) ورفض هذا الأخير بيعته لما يدركه منه من نوايا خبيثة .

فهو ماأراد ذلك الا ليحارب بنعرة قبلية جاهلية . وهي النعرة التي يتجنب علي (ع) القتال بها . وهو من سمع أخاه رسول الله (ص) « يقول ليس منا من دعى الى عصبية » ! .

وفي ذلك يقول أميرالمؤمنين علي (ع) لمعاوية : « فأبوك كان أعلم بحقي منك ،وأن تعرف من حقي ماكان أبوك يعرفه تصب رشدك »[٤١] .

وهو نفس الاسلوب الذي اتبعه معاوية ، اذ كثيرا مارام الحط من الشيخين بطرق مختلفة ، ومثال ذلك مارواه الحميدي في الجمع بين الصحيحين ،قال : « قال عبدالله بن عمر : دخلت على حفصة ونسواتها تنظف ، قلت : قد كان من أمر الناس ماتبين ، فلم يحصل لي من الأمر شيء ، فقالت : الحق لهم ،فانهم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون احتباسك عنهم فرقة ،فلم تدعه حتى ذهب ، فلما تفرق الناس خطب معاوية فقال : من أراد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه ،فلنحن أحق منه ومن أبيه » .

هذا غيض من فيض مما رزح به التاريخ من أدلة قارعة ،تكشف عن الواقع القبلي المتدني لتيار الاغتصاب ،وكيف كان موقف الرافضين له . ومما يؤكد على عدم التفاني العقيدي لهذا التيار انه كان جد حذر من الهزيمة ، مستعداً لكل الطوارىء في مختلف المعارك الكبرى للاسلام . فكتب التاريخ والسيرة تعطينا فكرة

---

(٤٠) ـ العقد الفريد (٤/ ٢٥٧) .

(٤١) ـ العقد الفريد ٤ / ٣٣٦ .

عن موقف ابي بكر في غزوة بدر .

ففي الوقت الذي تقدم فيه كل من علي (ع) وحمزة وعبيدة بن الحرث ، يبارزون صناديد الكفر ، كان ابوبكر خلفهم قرب الرسول (ص) في العريش الذي اقيم له ، يتفرج عليهم .

ويالها من فرجة ! وكان ابوبكر وحده مع الرسول (ص) بالعريش ![42] .

أما في غزوة أحد ، فإن الأمر أشد وأنكر . فلقد أنهزم الكثير من المسلمين . وكان ابوبكر وعمر وعثمان ممن فرّ في هذه الغزوة . ذكر السدي : لما أصيب النبي (ص) بأحد قال عثمان : لألحقن بالشام ، فإن لي به صديقا من اليهود ، فلآخذن منه أمانا ، فاني أخاف أن يدال علينا اليهود ، وقال طلحة بن عبيدالله : لأخرجن الى الشام ، فإن لي به صديقا من النصارى ، فلآخذن منه أماناً ، فإني أخاف أن يدال علينا النصارى .

وذكر السدي : « فأراد أحدهما أن يتهود ، والآخر أن يتنصر . قال : فأقبل طلحة الى النبي (ص) وعنده عليّ ، فاستأذنه طلحة في المسير الى الشام ، وقال : إن لي بها مالا آخذه ثم انصرف ، فقال النبي (ص) : عن مثلها من حال ، تخذلنا وتخرج وتدعنا ، فأكثر على النبي (ص) من الاستئذان ، فغضب علي وقال : يارسول الله ، إئذن لإبن الحضرمية ، فوالله لاعزّ من نصره ، ولاذلّ من خذله ، فكفّ طلحة عن الاستئذان عند ذلك ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ **ويقول الذين آمنوا : أهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم ، حبطت أعمالهم** ﴾[43] يعني اولئك يقول : انه يحلف لكم انه مؤمن معكم فقد حبط عمله بما دخل فيه من أمر الاسلام حتى نافق فيه »[44] .

يقول بن خلدون في تاريخه : « وغفر الله للمنهزمين من المسلمين ونزّل : ﴿ **ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم** ﴾[45] وكان منهم عثمان

---

(٤٢) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤١٦) .

(٤٣) ـ سورة المائدة (آية ٥٣) .

(٤٤) ـ تفسير الخازن (١ / ٥٠٣) وتفسير أبن كثير (٢ / ٦٢) .

(٤٥) ـ سورة آل عمران (آية ١٥٥) .

بن عفان بن ابي عقبة الانصاري » .

ويوم الخندق لما سكت كل منهم ولم يجب طلب عمرو بن عبدود العامري ، وكانت ستكون هزيمة نكراء لو لم ينهض اليه علي بن ابي طالب (ع) حتى قال الرسول (ص) :

« برز الايمان كله الى الشرك كله »[٤٦] .

وقال ايضاً : « لمبارزة علي بن ابي طالب لعمر بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي الى يوم القيامة »[٤٧] .

وقال « قتل علي لعمر بن عبد ود افضل من عبادة الثقلين »[٤٨] .

وعندما أراد الرسول (ص) فتح خيبر ، أعطى أبابكر الراية فلم يفتح ورجع منهزما ، وأعطاها بعد ذلك عمرا فرجع منهزما يجبن أصحابه ويجبنونه حتى أعطاها في الثالثة عليا (ع) ففتحت على يده وقال (ص) : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، كرار غير فرار ، لايرجع حتى يفتح الله له »[٤٩] .

فهذا إن دلّ فانما يدل على مدى حرص هذا التيار على الحياة ، والابتعاد عن أي موقف يهدد حياتهم . فهم لايطلبون الشهادة بقدر ماكانوا يطلبون امتيازات المستقبل ، وهو مايفسر فرارهم يوم الزحف .

هذا ماانكشف من سلوك تيار الاغتصاب .

---

(٤٦) ـ شرح النهج (١٩ / ٦١) .

(٤٧) ـ تاريخ بغداد (١٣ / ١٩) . والمستدرك (٣ / ٣٢) . وفرائد السمطين (١ / ٢٥٦) . ومقتل الحسين (١ / ٤٥) . وشواهد التنزيل (٢ / ٩) . ومناقب الخوارزمي (١٠٧) . وتاريخ دمشق (١ / ١٦٩) وتفسير الرازي (٣٢ / ٣١) .

(٤٨) ـ السيرة الحلبية (٢ / ٦٤٢ ـ ٦٤٣) .

(٤٩) ـ سنن أبن ماجة (١ / ٥٢٠ ح ١٦٢٧) . والبخاري (٤ / ١٥٤٢ ح ٣٩٧٢ وح ٣٩٧٣) وصحيح مسلم (٥ / ٢٤ و ٢٥) . وحلية الأولياء (١ / ٦٢) . وأسد الغابة (٤ / ٤٨) . وتاريخ السيوطي (١٦٨) . ومناقب الخوارزمي (١٦٨) . وكفاية الطالب (٩٨ و ١٠٢) والمصنف (٧ / ٤٩٧ و ٥٠٠) . وكتاب السنة (٥٩٤) . والمستدرك (٣ / ١٠٩) وفرائد السمطين (١ / ٢٦٤) .

وعليه فان هذا التيار كان يهدف الى السلطة ، وكان يشكل تياراً مستقلا ، لأن همومه ، وأهدافه وسلوكه . كانت تختلف كثيراً عن باقي التيارات التي تشكل منها خط النفاق في المجتمع الاسلامي . لذلك السبب رأينا كيف عمل الرسول (ص) الوسع في ابعادهم عن المدينة يوم جاءه الأجل ، وكيف عملوا على افشال ذلك التدبير .

أما التيار الثاني فهو تيار مستقل له شوكته ومقدراته له أهدافه ومقاصده يميزه عن التيار الأول ، انه كان يمثل الإمتداد السري لحركة الشرك في الجزيرة العربية . وكان هذا التيار متمثلاً في بني أمية ، وعلى رأسهم ابوسفيان وبنوه ! .

وحسبنا من ذلك شهادات تاريخية تثبت بقاء أبي سفيان وابنه معاوية على الشرك .

فقد روى ابن الزبير قال : « كنت مع أبي باليرموك وأنا صبي لاأقاتل ، فلما اقتتل الناس نظرت الى ناس على تل لايقاتلون ، فركبت وذهبت اليهم واذا أبو سفيان بن حرب ومشيخة من قريش من مهاجرة الفتح ، فرأووني حدثا ، فلم يتقوني ، قال :

فجعلوا والله اذا مالت المسلمون وركبتهم الروم يقولون : « ايه بني الأصفر » فلما هزم الله الروم أخبرت أبي ، فضحك ، فقال : « قاتلهم الله أبوا الا ضغنا ، لنحن خير لهم من الروم »[50] .

وفي أيام عثمان جاء ابوسفيان اليه وجماعة من أقاربه وقال :

« يامعشر بني أمية ! ان الخلافة صارت في تيم وعدي حتى طمعت فيها ، وقد صارت اليكم فتلقفوها بينكم تلقف الصبي الكرة : فوالله مامن جنة ولانار »[51] .

وذكر صاحب شرح النهج ، « ان أبا سفيان مرّ بقبر حمزة ، وضربه برجله وقال : ياأبا عمارة ! ان الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس صار في يد غلماننا اليوم يتلعبون به » .

---

(٥٠) ـ أسد الغابة (٥ / ١٤٩) والطبري (ج ٤ ص ١٣٧) .

(٥١) ـ الأغاني (٦ / ٣٥٥ ـ ٣٥٦) .

وذكروا ايضا ، ان رسول الله رأى يوما معاوية وعمرو بن العاص يسيران في غزاة تبوك فقال لأصحابه :

« اذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما ،فانهما لايجتمعان على خير أبدا »[٥٢] .

وفي رواية احمد بن حنبل في المسند ، رفع الرسول (ص) يديه فقال « اللهم اركسهما في الفتنة ركسا ، ودعهما الى النار دعاً » .

وحسبك مافاضت به كتب الاخبار من أيامهم ، يوم حولوها الى ملك عضوض ، وملؤوها ظلما وفجورا . وحسبك ايضا مامرّ علينا من قول حفيدهم يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ، لّما امتثلها صريحة :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولاوحي نزل[٥٣]

---

(٥٢) ـ العقد الفريد (٤ / ٣٤٦) .

(٥٣) ـ مسند أحمد (ج ٤ ص ٤٢١) .

النفاق والنهاية المفتعلة !

هناك لفتة عجيبة في التاريخ الاسلامي . جديرة بأن تثير عقول الباحثين . وهي تلك التي تتصل بواقع حركة النفاق في مجتمع الرسول (ص) ، وعن تلك النهاية المزعومة ، والمفتعلة للنفاق بشكل يدفع الى طرح السؤال حول ما اذا كانت هناك نهاية فعليه للنفاق أم أن هناك تأسيس جديد لهذه الحركة .

ان النفاق ظل موجودا في حياة الرسول (ص) ويشكل الحدث البارز بعد الفتح الاسلامي ،غير انه سرعان ما أختفى الحديث عن النفاق والمنافقين بعد استتباب الحكم لتيار الاغتصاب .

لم يعد هناك حديث يتناول مشكلة النفاق ولا أنباء تتعرض لأعمال المنافقين . فهل هذا يعني ان موت الرسول (ص) سينهي تلقائيا حركة النفاق ؟! .

أم ان تيار الاغتصاب كان من مصلحته تغييب هذا الاهتمام وبأن يتواضع على توازنات معينة مع باقي الفصائل المنافقة ؟! .

ان هذا السكوت المفاجىء عن ظاهرة النفاق وتحويل الانظار الى بني هاشم لادلالة له غير ماحدث من اتصال واتفاق بين فصائل تيار الاغتصاب ومآرب باقي الشرائح المنافقة . فهل يعقل أن المنافقين لم تكن حكمة الرسول الاعظم ونبله وعصمته بالذي يزكي ويربي هؤلاء المنافقين على الاسلام . حتى يأتي ابوبكر وعمر وعثمان فيحسن اسلامهم آنذاك . في حين نجد القرآن ينبىء الرسول (ص) حتى

آخر عهده بكثرة المنافقين وعن دسائسهم المنكرة .

﴿ والأعراب أشد كفرا ونفاقاً ﴾[٥٤] .

﴿ وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة ﴾[٥٥] .

﴿ ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم ﴾[٥٦] .

فالنبأ القرآني يخبر عن ظاهرة خطيرة ومنتشرة في المجتمع . كيف تُمحى بسرعة فور رحيل النبي (ص) ولأن طبيعة النفاق دائما من التكتم بحيث لاتمكن من ضبط حقيقتها .

أشار القرآن الى مظاهرها وسلوك أصحابها ، وعمل على فضحهم ، تمشيا مع أدب الرسالة النبوية التي تحكم على الظاهر وتحتفظ بالعلم في امور الباطن . لقد عرفهم بسيماهم في لحن القول ، والتخلف عن الجهاد ، ونشر البلبلة والاشاعة ، وموالات المشركين . هذه الصفات لو طبقناها على كثير منهم ، لاستطعنا اكتشافهم عن آخرهم وبسهولة يقل لها نظير ، فكثير ممن سموا بعدها صحابة ،كانوا متخلفين عن الجهاد ، وموالين للمشركين ويلحنون في القول . ومبغضين لعلي بن ابي طالب (ع) الذي قال فيه الرسول (ص) كما تقدم « لايحبك الا مؤمن ولايبغضك الا منافق » ! .

(٥٤) ـ سورة التوبة (آية ٩٧) .

(٥٥) ـ سورة التوبة (آية ١٠١) .

(٥٦) ـ سورة التوبة (آية ١٠١) .

الشيخان ومشكلة النفاق

كثيراماافتقد المحققون الجرأة في تناول هذا الموضوع رغم مايقفون عليه من وثائق دامغة تثير الشك في الأذهان .

هل كان هناك مايجمع بين بني أمية والخلفاء أو الشيخين بشكل خاص ؟ .

هذا السؤال حيرني كثيرا . وكنت اعتقد بأني برعاً في هذه الحيرة المملة . لكن فاجأني أن عثرت عمن يشاركني هذه الحيرة ، من دون أن يغمس فيها كل دلاءه . كان ذلك هو الاستاذ المحترم محمود ابورية ،عندما تساءل في طيبة خاطر ، وحسن نية ، في كتابه « ابوهريرة » عن طبيعة هذه العلاقة وسوف اذكر نصه هنا :

« مما يدعو الى الملاحظة هنا اننا لم نجد عمر رضي الله عنه انه قد اتبع هذه السنة مع معاوية بن أبي سفيان ، فقد أبقاه عاملا على دمشق سنين طويلة ولم يزعجه بالعزل كغيره ـ وكان ذلك مما أعان معاوية على طغيانه ، وان يحكم حكما قيصريا طوال أيامه ،وبخاصة بعد أن استولى على الشام كله في عهد عثمان ، ثم امتد هذا الطغيان الاموي الى مابعد معاوية حتى تسلم العباسيون الحكم . وأمر آخر يستوجب الملاحظة ، ذلك ان عمر لم يكن هو الذي ولى معاوية على دمشق وانما الذي ولاه هو اخوه يزيد بن ابي سفيان .

ذلك انه لما فتحت دمشق في عهد عمر أُمّر عليها يزيد بن ابي سفيان . ولما احتضر يزيد ، استعمل أخاه معاوية مكانه من غير أن يستشير عمر على ذلك » .

ثم ينهي قوله : « فهل جعل عمر دمشق من نصيب بني أمية فأمر عليها في أول الأمر يزيد بن ابي سفيان ثم رضي بأن يعهد يزيد هذا بالإمارة الى أخيه معاوية بغير أن يرفع في ذلك اليه ؟ وهل فعل عمر ذلك ليتألف بني أمية وليتقي كيدهم ومكرهم ، وهم قوم أهل شر ومكر وكيد ؟ أم أن هناك أسبابا اخرى دعت الى ذلك ! .

هذا مالاعلم لنا به ! وانما الذي يعلمه هو علام الغيوب »[٥٧] .

وليس فيما أحدسه من موقف الاستاذ الجليل ، سوى تخوفا من الخوض في مثل هذه الموضوعات اذ يصعب على استاذنا الجليل موضعة عمر بن الخطاب والبحث في أحواله . فهو أحد العمالقة الذين جعل منهم تاريخ العامة ، الذات المتعالية التي تند عن التحليل والنقد .

ولقد سبق ان اكدنا في كتاب « الانتقال » على ذلك لإظهار مافي الأمر من تناسب . لقد ذكرنا ماقام به عمر بن الخطاب من تأمير بني أمية على أصقاع واسعة ،واعتبرت ذلك بمثابة حالة من السطحية السياسية « لأن بني أمية لم يكونوا مكتوفي الايادي بعد ان كانوا طويليها في زمن البعثة . وليس بنو امية عناصر ساذجة ، وانما هم جهاز وحالة قابلة للنشوء في كل لحظة ،فتأميرهم لايعني سوى صب مزيد من النفوذ في جعبتهم ، ولقد قووا في زمن عمر بن الخطاب »[٥٨] .

ولكني أحببت استدراك ماكنت ذكرته هناك ، لأن المسألة ظهر لي فيها مزيدٌ من الوضوح .

لقد قلت بأن عمر « كان يحاسب الأمويين حسابا عسيرا ، لكنه في نفس الوقت يؤمرهم على أصقاع وسيعة » والواقع ،انه لم يكن يحاسبهم حسابا عسيرا على الامارة وانما كان يفعل ذلك معهم في قضايا صغيرة مثل ذلك الذي تقدم . يقول الزمخشري في ربيع الابرار : « وكانت امارة معاوية عشرين سنة ولاه عمر بن الخطاب الشام وحاسب عماله الا معاوية » .

---

(٥٧) ـ ابو هريرة / محمود أبو ريه (ص ٨٧) .

(٥٨) ـ الانتقال الصعب للمؤلف (ص ١٦٣) .

وهذا رد على ماسبق مني ،لانني حتى تلك اللحظة ، كان لايزال يخامرني ماخامر الاستاذ أبارية من قبل من تردد بهذا الشأن . وهو في نفس الوقت ردّ عليه ،لما ادعاه من ان عمر بن الخطاب لم يُولِّ معاوية مباشرة على الشام كما سنوضحه . والآن وقد حصحص الحق ، وانكشف الستار . كيف كانت العلاقة وماهي خلفياتها الحقيقية ؟ .

لقد واجه تيار الاغتصاب بعد أن تقلد زمام الامور كتلتين :

الاولى : كتلة بني هاشم .

والثانية : كتلة التيار الاموي .

فما أن غاب الرسول (ص) حتى نهض ابن الخطاب الى السقيفة يطرح رفيقه على رؤوس الصحابة .

وبعدها عمل على اكراه من كان معتصما ببيت فاطمة بنت الرسول (ص) بعد أن همّ بحرق بيتها . وماكان ايضا من أمره في منع فاطمة ارث ابيها حتى ماتت وهي غاضبة عليه وعلى رفيقه أبي بكر . الى ماهناك من أمثلة سوف نتطرق اليها فيمابعد .

ان هذه العداوة كانت تشكل خطرا على عمر . وهو لايزال وزيرا لأبي بكر . كيف يكون له الأمر بعد أن استتب لهما الأمر في السقيفة ،على نحو فلتة قال عنها عمر نفسه :

« وقانا الله شرها » .

ومن جانب آخر ، تبين بأن التيار الاموي الذي يمثل امتدادا للشرك في الجزيرة العربية كان هو ايضا له نفوذ داخل المجتمع ،وحضور قوي .

وأدرك الشيخان أن دخولهما في صراع مع التيار الاموي سوف يثير عليهما مشاكل خطيرة . وهما من يعلم مدى نفوذ هذا الفصيل في المجتمع ، وقد سمعا أبا سفيان يقول بعدها : « أما لو شئت لأملأنها خيلا ورجالا »[٥٩] وقال : « أما والله

---

(٥٩) ـ تاريخ الطبري (٢ / ٤٤٩) .

لئن بقيت لأرفعن من أعقابها »[٦٠] .

ومما يدل على قوة الفصيل الهاشمي والفصيل الاموي . واهتمام الشيخين بهما كعدوين لخلافتهما . ماذكره البلاذري في الأنساب ،قال ابوقحافة عندما بلغه نبأ وفاة الرسول (ص) وهو بمكة : « فمن ولي أمر الناس بعده ،قالوا له : ابنك ،فقال أرضي بذلك بنو هاشم وبنو عبدشمس وبنو المغيرة ؟ .

قالوا : نعم ،قال : فانه لامانع لما أعطى الله » .

ولقد أحس الشيخان بخطورة هذا الفصيل ، وخشيا أن يتم تضامن بين الفصيلين بني هاشم وبني أمية للعمومة التي بينهما . خصوصا بعد ان سمعوا من أبي سفيان ماسمعوه من بيعته لعلي وتحريضه لبني هاشم ،واستئذانهم في نصرتهم . وانه في هذه الفترة لم يكن يقول ابوسفيان عن نفسه وعشيرته بني امية ،وانما كان يقول « انما هي بني عبد مناف » .

ليستدرج بذلك بني هاشم الى القاعدة العشائرية ، انا وابن عمي على الغريب ! .

ذكر بن عبد ربه « توفي رسول الله (ص) وأبوسفيان غائب في مسعاه ، اخرجه فيها رسول الله (ص) فلمّا انصرف لقي رجلا في بعض طريقه مقبلا من المدينة .

فقال له : مات محمد ؟ .

قال : نعم .

قال : فمن قام مقامه .

قال : ابوبكر .

قال ابوسفيان : فماذا فعل المستضعفان عليّ والعباس .

قال : جالسين .

قال : أما والله لئن بقيت لهما لأرفعن من أعقابهما ،ثم قال :

---

(٦٠) ـ العقد الفريد (٤ / ٢٥٧) .

اني أرى غبرة لايطفيها الا دم »[61] .

ومن هنا ،وخوفا من أن يتم اللقاء والتحالف بين الفصيلين على مواجهة الشيخين ،حاول عمر اللعب بكل الاوراق وان يبادر هو الى التحالف مع بني امية من أجل محاصرة بني هاشم . فلذلك عمل فورا على تفويت الامارة اليهم . ويذكر الطبري في تاريخه ، انه لما استخلف ابوبكر ،قال ابوسفيان مالنا ولأبي فصيل ،انما هي بنو عبد مناف ، فقيل له انه قد ولي ابنك قال : وصلته رحم .

وجاء في تاريخ بن خلدون :

« ثم جاء عمر فرمى بهم الروم ، وأرغب قريشا في النفير الى الشام ، فكان معظمهم هنالك ، واستعمل يزيد بن ابي سفيان على الشام وطال أمد ولايته الى أن هلك في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة ، فولّى مكانه أخاه معاوية وأمّره عثمان من بعد عمر ، فاتصلت رياستهم على قريش في الاسلام برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها ولاينسى عهدها ايام شغل بني هاشم بأمر النبوة »[62] .

كما ذكر المسعودي : « ولما انفذ ابوبكر الامراء الى الشام كان فيما أوصى به يزيد ابن ابي سفيان وهو مشيع له »[63] .

لقد امتدت جسور الخلفاء مع شريحة النفاق . . . تداخل يوضح مدى تناغم المؤامرة في منعرجاتها كلها بشكل يثير الشك ويوقع في الاستفهام .

وبذلك أسدل الستار على المنافقين ، وانتهى الحديث عنهم . وتلك أهم خدمة قدمها الخلفاء لبني أمية الذين كانوا يضيقون ضرعا ويجدون ضغنا لما يروجه المسلمون فيما بينهم من أمر المنافقين ! كانوا يتوخون العمل في السر . والغمل على استغفال المسلمين .

من هنا بدأت عملية مد الجسور مع مختلف المنافقين ، من أجل دعم مكاسبهم . وفي مقابل ذلك السكوت عن اثارة قضيتهم في المجتمع .

---

(٦١) ـ العقد الفريد (٤ / ٢٥٧) وتاريخ الطبري (٣ / ٢٠٩) وشرح النهج (٢ / ٤٤) .

(٦٢) ـ تاريخ ابن خلدون (٣ / ٤) .

(٦٣) ـ مروج الذهب (٢ / ٣٠٩) .

لقد غضب الرسول (ص) وهو على فراش الموت ، وكان الحزن يعتصر قلبه الشريف طيلة الأيام التي سبقت وفاته (ص) فهو قد رأى رؤية يكتشف منها محنة أهل البيت (ع) واغتصاب الخلافة من أهلها ، فهو قد رأى رؤية (ص) بني الحكم يوما ينزلون على منبره فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات وأنزل الله في ذلك : ﴿ **وماجعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس** ﴾[٦٤] .

لقد أدرك المسلمون منذ البداية ، أهمية العداوة بين الاسلام وبني أمية ، وكانوا أشد حذرا منهم . ولكن الخلفاء مافتؤوا يسخون عليهم بالامارات . ولعمري ، إن معاوية لم يكن له من الشأن في بلاد الشام ، ولاتلك الشوكة لولا مامكن له فيه عمر بن الخطاب .

ان معاوية الذي كان مطعوناً في دينه ـ حسب قول بن ابي الحديد ـ والذي لم يسلم الا بعد الفتح خوفا من القتل . يؤمره عمر على الشام ، ولم يزحزحه عنها منذ ذلك الوقت .

فهل كان ذلك تأليفا من عمر بن الخطاب لقلوب المنافقين . حتى نعود الى طرح نفس السؤال السابق ؟ اذن ، كان أحرى وأجدر أن يؤلف بن الخطاب قلب فاطمة (حاشاها) في حق ابيها . . ويؤلف قلوب الصحابة الكبار بنفس السخاء . ولكان أولى له فأولى أن يؤلف قلب سعد بن عبادة الخزرجي (رض) بدل التآمر على قتله ! .

بالاضافة الى هذين الفصيلين . هناك فصيل غير منظم . مثلته عناصر متفرقة ، تحكمها النزعة الفردية ، والروح الانتهازية . هؤلاء لم يكن لهم تأثير كبير على المشروع النبوي . نظرا لكونهم غير استراتيجيين . وهم عموم الطلقاء من غير بني أمية اولئك الذين ارتبطوا بمعاوية وغيره طمعا في المناصب والاموال ، كعمرو بن العاص ، وابي هريرة ، وسمرة بن جندب .

وعليه سوف نسمي هؤلاء الاصناف كالتالي :

تيار النفاق ، وهو التيار الذي يجمع كل الفصائل التي حاربت التوحيد ، أو

---

(٦٤) ـ تفسير القرطبي (ج ١٠ ص ١٨٦). والدر المنثور (٤ / ١٩١) .

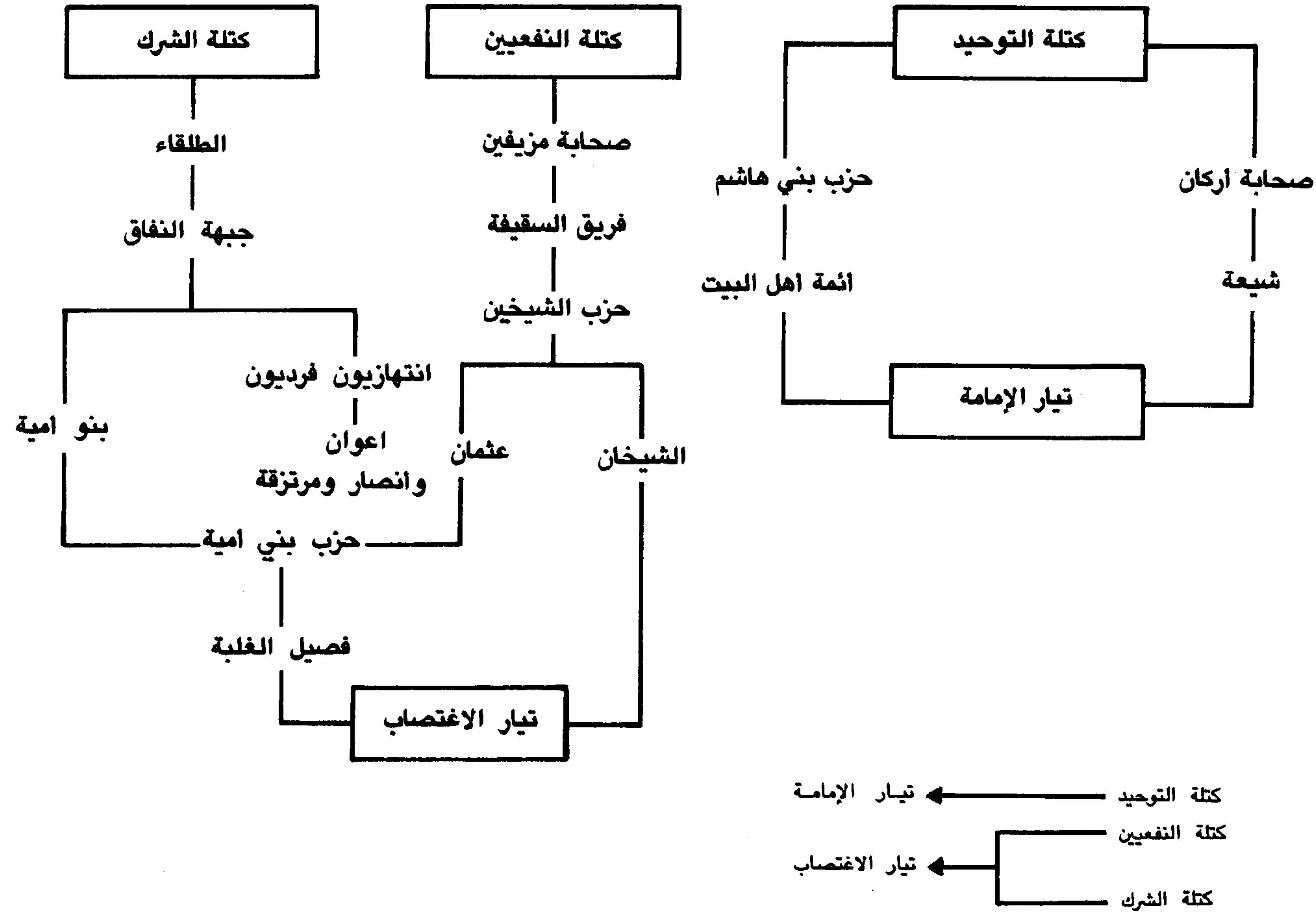
دخلت الاسلام بحثا عن أهداف غير التوحيد . وينقسم الى ثلاثة أقسام :

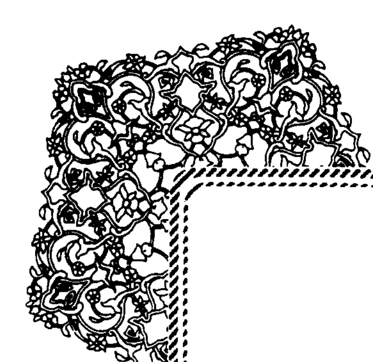
١ ـ فرقة السقيفة .

٢ ـ فصيل بني امية .

٣ ـ فصيل الانتهازيين ، ومنهم أعوان الخلفاء .

تلك هي التيارات التي تشكلت منها حركة النفاق في عصر الرسول . وانقضت على مقاليد الامور من بعده .


كتلة التوحيد
صحابة أركان
شيعة
حزب بني هاشم
ائمة اهل البيت
تيار الإمامة
كتلة النفعيين
صحابة مزيفين
فريق السقيفة
حزب الشيخين
الشيخان
عثمان
تيار الاغتصاب
كتلة الشرك
الطلقاء
جبهة النفاق
انتهازيون فرديون
اعوان
وانصار ومرتزقة
بنو امية
حزب بني امية
فصيل الغلبة
كتلة التوحيد
تيار الإمامة
كتلة النفعيين
كتلة الشرك
تيار الاغتصاب



الباب الأول

الخلفاء الراشدون .. حبكة مفتعلة !

الفصل الأول

الاصطلاح والمفهوم



تنطوي عبارة الخلفاء الراشدون على معنيين اثنين . أحدهما لغوي ، والثاني ، اصطلاحي .

أما لغويا ، فان عبارة : « الخلفاء الراشدون » : اذا فككنا تركيبها ، ونظرنا لغويا في المفردتين المكونتين لها ، نجد مايلي :

خلفاء ، خليفة من الخلافة . . وهي لغة تعني النيابة . . وخليفة الرجل ، من يقوم مقامه . . وفي القرآن . **﴿ إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء ﴾**[1] .

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾[2] .

﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾[3] .

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾[4] .

﴿ واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ﴾[5] .

---

(١) ـ سورة الأنعام (آية ١٣٣) .

(٢) ـ سورة الأعراف (آية ١٦٩) .

(٣) ـ سورة الأعراف (آية ٦٩) .

(٤) ـ سورة يونس (آية ١٤) .

(٥) ـ سورة البقرة (آية ٣٠) .

﴿ ياداوود انا جعلناك خليفة في الأرض ﴾[٦] .

أما لفظة « الراشدون » جمع راشد . صفة للنضج والحلم والعقل .

أما في المصطلح فإن الخلفاء جمع خليفة مشتقة عن مصدر خلافة . . وهي النيابة ، والقيام مقام الرسول (ص) بعد وفاته ، وتمثل كل مهماته كحمل الناس على الطاعات وتنفيذ حكم الشريعة .

والخلفاء الراشدون هم جماعة تلي الأمر بعد الرسول (ص) ويكون هديها من صميم هدي الرسول (ص) .

في الاصطلاح الذي تواضع عليه العامة فيما بعد ، أصبحت كلمة « الخلفاء الراشدون » تطلق على أشخاص معينين . هم أبوبكر وعمر وعثمان وعلي . وقد طال الأمد على العامة الى أن قسى قلبها وتحجر على هذا الاصطلاح ، رغم مايعتريه من تعسف على الواقع التاريخي ، ومفاد النص ، اللذين تتأكد من خلالهما الخلفية السياسية لهذا الاصطلاح .

فتاريخيا لم يكن اسم خليفة متداولا في عصر الرسول (ص) بمعناه الاصطلاحي الا في شخص علي (ع) وذلك للأدلة التي ذكرناها آنفا ، كحديث يوم الدار[٧] .

وكان أبوبكر قد سمى نفسه « خليفة رسول الله وكتب بذلك الى الأطراف »[٨] .

فكان يكتب من خليفة رسول الله ،وكان عمر يكتب : « من خليفة خليفة رسول الله » .

وكان قبل ذلك يقال له : « خليفة خليفة رسول الله ،فعدلوا عن تلك العبارة لطولها »[٩] .

وكان ابوبكر في البداية يتحرج من الجهر بها ، ويضطرب من أمرها . فقد جاء

---

(٦) ـ سورة البقرة (آية ٢٤) .

(٧) ـ تفسير الطبري (ج ١٩ ص ٧٤) .

(٨) ـ الصواعق المحرقة (٩٠) .

(٩) ـ تاريخ السيوطي (١٣٧) .

في لسان العرب عن ابن الاثير ان اعرابيا جاء أبابكر وقال له : « أنت خليفة رسول الله » ؟ .

فقال : لا .

فقال : فما أنت ؟ .

قال : أنا الخالفة بعده .

قال ابن الاثير ، الخالفة : « الذي لاغناء ولاخير فيه . وانما قال ذلك تواضعا » .

ولست ادري على أي وجه أعتبرها ابن الاثير كذلك . وهل من التواضع أن يصف الانسان نفسه بالحمق والنفاق وهو في مقام الخلافة . وذلك هو ما ذهب اليه العسكري في الاوائل من معنى « خالف » اذ يقول : « وأما الخلافة بالفتح فالحمق وقلة الخير ، رجل خالف ».وفي القرآن الكريم : ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾[10] .

قال ابوزيد : « يعني من لاخير فيه من المنافقين »[11] .

وكان المفهوم اللغوي لكلمة خلافة هو الجاري به العمل أيام الشيخين ، لما تقدم من تسمية عمر لنفسه خليفة خليفة رسول الله ، وتركها لاستثقالهم طولها .

ولو أنها كانت تعني المفهوم الاصطلاحي ، لكان سُمي ابوبكر إماما ، وأميراً للمؤمنين نظرا لتداخل معاني هذه الكلمات في الاعتبار الشرعي والاصطلاحي .

فكلمة إمام وأمير المؤمنين لم تكن متداولة اصطلاحيا الا في شخص علي (ع) سواء في زمن الرسول (ص) أو بعده كما تقدم ويعزز ذلك ماأكده المؤرخون من أن أول من سمى نفسه أميرالمؤمنين من الخلفاء بعد وفاة الرسول (ص) هو عمر بن الخطاب . وكان عدي بن حاتم أول من سماه بها حسب المسعودي ، وأول من سلم عليه بها ، المغيرة بن شعبة . وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الاشعري . فلما قرأها على عمر قال : « اني لعبد الله واني لعمر واني لأمير

---

(١٠) ـ سورة التوبة (آية ٨٣) .

(١١) ـ الأوائل : ١٠٠ .

المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين »[١٢] .

وذكر العسكري في أوائله : « ان ابابكر كان يكتب من خليفة رسول الله حتى كتب عمر الى عامل العراق ان يبعث اليه رجلين يسألهما عن العراق وأهله ، فبعث لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم ، فقدما المدينة ودخلا المسجد ، فوجدا عمرو بن العاص فقالا : أستأذن لنا على أميرالمؤمنين ، فقال : انتما والله أصبتما اسمه فدخل على عمر ،فقال .

السلام عليك ياأميرالمؤمنين فقال : مابدا لكم في هذا لتخرجن مما دخلت فيه فأخبره ، وقال : « أنت الأمير ونحن المؤمنون ، فجرى الكتاب بذلك من يومئذ في كلام هذا معناه » .

وكان من الصعب جدا على فريق السقيفة أن يفوز بهذا اللقب من دون أن يجد حرجا كبيرا .

اذ سبق ان قرّ في وجدان المسلمين ان الخلافة أمر يقرره النص ، لأنها ملازمة للإمارة التي سبق أن أوضحنا رأي الرسول (ص) فيها منذ البداية عندما عرض نفسه على بني عامر بن صعصعة قائلا : الأمر لله يجعله حيث يشاء . ولأن الخلافة ظلت من اختصاص الامام علي (ع) لما استحقها بمؤازرته . فهي اصطلاحا كانت من اختصاصه منذ واقعة الانذار بيوم الدار . ولكن سرعان ماقست قلوب الذين لايعلمون ،فأصبحوا يستسيغونه . وكثيرا ماكان المتزلفون والمنافقون من أعوان المغتصبين ، يساهمون في اطلاق هذه الألقاب مجانا على تيار الاغتصاب ،وذلك من أجل تفويت ذلك الامتياز على أهله الحقيقيين .

هذا فيما يرتبط بكلمة خلافة لغويا واصطلاحيا من وجهة نظر التاريخ .

وجاء في أحاديث العامة مايؤسس لادعاء جديد في أمر الخلفاء الأربعة بعد الرسول (ص) وهو ماأسماه الحديث « الخلفاء الراشدون » معتبرين لفظة « الراشدين » بمثابة ضميمة تخصص الاربعة ، وتضعهم في المرتبة التشريعية . وذلك وفق ماجاء في الحديث :

---

(١٢) ـ مروج الذهب (٢ / ٣١٦) .

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجد »[١٣] .

واعتاد أهل السنة والجماعة أن يعينوا الخلفاء الاربعة ، كتخصيص لهذا الحديث ، وهو ماذكره صاحب الموافقات عن النبي (ص) « ان الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين ، واختار لي منهم أربعة : أبابكروعمر وعثمان وعلي » .

وقبل الشروع في الرد على هذا الادعاء . أرى من الأولى إثارة نقطة حساسة في هذا المقام . فما ثبت عن الرسول (ص) من طريق آخر ، انه حدد معنى الخلفاء من بعده ،وجعل صفتهم رواية الحديث والسنة . قال « اللهم ارحم خلفائي . اللهم ارحم خلفائي . اللهم ارحم خلفائي . قيل له : يارسول الله ، من خلفاءك » ؟ .

قال : « الذين يأتون بعدي يروون حديثي وسنتي » .

فهذا التحديد يُعرف بصفة خلفاء الرسول (ص) الذين يعملون على نشر سنته . ويستفاد من ذلك ان سنتهم واحدة بهذا الاعتبار الذي تحدده وحدة المصدر ، ووحدة الاتجاه في سنتهم جميعا ،باعتبارها واقعة في خط سنة الرسول (ص) فلننظر كيف كان موقف الخلفاء ما عدا عليّ (ع) من السنة والحديث .

جاء في تذكرة الحفاظ ، انه بعد وفاة النبي (ص) جمع أبوبكر الناس ، وخطب فيهم قائلا :

« انكم تحدثون عن رسول الله (ص) أحاديث تختلفون فيها ،والناس بعدكم أشد اختلافا ، فلاتحدثوا عن رسول الله (ص) شيئا ، فمن سألكم فقولوا : بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه » .

وكان هذا الاجراء تعسفيا لمنع الرواية ومحاصرة السنة . والابقاء على القرآن ، لكونه حمالاً ذا وجوه ، يسهل عليهم التلبيس والتضليل . ولاعليك من دفاع أهل

---

(١٣) ـ سنن ابن ماجة (١ / ١٦) .

التبرير من خوف أبي بكر على كتاب الله . وهو الذي منع فاطمة من ارث أبيها لحديث انفرد به .

وهو « لانورث ماتركنا » وقد احتجت عليه فاطمة بالقرآن . وأبى عليها ذلك ،عندما قالت له : ﴿ وورث سليمان داود ﴾[١٤] ،﴿ وإنّي « خفت الموالي من ورائي ،وكانت امرأتي عاقراً ، فهب لي من لَّدنك ولياً * يرثني ويرث آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾[١٥] .

فلو كان كما قال : قولوا بيننا كتاب الله ،فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه ،لما رفض نصا قرآنيا ، وتمسك لحديث انفرد به يخالف صريح القرآن .

ومن سيرتهم ايضا في تطويق السنة النبوية ، ماذكر ابن ماجة في السنن ،ان قرظة بن كعب قال :

« بعثنا عمر بن الخطاب الى الكوفة وشيعنا فمشى معنا الى موضع صرار . فقال : اتدرون لم مشيت معكم ؟ قال : قلنا لحق صحبة رسول الله ،ولحق الانصار . قال : لكني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به ،فأردت أن تحفظوه لممشاي معكم . أنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز المرجل . فإذا رأوكم مدّوا إليكم أعناقهم ، وقالوا :

أصحاب محمد ! فأقلوا الرواية عن رسول الله (ص) ثم أنا شريككم » .

وبلغ من الخوف الشديد من رواية الحديث ،أن بعضهم انقطع تماما عن الرواية لما ذكره السائب بن يزيد قال : « صحبت سور بن مالك من المدينة الى مكة ، فما سمعته يحدث عن النبي (ص) بحديث واحد »[١٦] .

وبلغ ايضا بهم أن منعوا كبار الصحابة عن رواية الحديث خوفا من أن تشيع بعض حقائقه ، فجمع عمر الرواة وأقامهم عنده حتى يتمكن من الرد عليهم . كيف لا وهو الذي ألف الردّ على الرسول (ص) لقد ذكر عبدالرحمن بن عوف

---

(١٤) ـ سورة النمل (آية ١٦) .

(١٥) ـ سورة مريم (آية ٥ ـ ٦) .

(١٦) ـ سنن ابن ماجة / (ج ١ ص ١٢) .

قائلا : « ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث الى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق عبدالله بن حذيفة وأبا الدرداء وأباذر وعقبة بن عامر ، فقال : ماهذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق .

قالوا : تنهانا ؟ .

قال : لا ، اقيموا عندي ، لا والله لا تفارقوني ماعشت »[١٧] .

أما في عهد عثمان فالأمر أشد وأنكر .. اذ قال على المنبر :

« لايحل لأحد يروي حديثا لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر » .

كان ذلك باختصار هو موقفهم من الحديث والسنة .. فأين حالهم من حال حديث رسول الله (ص) عن خلفائه الراشدين الراوين لأحاديثه الناشرين لسنته ، فتأمل يرحمك الله ! .

وهناك قرينة اخرى تصرف هذا العنوان عن الخلفاء الأربعة بهذا الترتيب . وهو مانقله أهل الصحاح من أن الخلفاء الذين أوصى بهم الرسول (ص) باقتفاء آثارهم .. والذين ربط خير الامة بإمامتهم . كانوا أكثر من أربعة . لقد ذكر عليه الصلاة والسلام ، اثني عشر منهم بعدد نقباء بني اسرائيل . وتواتر ذلك على النحو التالي :

قال رسول الله (ص) « لايزال أمر الناس ماضيا ، ماوليهم أثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش »[١٨] .

وقال (ص) « لايزال الدين قائما حتى تقوم الساعة ، ويكون عليهم اثناعشر خليفة ، كلهم من قريش »[١٩] . ويتبين من خلال هذه الأحاديث أن عدد الخلفاء اثنا عشر . بينما مدعى الجمهور هو أربعة . ولعل هذا التناقض هو مادعى جمعا من العلماء الى تأويله بشكل يجعل الحديث ينطبق على أكثر من الخلفاء الأربعة

---

(١٧) ـ كنز العمال (٥ / ٢٣٩ ح ٤٨٦٦٥) .

(١٨) ـ ينابيع المودة (٣٠٧ و ٣٠٨) . وفرائد السمطين (٢ / ١٤٨) .

(١٩) ـ صحيح مسلم (٤ / ١٠٠ ح ١٨٢١) و (١٠١ / ١٨٢٢) . والصواعق المحرقة (١٨٩) . والبخاري (٦ / ٢٦٤٠ ح ٦٧٩٦) .

وذلك مارامه بن كثير وابن حجر الهيثمي . اذ اعتبروا الخلفاء الثلاثة وعلي ومعاوية ويزيد ثم عبدالملك وأولاده الأربعة وسليمان ، فيزيد ، فهشام . والوليد بن يزيد بن عبدالملك . وهذا لعمري هو التكلف . اذ ، هَبْ اننا صدقنا قولهم وادعاءهم . فهل يزيد بن معاوية هو ممن صلح أمر المسلمين في عهده . هل قتل الحسين (ع) كما جرى في زمن خلافته ، هو من صلاح امور المسلمين . أم معاوية الذي جعل المنابر تنشغل بلعن علي (ع) أم الوليد الذي سكر حتى راح يمزق كتاب الله ويرشقه بالنبل قائلا : « أتهددني بجبار عنيد ، فهاأنذا جبار عنيد » .

أفيستقيم هذا التأويل الفاسد مع ماوصف به الرسول (ص) خلفاءه الاثني عشر .

وقد حاول البعض أن يدس بعض الأسماء . كالذي وضعته البكرية . كما جاء في الصواعق المحرقة بإخراج البغوي ، بسند حسن ،عن عبدالله بن عمر قال :

سمعت رسول الله (ص) يقول : « يكون خَلفي اثنا عشر خليفة ، أبوبكر لايلبث الا قليلا » قال بن حجر في الصواعق ، قال الائمة : صدر هذا الحديث مجمع على صحته . ويكفي في هذا المقام شهادة الناصبي من أن حديث « الاثنا عشر » ، مجمع على صحته ،وان كان الاجماع فقط على صدره الأول . أي أن الكلام عن أبي بكر هو من وضع الوضاعين .

ثم ان الحديث ـ حديث الخلفاء الراشدين ـ ربط خير الأمة بهم . وهذا مناقض لواقع الخلفاء . فوفاة الرسول (ص) أعقبتها أحداث خطيرة ضد المسلمين وتعاليم الاسلام .

وقد علمنا ماجرى في سقيفة بني ساعدة من مشادات كلامية ومارافقها من تجرؤات على مفاهيم الاسلام ومقدساته من قبل الشيخين كالعزم على قتل علي (ع) وحرق دار فاطمة الزهراء (ع) ومنع تدوين السنة ، وحرق المصاحف ومارافقها من أحداث في صفوف القراء . وماشهده عصر عثمان من مفاسد بسبب سوء تدبيره ومخالفته لمبادىء الاسلام مما أدى الى اضطرابات خطيرة انتهت بمقتله على يد ثوار من الصحابة .

كل هذا يناقض ادعاء الحديث الذي يربط بين خير الأمة وصلاح الحكم ورشد

خلفائه .

ومن جانب آخر ، ذكر الحديث أن خلفاءه مهديين . ومفاده أن خلفاءه بلغوا من التمسك بالسنة حدا باتوا فيه مهديين جميعا . وواقع الخلفاء يثبت عكس ذلك . فليس من الهدي أن يغتصب أبوبكر الخلافة ويستضعف الصحابة كما سبق ذكره . ولو كان مهديا في سلوكه هو وفاروقه ، لما اعترف هذا الأخير قائلا : أنها فلتة وقانا الله شرها .

فلو كان كلهم مهدين لما طعن بعضهم في بعض .

ان مقتضى حديث الرسول (ص) ان صح هي مطابقة سنة الراشدين لسنته (ص) مطابقة لاتخالف الشرع في شيء . ولو ان الخلفاء أو من فهم ذلك من أمرهم ادركوا انهم مهديون جميعا وأن سنة واحدهم كثانيهم فثالثهم . اذاً لما جعلوها شرطا لعلي (ع) عند استخلاف عمر بن الخطاب للستة من أصحابه ، عندما عرضوا عليه الخلافة على أساس شرط اتباع سنة الرسول (ص) وسيرة الشيخين . فأبى الا سنة الرسول (ص) . وقد رفضوا على الامام علي (ع) تمسكه بسنة الرسول (ص) وحدها . فهذا ان دل فانما يدل على ان سنة الشيخين كانت تعني شيئا زائدا على سنة رسول الله . يؤكد ذلك شهادة الامام علي (ع) وهي شهادة راشدي معاصر لهم .

وقد كان عمر بن الخطاب قد خلف وراءه ستة . منهم طلحة والزبير وعبدالرحمن وسعد . وكان من المحتمل أن يكون أحدهم هو الرابع دون علي أو عثمان . وكان من المحتمل أن لايكون علي أو عثمان . ويكون طلحة أو سعد . فهل هذا بداء في اعتبار الخلفاء الراشدين هم الاربعة المذكورين أم ماذا ؟! ولو كان عمر بن الخطاب يعرف أن الراشدين هم هؤلاء الاربعة ، اذن لما أزبد شدقاه يوم السقيفة في خبط الناس واجبارهم على البيعة ، ولما ترك الأمر بين الستة ، وأخلى الأمر الى العدد وترتيب حديث الراشدين ؟! .

ومما يدل على فقر هذه الرواية في اعتبار المدعى منها ، انها لم تكن على ذات الانتشار والقوة في عهد الرسول (ص) اذ لو أنها كانت كذلك ، لما لجأ عمر بن الخطاب الى غيرها من الشعارات المقوية لجناحه في تنصيب أبي بكر خلفا

للرسول (ص) . ولو كانت على نفس الوضوح لما حدث صراع بين المسلمين ولابين الخلفاء الراشدين أنفسهم .

لقد رفض علي (ع) بيعة أبي بكر وعمر وعثمان . ولو كان يعرف أن ذلك الحديث منصرف فهمه الى ذلك ، لما خالفه . ولما كان عمر اعتبر خلافة أبي بكر فلتة توجب القتل .

ان هذه القرائن جميعها تدل بما لايدع مجالا للشك ، بأن المروجين لهذه الادعاءات كانوا على اتصال باللعبة السياسية للخلفاء الثلاثة . وجاءوا بعد انتهاء العهد الراشدي بكثير .

وعليه فان مدعى العامة في ذلك مردود لكون المغزى من ذلك مشروط بخير الامة وعدم تصارعها وعدم تضارب سنتهم لما كان البناء العقلائي يستبعد تضارب سنة الراشدين . ولأن هذه الخلافة كما تقدم متعلقة بأهل البيت ، وأنها اثني عشر .

وبعد أن تبين لنا الاضطراب الشديد الذي لف مادعوه من أن الراشدية تنطبق على الاربعة . وبأن ذلك تعسف ثقيل على مغزى الحديث ومدعى أضيق من معناه . يجدر بنا التعرف على المغزى الحقيقي له بما ينطبق مع واقع الخلافة .

في البدء ، لابد من الاتفاق على أن الخلافة أمر خاضع للجعل الشرعي . وخارج عن نطاق الاختيار . وعلى هذا الأساس ، فإن الخلافة تبقى خارج نطاق العصبية والغلبة . والا أصبح معيار الامامة هو الغلبة والعصبية . كما فهمها الكثير من السلف .

وهو حال ابن عمر . فقد روى عنه أنه كان في زمن الفتنة لايأتي أمير الا صلى خلفه وأدّى اليه زكاة ماله »[٢٠] .

وذكر صاحب الطبقات ايضا عن سيف المازني « كان ابن عمر يقول : لاأقاتل في الفتنة وأصلي وراء من غلب »[٢١] .

---

(٢٠) ـ طبقات ابن سعد (٤ / ١٤٩) .
(٢١) ـ طبقات ابن سعد (٤ / ١٤٩) .

ان الخلافة كالإمامة شأن ديني ، نابع من صميم الفرد وامكانياته الذاتية ، سواء مارس الخلافة وتحققت له الغلبة أم لا . انها شأن يقاس بالنبوة في معنى الاختصاص ، من حيث أن النبوة مادامت انها اختيار مولوي لاشأن للبشر فيه ، فهي تثبت مع الغلبة ودونها . فالنبي (ص) لايلغي نبوته افتقاده للعصبية والغلبة . فهو نبي سواء احتضنه قومه أو رفضوه . والامامة على ذلك النحو أمر لايلغيه افتقاد العصبية .

وهذا مايفهم من روح الشريعة ، ومن كلام الرسول (ص) في شأن الحسنين (ع) :

« الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا »

ان الذي جعل بعض علماء العامة يحاولون المستحيل في تأويل حديث الراشدين . لجعله منسجما مع واقع الخلفاء الفعليين . كان بسبب اعتقادهم بالمعيار « العصباني » حسب تعبير ابن خلدون .

وعليه ، فإن معنى الراشدية ينصرف الى أوصياء أهل البيت (ع) لما اشتملت عليه سيرتهم من قرائن تعزز المدعى . ولما ثبت لدينا من توافق سيرتهم مع مواصفات الخلفاء الراشدين المقصودين في معنى الحديث السابق .

والسؤال : على أي الائمة ينصرف معنى حديث الراشدية ؟ .

هناك أكثر من قرينة تجعل ـ كما أسلفنا ـ المعنى ينصرف الى أئمة أهل البيت الموصى بهم .

وأهم تلك القرائن : العلم ، الهداية ، العدد .

وسوف نعمل على توضيح هذه القرائن بمزيد من التفصيل والوضوح ليتبين للقارىء العزيز ان كل تلك القرائن دالّة على انصراف معنى الحديث اليهم . وأن جل تلك القرائن لايتوفر عليها تيار الاغتصاب . الذي لم يكن في مستوى مضمون الحديث بل المعنى الذي تعارفت عليه العامة فيما بعد العصر الاموي كان إسقاطا متعسفاً وطرحا مفتعلا .

١ ـ العلم :

العلم شرط من شروط الامامة . لأن القيادة تتوقف على معرفة الحكم الشرعي وعلى عمق المعرفة العلمية التي تمكن من تيسير أحوال الرعية والبت فيها . ولم ينفصل العلم كشرط ضروري عن الامامة الا عندما تحولت هذه الأخيرة الى خلافة دنيوية تقوم على العصبة وتقررها الغلبة .

وقد رأينا وسوف نرى ايضا . ان ميزة العلم لم تكن من نصيب تيار الاغتصاب .

وربط الرسول (ص) العلم هنا برواية السنة وبث الحديث . وليس المقصود من ذلك ان الإلمام بالحديث وروايته يأخذ ذلك المفهوم الجامد الذي تعقل فيه الأحاديث عقل رواية لاعقل دراية .

بل المقصود هذا الأخير . أي حفظ السنة ورواية الحديث بما تتضمنه العملية من تفعيل لهذه الأحاديث واخراجها من التكلس عبر التأويل الشرعي ، الذي تعرض فيه هذه السنة على النص القرآني لينظر فيها . وينسخ متشابهها بتوضيح معناها ، اي القدرة على تحريك النص وفهمه فهما ديناميكياً . وهذا مالايعلمه الا الراسخون في العلم من الائمة ومن ورث علمهم . وعلى هذا الأساس كانت رواية الحديث المذكورة مقرونة بمعرفة القرآن . ذلك ان الرسول (ص) ذكر ان الكذابة ستكثر من بعده . فمن وجد حديثا يناقض كتاب الله ، فليَضرب به عرض الحائط . وهذا يقتضي معرفة عرض الحديث على القرآن . أي ان ثمة تداخل بين سنة الرسول (ص) ونص القرآن الكريم .

ولهذا ذكر الرسول (ص) ان عليا (ع) سوف يقاتل على التأويل مثلما الرسول قاتل على التنزيل . وسبق أن عرفنا أن أبابكر وعمر وعثمان لم يكونوا على علم بالقرآن ، وكانوا من المحاربين لانتشار سنة الرسول (ص) .

فمعروف عن ابي بكر أنه لم يعرف كيف يعرض حديثه المزعوم « الانبياء لايورثون » على نص القرآن :

﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ ،ليتبين له فيما لوكان هذا النص منسجم مع القرآن ام لا .

ويمكننا فهم تلك الملابسات فيما جرى بين علي وأبي بكر ، حسب ماأخرجه ابن

سعد في الطبقات[٢٢] . جاءت فاطمة الى أبي بكر تطلب ميراثها ، وجاء العباس بن عبد المطلب يطلب ميراثه ، وجاء معهما علي ، فقال ابوبكر : قال رسول الله (ص) لانورث ، ماتركناه صدقة ، وماكان النبي يعول فعلي ، فقال علي : ورث سليمان داود ، وقال زكريا ، يرثني ويرث من آل يعقوب ؟ قال ابوبكر : هو هكذا ، وأنت والله تعلم مثل ماأعلم ، فقال علي :

« هذا كتاب الله ينطق » الحديث .

واشتهر عنه جهله للقرآن كقوله في الكلالة : « أقول فيها برأي فإن يكنْ صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمني »[٢٣] وكجهله ميراث الجدة ، اذ ثبت عنه انه قال لجدة سألته عن ارثها لاأجد لك شيئا في كتاب الله وسنة نبيه (ص) فأخبره المغيرة ومحمد بن سلمه بأن الرسول (ص) أعطاها السدس وقالوا اطعموا الجدات السدس وقطع يسار السارق[٢٤] .

أما عمر بن الخطاب فحدث ولاحرج . . فقد بلغ من جهله بالأحكام حدا يستنكره الصبيان ، كيف وهو القائل بنفسه ، كل الناس افقه منك ياعمر . حتى ربات الحجال .

لقد سبق ان ذكرنا موقفه من موت الرسول (ص) وانه شهد على نفسه أنه لم يسمع آية من القرآن ولايعلم ان الموت حق وان كل نفس ذائقة الموت . حتى قرأت عليه الآية ﴿ **ومامحمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ وحسبك من ذلك جهله آيات من القرآن فقد سألوه عن قوله تعالى : ﴿ **فاكهة وأبا** ﴾ فقال : « نهينا عن التعمق والتكلف »[٢٥] .

وانه أمر برجم حامل ، وكذا مجنونة[٢٦] .

وقد اشتهر بتلونه في الأحكام . وقيل انه كان يتلون في الأحكام حتى رووا انه

---

(٢٢) ـ طبقات ابن سعد (٢ / ٣١٥) .
(٢٣) ـ شرح النهج ١٧ / ٢٠١ ـ ٢٠٢ .وتاريخ السيوطي (٧١) .
(٢٤) ـ شرح النهج (٢٥ / ٢١) .
(٢٥) ـ المستدرك (٢ / ٥١٤) . والموافقات (١ / ٢١ ـ ٢٥) . والدر المنثور (٦ / ٣١٧) .
(٢٦) ـ المستدرك (٢ / ٥٩) .

قضى في الجدة بمائة قضية[٢٧] .

أما عثمان ، فإنه أضاف الى جهله بالأحكام ، استهزاءه بالشريعة ، وعدم التزامه بقوانينها .

وقد ثبت أن عليّاً (ع) يومها هو الوحيد الذي كان يحكم بالجزم ، ويقول : اسألوني قبل أن تفقدوني[٢٨] .

وكان أعلم بكتاب الله ، لايرد من سأله ولاينهر من قصد استفساره . . وهو القائل :

« سلوني عن كتاب الله فانه ليس من آية الا وقد عرفت بليل نزلت ام بنهار في سهل نزلت ام في جبل »[٢٩] .

ولم يثبت في التاريخ ان عليّاً (ع) أو أحداً من الائمة رجع الى رجل آخر لأخذ العلم عنه . بل كانوا هم منارات الهدى . والمورد الذي ينهل منه الناس العلم في مختلف الأزمنة التي عاصروها .

ونحن سبق ان عرفنا الشرط الذي جعله الرسول (ص) صفة وقرينة على خلفاءه ، وهو العلم المتجلي في روايتهم الحديث ونشرهم السنة وهداية الناس . فرواية الحديث بذاك اللحاظ ، والإلمام بالقرآن وتأويله . كان علما مختصا بالإئمة . ودعنا هنا نسرد بعضا من تلكم الأدلة التي تثبت أعلمية الامام علي (ع) وائمة أهل البيت (ع) عموما من خلال النص وشهادة الواقع للوقوف عند قيمتهم في ميزان خالقهم وفي حساب رسول الانسانية .

---

(٢٧) ـ كنز العمال (١١ / ٥٨) . والسنن الكبرى (٦ / ٢٤٥) . وشرح النهج (١ / ١٨١) .

(٢٨) ـ ينابيع المودة (١ / ٦٥) . وتهذيب التهذيب (٣٣٨) . وفتح الباري (٨ / ٤٨٥) . وتذكرة السبط (٢٥) . وفرائد السمطين (١ / ٣٤١) . ومناقب الخوارزمي (٩١) .

(٢٩) ـ ينابيع المودة (٦٨) .

أهل البيت والأعلمية !

١ ـ قال رسول الله : « أنا مدينة العلم وعلي بابها »[٣٠] .

٢ ـ « ياعلي انت تبين لامتي مااختلفوا فيه من بعدي »[٣١] .

٣ ـ « علي مع القرآن والقرآن مع علي ، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[٣٢] .

٤ ـ « من أراد أن ينظر الى آدم في علمه ، والى نوح في فهمه ، والى ابراهيم في حلمه ،والى موسى في هيبته ، والى عيسى في زهده ، فلينظرَ الى علي بن ابي طالب »[٣٣] .

٥ ـ « أقضاكم عليّ »[٣٤] .

وقال عن نفسه : « سلوني قبل أن تفقدوني ، سلوني عن كتاب الله عزوجل ، فما من آية الا وأعلم حيث نزلت بحضيض جبل أو سهل ارض ، سلوني عن

(٣٠) ـ المستدرك (٣ / ١٢٤) . و (٤ / ٢٢) والصواعق المحرقة (٧٣) . وتهذيب التهذيب (٦ / ٢٢٠٣) .

(٣١) ـ المستدرك (٣ / ١٢٢) .

(٣٢) ـ المستدرك (٣ / ١٢٤) . وينابيع المودة (١ / ١٠٣) . ومناقب الخوارزمي (١٠٧) . وكفاية الطالب (٢٥٣). وتاريخ الخلفاء للسيوطي (١٧٣). ومجمع الزوائد (٣ / ١٣٧) .

(٣٣) ـ المستدرك (٣ / ١٢٤). وينابيع المودة (٨٨) .

(٣٤) ـ الصواعق المحرقة (١٢٣) .

الفتن ، فما فتنة الا وقد علمت كبشها ، ومن يقتل فيها »[٣٥] .

وقال : « علمني رسول الله (ص) ألف باب من العلم ، في كل باب ألف باب »[٣٦] .

واشتهر عنه رجوع الصحابة اليه وكذلك الخلفاء فيما عجزوا عن ادراكه من أمرالشريعة . ولهم في ذلك شهادات ، كما قال عمر بن الخطاب : « لولا علي لهلك عمر »[٣٧] .

وذكر احمد بن حنبل في مسنده : « لم يكن أحد من أصحاب النبي يقول : سلوني الا علي بن ابي طالب »[٣٨] .

وكذلك حال الائمة من أهل البيت (ع) كانوا على تلك الدرجة من النبوغ . شهد لهم بذلك أشد خصومهم . وقد ثبت في شأنهم من النصوص مايعزز أعلميتهم . وحسبك ان الرسول (ص) جعلهم الى جنب القرآن . في حديث الثقلين ، اذ قال (ص) :

« اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[٣٩] .

وبقوا منارات مشعة وقلل شامخة .

لقد ذكر بعض أعلام العامة ماجاء في حق الائمة من بعد علي (ع) مثل الذي ذكره صاحب الصواعق المحرقة : قال رسول الله (ص) لجابر : « أنت تدرك ولدي محمداً الباقر ، إنه يبقر العلم بقراً ، فاذا رأيته ، فاقرأه عني السلام »[٤٠] .

وذلك كلام منسوب الى الامام الباقر (ع) وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي (ع) الامام الخامس سمي الباقر ، لبقره العلم كما تقدم .

---

(٣٥) ـ شرح النهج (٢ / ٢٣٥) .

(٣٦) ـ فرائد السمطين (١ / ١٠١). وينابيع المودة (١ / ٨٣) .

(٣٧) ـ مناقب الخوارزمي (٤٨). والأربعين للرازي (٤٦٦) .

(٣٨) ـ الصواعق المحرقة (٧٦). والرياض النضرة (٢ / ١٩٨) .

(٣٩) ـ مسلم (٥ / ١٢٢). ومسند أحمد (٣ / ١٧). والترمذي (٥ / ٣٢٨) .

(٤٠) ـ الصواعق المحرقة (ص ٢٠١) .

أما الامام الصادق (ع) فهو ممن اشتهر اسمه رغما عن أنف أعداءه من النواصب والخلفاء وذكره الجميع بفضائل يقل لها نظير . وامتدحه جمع غفير من العلماء الذين اختلفوا اليه طلبا للعلم . لقد قال فيه مالك : « جعفر بن محمد اختلفت اليه زماناً فما كنت أراه الا على احدى ثلاث خصال ، اما مصل ، واما صائم وإما يقرأ القرآن ، ومارأت عين ولاسمعت اذن ولاخطر على قلب بشر افضل من جعفر بن محمد الصادق علما وعبادة وورعاً »[41] .

وقال عنه الجاحظ : « جعفر بن محمد ، الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه ، ويقال : ان أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري ، وحسبك بهما في هذا الباب »[42] .

وقال عنه بن حجر في الصواعق : « جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ماسارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان ، وروى عنه الائمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريح ومالك والسفيانين وابوحنيفة وشعبة وايوب السجستاني » .

وذكره بن خلكان في وفياته على هذا الشكل : « ابوعبدالله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم اجمعين أحد الائمة الاثنا عشر على مذهب الامامية وكان من سادات آل البيت ، ولقب بالصادق لصدقه وفضله اشهر من ان يذكر » .

هذا وكثير منه مما فاضت به كتب العامة وقد تبين انهم لايذكرون في هذا المقام الا بما يشير الى اعلميتهم . فاذا كان دؤوبهم على العلم مما اشتهر في التاريخ وأن جهل الخلفاء بأبسط الاحكام مما اعترف به أتباعهم . فعلام يتم هذا التفضيل وهذا الاختيار المتعسف .

هذه باختصار أولى القرائن التي تصرف معنى حديث الراشدية عن الخلفاء . وتثبت انسجامه مع ائمة أهل البيت (ع) وتقويض ذلك الطرح المفتعل ، الذي يجعل الخلافة فيمن لم يرو الحديث ولايعلم الكتاب الا أماني ! .

---

(٤١) ـ التوسل والوسيلة (٥٢) .وتهذيب التهذيب (٢ / ١٠٤) .

(٤٢) ـ رسائل الجاحظ ـ السندوبي (١٠٦) .

ولمزيد من الايضاح يجدر بنا الاشارة الى مدى ارتباط سنة الائمة من أهل البيت (ع) بسنة الرسول (ص) وبصريح القرآن وذلك بتزكية من شهادة الرسول (ص) في حديث الثقلين المتقدم ومادام انهم كذلك ، فدعنا نرى وجهة نظرهم في قضية الأحكام .

« سأل رجل ابا عبدالله الامام الصادق عن مسألة فأجابه فيها فقال الرجل :

أرأيت ان كان كذا وكذا مايكون القول فيها ؟ فقال له : صه ، ماأجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله لسنا من (أرأيت) في شيء »[٤٣] .

وقال (ع) : « إنًا على بيّنة من ربنا بيّنها لنبيه (ص) فبيّنها نبيه لنا فلولا ذلك كنا كهؤلاء الناس »[٤٤] .

وقال ايضا : انا لو كنا نفتي الناس برأينا وهوانا لكنا من الهالكين ولكنها آثار من رسول الله اصل علم نتوارثها كابر عن كابر نكنزها كما يكنز الناس ذهبهم وفضتهم[٤٥] .

أقول : اين ذلك من تجرء الخلفاء على أحكام الله فهذا أبوبكر يأمر بحرق الفجاءة ، ولايقود خالد بن الوليد بمالك بن نويرة ، ويمنع ارث فاطمة (ع) وذاك فاروقه الرسول (ص) ، يقر بشرعية التمتع في الحج والزواج والفاروق يخالفه ، ويأتي بما تشتهيه ذائقته من أحكام تخالف سنة الرسول (ص) ونص القرآن وهكذا يتبين اي الفريقين اقرب الى سنة الرسول (ص) ، وألصق بكتابه . واذا كان الاختلاف بين الراشدين الثلاثة المزعومين والامام علي (ع) ، كإختلاف اليهود عن النصارى فإن الانسجام في سنة ائمة أهل البيت الاثني عشر كان مما اخرس السنة النواصب وحير دهاقنتهم ولايحصل الانسجام الا مع سنة موحدة المصدر ومعينة النبع وتلك شهادة من رسول الله (ص) يوم اوصى بالتمسك بالثقلين وهو ماشهد به واقعهم .

٢ ـ الهداية

---

(٤٣) ـ الكافي (١ / ١١٢) .

(٤٤) ـ بصائر الدرجات (٢٨٥) .

(٤٥) ـ بصائر الدرجات (٢٨٤) .

جاءت الهداية كقرينة على الخلفاء الراشدين الذين قيل في حقهم : « المهديين من بعدي » .

والواقع التاريخي للخلفاء المزعومين يخالف منطوق الحديث ، بل ويناقضه من أساسه .

فالملاك من جعل الامامة ضرورة ، ولطفا هو من هذه الحيثية اي توفير الهداية اللازمة التي يترتب عليها إقامة الحجة على الخلائق . والحجة لاتقوم على هداية ناقصة ، أو على هداية محتملة . والخلفاء المفتعلون لم يكونوا في حجم ذاك الملاك . ليكونوا أئمة حقيقيين .

لقد كانوا في أكثر من حال يضلون الامة ويبعدونها عن العلم الحقيقي بل ويهددون ويجلدون الناس اذا أتوهم مستفسرين عما يفيدهم في معرفة أحكام الله ، وضبط تكاليفهم الشرعية .

فهناك غياب كامل لعنصر الهداية من سلوك وتوجيهات الخلفاء المزعومين ، لأنهم كما تقدم ـ لم يكونوا علماء ـ فالهداية تقوم على العلم . فاعلم الناس كانوا هم أئمة أهل البيت (ع) وهم تبعا لذلك اهدى عباد الله .

والهداية كما يظهر منها . لها أساس تقوم عليه ، وغاية توصى اليها . فأما الأساس فهو العلم كما سبق القول . اذ أن الهداية للارشاد الى الحق . ولن ينال الانسان رشده الى الحق ، حتى يكتشفه . والكشف عن الحق هو العلم فلا هدي بلاعلم وفاقد العلم لايهدي . **﴿ أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع أم من لايهدي الا ان يهدى مالكم كيف تحكمون ﴾** .

أما الغاية من ذلك فهو اقامة الحجة على الخلائق بما يشد ظهر المكلف ، ومعلوم حسب مباني الأصول ، أن الحجة يترتب عليها المنجزية والمعذرية .

فاذا لم يكن الهدى مما يترتب عليه عذر المكلف وتكليفه لن يكون ذلك الهدي حجة . وغاية القول أن المكلف بالمعذرية له الحق في ان يحتج على المشرع ، في كونه نقد ماأمر به . فلايحاسب على تركه ، ولا على ماسكت عنه لما في الأمر من قبح عقلي لوقوعه في مسألة قبح العقاب بلابيان ، كما يترتب عليه الحساب

والعقاب في حالة رفضه أو عدم خضوعه لذلك التكليف . وعليه ، فإن غير الائمة (ع) لم يكونوا مشرعين ولاهداة بل كانوا مكلفين فقط . وذاك هو حال من بايعهم . فهناك من الصحابة من كان يخالف الخلفاء ، ولايعتبر كلامهم حجة كما هو الشأن في زواج المتعة ، عندما قبلوا الشهادة ورفضوا التحريم . واذا قال القائل فعلوا مثل ذلك مع الائمة قلنا انهم ايضا فعلوه مع الرسول (ص) ووجه المفارقة هناك ان فعله مع الرسول (ص) والائمة (ع) موجب للعقاب لمكان المنجزية ومقام التكليف .

فسعد بن عبادة لم يرتكب ذنبا بخروجه عن ابي بكر . بل إنه مثاب اذا ثبت انه توخى منها صرف الامامة الى أهلها غير أن ابن عمر مثلا هو ممن خالف التكليف بخروجه عن علي (ع) والحسين (ع) . فأساس الحجة هو اثبات المنجزية والمعذرية .

وعليها لم يكن أحد يرسل الكلام على الوجه المنجز غير الائمة من أهل البيت (ع) .

وحسبك من صرف معنى الراشدية عن الخلفاء المغتصبين ، فهم كانوا يرجعون في مشكلاتهم الى الائمة (ع) ، والحاجة هنا تنفي عنهم الهداية لأنهم فاقدين لها ، فمن ذلك أن يقول أبوبكر عن نفسه « أنا الخالفة » ـ كما تقدم ـ وهو مالايفيد الهداية وقوله :

« إن لي شيطان يعتريني ، فان استقمت فأعينوني وان زُغت فقوّموني »[٤٦] .

وهو هنا يقر حاجته الى هداية الآخرين فكيف تقوم الحجة على الناس بامام فاقد للهداية واي ضمان ان يكون قوله واقعا في اللحظة التي يعتريه فيها شيطانه .

وقوله : « اقيلوني فلست بخيركم »[٤٧] .

وقول عمر عنه « كانت بيعة أبي بكر فلتة ، وقى الله المسلمين شرها ، فمن عاد الى مثلها فاقتلوه »[٤٨] .

---

(٤٦) ـ الصواعق المحرقة (ص ٧) والإمامة والسياسة (ج ١ ص ٢) وشرح النهج (ج ٢ ص ٨) .

(٤٧) ـ الإمامة والسياسة (١ / ١٤) وشرح النهج (١ / ٥٨) والأنساب (١ / ٥٩٠ و ٥٩١) .

(٤٨) ـ الصواعق المحرقة (١٠) . والملل والنحل (٧) . وتاريخ الطبري (٣ / ٢٠٥) .

فكل هذه تدل على أن الحجة ليست من شأن الخلفاء وفرقة السقيفة .

في مقابل ذلك يبقى ائمة أهل البيت (ع) هم المنارات الوحيدة للهداية فاذا كان ابوبكر وعمر وعثمان يصرفون المسائل عن التكاليف الشرعية ويصدونه أو يضلونه في الحكم فإن عليا (ع) كان يقول : اسألوني قبل أن تفقدوني وحتى قال عمر : لولا علي لهلك عمر .

واليكم الآن مايدل على صفة الهداية في أشخاص أهل البيت (ع) تاركين للقارىء فرصة الاستقراء الحر :

١ ـ روى احمد بن موسى بن مردوية ، عن عائشة : ان رسول الله (ص) قال « الحق مع علي وعلي مع الحق لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[٤٩] .

٢ ـ قال الرسول (ص) « رحم الله عليا ، اللهم أدر الحق معه حيث دار »[٥٠] .

٣ ـ ياعمار : « إن طاعة علي من طاعتي وطاعتي من طاعة الله تعالى »[٥١] .

٤ ـ عن ابي سعيد الخدري قال رسول الله (ص) « إني قد تركت فيكم ماإن تمسكتم به لن تضلوا بعدي :

الثقلين ، وأحدهما اكبر من الآخر ، كتاب الله ، حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ألا وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض »[٥٢] .

= والكامل (٢ / ٣٢٧) . وشرح النهج (٢ / ٢٣) . والبداية والنهاية (٥ / ٢٤٥) . والنهاية لأبن الأثير (٣ / ٤٦٧) . وتاج العروس (١ / ٥٦٨) . والانساب (٥٨٤ و ٥٩١) . وقد قال أبو بكر عن بيعته أنها فلته كما في الأنساب (١ / ٥٩٠) .

(٤٩) ـ تاريخ بغداد (١٤ / ٣٢١) . والإمامة والسياسة (١ / ٧٨) . وفرائد السمطين (١ / ١٧٧) قريب منه . ومناقب ابن المغازلي (١١٧ و ٢٤٤) . والمستدرك (٣ / ١١٩ و ١٢٤) .

(٥٠) ـ الترمذي (٥ / ٦٣٣) .

(٥١) ـ اسد الغابة (٥ / ٢٨٧) وينابيع المودة (١٢٨) .

(٥٢) ـ مناقب الخوارزمي (١٥٤) . والمستدرك (٣ / ١٠٩ و ١٤٨) . وينابيع المودة (١ / ٣٢) . ومجمع الزوائد (٩ / ١٦٥) . ومسلم (٥ / ٢٦ و ٢٧) . ومسند أحمد (٣ / ١٧ و ٢٦ و ٥٩ و ١٦٧١٤) . وكفاية الطالب (٢٥٩) . ومصابيح السنة (٤ / ١٨٥ و ١٨٩) . والصواعق (١٢٦ و ١٥٠) .

٥ ـ روي عن الرسول (ص) : « فاطمة مهجة قلبي وابناها ثمرة فؤادي وبعلها نور بصري والائمة من ولدها أمناء ربي ، وحبل ممدود بينه وبين خلقه ، من اعتصم بهم نجا ، ومن تخلف عنهم هوى »[٥٣] .

٦ ـ قال (ص) : « من أراد أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن ابي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة »[٥٤] .

٧ ـ قوله (ص) : « فلاتقدموهما فتهلكوا ولاتقصروا عنهما فتهلكوا ولاتعلموهم فانهم أعلم منكم »[٥٥] .

٨ ـ قوله (ص) : « مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق »[٥٦] .

٩ ـ قوله (ص) : « في كل خلف من امتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين »[٥٧] .

١٠ ـ قوله (ص) : « أنا المنذر وعلي الهادي وبك ياعلي يهتدي المهتدون من بعدي »[٥٨] .

١١ ـ قوله (ص) : « أنا وهذا ـ يعني عليا ـ حجة على امتي يوم القيامة »[٥٩] .

---

(٥٣) ـ فرائد السمطين (٢ / ٦٦) ومقتل الحسين (١ / ٥٩) .

(٥٤) ـ كنز العمال (١١ / ٦١١) .

(٥٥) ـ الصواعق المحرقة (١٥٠) .

(٥٦) ـ الصواعق المحرقة (١٨٦) . وفرائد السبطين (٢ / ٢٤٢) . والخصائص الكبرى للسيوطي (٢ / ٤٦٦) .والمستدرك (٢ / ٣٤٣) .وينابيع المودة (١ / ٣٠).ومناقب المغازلي (١٣٢) وكفاية الطالب (٣٧٩) . وعيون الأخبار (١ / ٢١١) . وحلية الأولياء (٤ / ٣٠٦) . وميزان الأعتدال (١ / ٤٨٢) .

(٥٧) ـ الصواعق المحرقة (١٥٠) .

(٥٨) ـ تفسير الرازي (١٩ / ١٤) ولسان الميزان (٢ / ١٩٩) وكفاية الطالب (٢٣٣) وشواهد التنزيل (١ / ٢٩٣ ـ ٣٠٣) وفرائد السمطين (١ / ١٤٨) .

(٥٩) ـ مناقب ابن المغازلي (٤٥ و ١٩٧) وتاريخ بغداد (٢ / ٨٨) وذخائر العقبى(٧٧) وكنز العمال (١١ / ٦٢٠) .

هذا غيض من فيض مما رزحت به أسفار العامة على مافعلوه من منع الرواية عن ائمة أهل البيت (ع) ناهيك عما وضح في مرويات أهل البيت واتباعهم كلها تثبت بصريح العبارة حجية أهل البيت (ع) على الناس مما يثبت لهم صفة الهداية وهي من لوازم الراشدية التي نحن بصدد الحديث عن مفهومها فأين الخلفاء المزعومون من هذا العبق المنعش وأين هم من هذه الرياض النضرة واي صهوة بقيت لركوب مجدهم فلا يدعي ذلك بعد أئمة البيت الهاشمي الا كاذب . دعهم في غيهم يعمهون ! .

٣ ـ العدد

ذكرنا آنفا ، أن منطوق حديث الراشدين أوسع من المدعى ، فالخلفاء المفتعلون لاينسجمون عددا مع عدد الخلفاء المذكورين في احاديث الرسول (ص) الذين هم اثنا عشر من قريش .

ولم يدع ذلك الا الائمة من أهل البيت (ع) .

واذا تبين سابقا ان الائمة والخلفاء هم اثنا عشر فدعنا نرى هل ذلك ينطبق على الاثني عشر من أهل البيت المتعارف عليهم عند شيعتهم ؟ .

إن مجرد ادعاء الاثني عشرية في غياب اي مدع لها ، دليل على أن مقصود الرواية منصرف الى المدعي . وأن مجرد ادعاء أهل البيت (ع) لها كافٍ للاعتراف بها لأنه ليس ثمة حي هو اشرف وانبل في قريش منها . إن اطلاق قريش في الحديث لاوجه يعضده ، اذ في قريش من هو من صناديد الشرك . وفيهم من غير طهارة المولد . ولا أحد يشك في أن بني هاشم هم من أشرف بطون قريش وأشهرها في خدمة الدين . وقد عززهم القرآن بقوله تعالى : **﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾** فاذا اجتمعت طهارة المولد ورفعة الشرف مع صفة العلم والهداية . كان من العقل ترجيح الأفضل على المفضول ، ولاينعكس ذلك لما فيه من مناقضة لمباني العقلاء وصريح النصوص . هذا فيما لو ثبت ان الرسول (ص) قد أطلق لفظة قريش ، وإلّا فإن بعض الطرق التي روي بها حديث الاثني عشر تشمّ منها رائحة التدليس والتلبيس . اذ هناك من لمح ببني هاشم والرواية في صحيح البخاري من طريق جابر بن سمرة هي قوله :

سمعت رسول الله (ص) يقول : يكونوا اثنا عشر أميرا ، فقال كلمة لم أسمعها فقال أبي : كلهم من قريش فالكلمة التي لم يسمعها هي على طريقة والثالثة لم اسمعها . وهي مما اعتاد عليه بعض المحدثين والرواة في التلبيس .

يقول صاحب ينابيع المودة : قال بعض المحققين : ان الاحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده (ص) اثني عشر ، قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرح الزمان ، وتعريف الكون والمكان ، علم أن مراد رسول الله (ص) من حديثه هذا : الأئمة الإثني عشر من أهل بيته وعترته ، اذا لايمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه ، لقلتهم عن اثني عشر (وهم اربعة) ولايمكن أن يحمله على ملوك الأموية ، لزيادتهم على اثني عشر (وهو ثلاثة عشر) ، لظلمهم الفاحش ، الّا عمر بن عبدالعزيز ولكونهم غير بني هاشم ، لأن النبي (ص) قال « كلهم من بني هاشم » في رواية عبد الملك عن جابر [٦٠] .

ونجد في نهج البلاغة شرحاً مبيناً لمعنى الإئمة من قريش ، يقول الإمام علي (ع) :

« إن الائمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لاتصلح على سواهم ولايصلح الولاة من غيرهم » .

وروى الحمويني الشافعي في فرائد السمطين ، عن بن عباس قال رسول الله أنا سيدالنبيين وعلي بن ابي طالب سيد الوصيين وأن أوصيائي بعدي اثنا عشر ، اولهم علي بن ابي طالب وآخرهم المهدي .

وهكذا تدل القرائن على ان اطلاق حديث الخلفاء الراشدين على الاربعة لاوجه له وأن أهل البيت هم المرشحون لهذا الوصف لما دلت عليه آثارهم والنصوص المستفيضة من حولهم فيحق لنا بعدها اعتبار الخلفاء الراشدين المزعومين مجرد ادعاء مفتعل لادليل عليه من النصوص ولامن التاريخ ولامن العقل .

---

(٦٠) - ينابيع المودة (٣ / ١٠٥) .

الخلفاء ماداموا مارسوا الخلافة

في عرضنا ودراستنا الخلفية التاريخية لتيار الاغتصاب وفرقة السقيفة على وجه الخصوص ، تبين لنا ذلك التعسف المهول الذي سار عليه العامة ، والتشوه الكبير الذي لف نظرية الامامة عندهم . ومادام قد مارس هذا التيار الخلافة بمنظور الغلبة ، ومادام أنه من جانب آخر ينتمي الى فرقة الصحابة لمعاصرتهم الرسالة ، فانه واجب علينا في هذه الرحلة الدراساتية أن نتعرض لواقع الخلافة كما مارسها هذا التيار ، فنجعل ذلك شقا أوليا للبحث ثم نثني بشق آخر يتعلق بموقع هذا التيار من الصحبة مع التطرق الى هذا الموضوع بمزيد من الايضاح .

تيار الاغتصاب والخلافة

من الامور التي تعارف عليها بعض أهل السنة كون الخلافة خاضعة لمفهوم الشورى وانها مادامت شأنا دنيويا فانها تبقى حقا للناس يتواضعونه فيما بينهم على الخليفة الجديد الذي يجتمع عليه اختيارهم ولأن واقع حال الخلافة كما مارسها هذا التيار كانت خاضعة لأكثر من معيار ، اذ تارة تثبت بالوصية وطورا بما يشبه الاستخلاف ، كان هناك اضطراب كبير يلف نظرية الخلافة عندهم .

ان الواقع التاريخي أوضح بأن الشورى في مقام الخلافة أول ماكانت في عهد عمر بن الخطاب . اذ زعم انه تارك الأمر في حدود الستة الذين تستشير الأمة في شأنهم . ولم تكن قضية الشورى تقليداً متعارفاً عليه في العهد الاول للخلافة .

وذلك مايبدو من ظاهر نصوص الخلفاء انفسهم واعترافهم بذلك الاضطراب .

وحتى لانخرج عن اطار السقيفة ، لابد ان نلقي نظرة عن الاسلوب الذي تمّ فيه الاختيار .

ان مانتج من صراعات ومشادات عنيفة في السقيفة ، كان دليلا كافيا على أن الخلافة اتخذت مجرىً معاكسا لقضية الشورى ، ذلك بأن جمعاً غفيرا من الصحابة امتنعوا عن البيعة . فمنهم من بقي على تلك الحالة حتى قتل . كسعد بن عبادة الخزرجي (رض) ومنهم من تأخر حتى اجبر عليها بالسيف وقيد اليها بالعنف . وتبين بعدذلك كيف أن فترة خلافة أبي بكر التي لم تتجاوز مدتها سنتين . كيف عرفت قلاقل كثيرة واهتزازات عنيفة كان أهمها وأخطرها تمرد القبائل العربية وامتناع الكثير عن إعطاء الزكاة تعبيرا منهم عن رفض خلافة أبي بكر . وذلك فيما أسموه بحرب الردة .

لقد انطلق أبوبكر وعمر على حين غفلة ممن كانوا في انشغال بتجهيز رسول الله (ص) وانطلقوا الى السقيفة ليواجهوا باقي التيارات الاخرى . فمنطق الشورى يقتضي وجود سلطة عُليا سابقة ، ليتحاكم اليها الجميع في الأمر . أما ان يفرض تيار معين نفسه مسؤولا عن تنظيم الشورى ، فهذا أمر يناقض أساسيات الشورى ، وعلى ذلك المبنى يتبين مدى « الدور » الذي سقط فيه الأمر ، اذ لابد من جهة عليا تتحدد سلفاً عن طريق النص .

ويذكر براء بن عازب[٦١] « لم أزل لبني هاشم محبا ، فلما قبض رسول الله (ص) خفت ان تتمالأ قريش على اخراج هذا الأمر عنهم ، فأخذني مايأخذ الوالهة العجول مع مافي نفسي من الحزن ، لوفاة رسول الله (ص) فكنت أتردد الى بني هاشم ، وهم عند النبي (ص) في الحجرة ، وأتفقد وجوه قريش فاني كذلك اذ فقدت أبابكر وعمر واذا قائل يقول القوم في سقيفة بني ساعدة » .

واذا قائل آخر يقول : « قد بويع أبوبكر ، فلم البث واذا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من اصحاب السقيفة ، وهم محتجزون بالازر

---

(٦١) ـ شرح النهج (١ / ٢١٩) .

الصنعانية لايمرون بأحد الا خبطوه وقدموه فمدوا يده ، فمسحوها على يد أبي بكر ، يبايعه شاء ذلك أو أبى » .

فهل رأيت عزيزي القارى كيف ان البيعة اتجهت صوب الغلبة وان جمعا لم يروا أباباكر وعمر حتى رجعوا اليهم بالقرار النهائي لاليطرحوا الأمر أمامهم ليتشاوروا فيه ويأخذوا رأي من منعه الاهتمام بتجهيز رسول الله من حضور السقيفة بل جاءوا بالأمر محمولا على السيوف « لايمرون بأحد الا خبطوه ، وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد ابي بكر » .

إمعانا منهم في كسب البيعة بالإجبار ليتم الأمر ويبايع بالعنف « شاء ذلك أو أبى »[٦٢] .

وهذا هو مادفع عمر نفسه الى القول بأن بيعة أبي بكر فلتة وقاهم الله شرّها ، وهي إن دلت على شيء فانما تدل على عدم شرعية هذه البيعة .

ولابد هنا من تقويض ماذهب إليه الذاهبون في شأن ماكان شورى بين المسلمين . لنعرض رأي أحد كبار المعارضين لخلافة أبي بكر والذي بايع كُرهاً . وهو الإمام علي (ع) ، لنتعرف على وجهة نظره عليه السلام فيما ادعوه من أمر الشورى :

فعندما بويع ابوبكر في السقيفة وجددت له البيعة يوم الثلاثاء خرج علي فقال :

« افسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقا » .

فقال ابوبكر : بلى ولكنني خشيت الفتنة[٦٣] .

وجاء في نهج البلاغة كلام للامام علي (ع) فيه رد على مزعومة الشورى بمنطق واضح وجلي .

لما انتهت الى أميرالمؤمنين انباء السقيفة بعد وفاة الرسول (ص) قال :

---

(٦٢) - نفس المصدر .

(٦٣) - مروج الذهب (٣٠٧/٢) .

ماقالت الانصار ؟ .

قالوا : قالت منا أمير ومنكم أمير .

قال : فهلا احتججتم عليهم بوصية الرسول (ص) بأن يحسن الى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ؟ .

قالوا : ومافي هذا من الحجة عليهم ؟ .

فقال : بلى لو كانت الامارة فيهم لم تكن الوصية بهم ! .

ثم قال : فماذا قالت قريش ؟ .

قالوا : قالت نحن شجرة الرسول (ص) .

قال : احتجو بالشجرة وأضاعوا الثمرة[٦٤] .

ثم قال :

فان كنت بالشورى ملكت امورهم   فكيف هذا والمشيرون غيب
وان كنت بالقربى حججت خصيمهم   فغيرك أولى بالنبي وأقرب

وجاء في نهج البلاغة ايضا قوله :

« أرى تراثي نهبا حتى مضى الاول لسبيله فأدلى بها الى فلان بعده » ،ثم تمثل بقول الأعشى :

شتان مايومي على كورها   ويوم حيان أخي جابر

« فياعجبا ! بينا هو يستقيلها في حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ماتشطرا ضرعيها » .

لقد تبين ان الخلافة في السقيفة ومابعدها كانت تقوم على منطق الإجبار ، لامنطق الشورى . وعلى أساس الاغتصاب لاعلى أساس الشرعية . تجلى ذلك العنف في البداية في اجبار الامام علي (ع) والذين معه على البيعة ، وفي السقيفة تجلى في موقفهم من بعض الانصار . ولهذا كانت هناك جماعة من الصحابة الكبار الذين نالهم التهديد والضرب لرفضهم البيعة . وكانوا ضحايا لها .

---

(٦٤) ـ شرح النهج (٦ / ٣) .

السقيفة والمعارضة

بعد اتمام دفن الرسول (ص) اعتزل قوم من الصحابة ورفضوا بيعة ابي بكر وطرحوا عليا (ع) خليفة فتحصنوا ببيت فاطمة الزهراء (ع) وبقوا على ذلك الحال حتى اقتحم عليهم جمع كبير بقيادة عمر الدار . وعزموا على حرقها . فأجبروهم على البيعة .

يقول اليعقوبي : « وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي بن ابي طالب منهم العباس بن عبدالمطلب والفضل بن العبّاس ، والزبير بن العوام ، وخالد بن سعد ، والمقداد بن عمرو ، وسلمان الفارسي ، وأبوذر الغفاري ، وعمّار بن ياسر ، والبراء بن عازب وأبي بن كعب . فأرسل أبو بكر الى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح ، والمغيرة ابن شعبة ، فقال : ماالرأي ؟ » .

وذكر البلاذري ان ابابكر بعث عمر بن الخطاب الى علي (ع) حين قعد عن بيعته وقال : ائتني به بأعنف العنف فلما أتاه جرى بينهما كلام فقال : « احلب حلبا لك شطره والله ماحرصك على امارته اليوم الا ليؤثرك غدا »[٦٥] .

وذكر بن عبد ربه « أقبل عمر بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار ، فلقيتهم فاطمة فقالت ياابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا ؟ قال : نعم أو تدخلوا

---

(٦٥) ـ الانساب (١ / ٥٨٧) .وشرح النهج (٦ / ١١) .

فيما دخلت فيه الامة »[٦٦] .

ولايهمنا هنا مادار من كلام بين فاطمة (ع) وابن الخطاب . ولا بين المتحصنين ومقتحمي الدار . مانريد التأكيد عليه هنا ، هو أسماء المعارضين الكبار للسقيفة ، ورأيهم في الخلافة . والآن اليك ماجاء في كلام المعارضة :

١ ـ الامام علي (ع)

« أما والله لقد تقمصها ابن ابي قحافة إنه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحا ينحدر عني السيل ولايرقى الي الطير ، فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحا وطفقت ارتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طنحيةٍ عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه فرأيت أن الصبر على هاتا أحجي ، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهبا حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها الى ابن الخطاب .

بعده ثم تمثل بقول الاعشى :

شتان مَايومي على كورها ويوم حيّان أخي جابر

فياعجبا بينا هو يستقيلها في حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته . لشدّ ماتشطرا ضرعيها »[٦٧] .

٢ ـ العباس بن عبد المطلب (رض)

« ان الله بعث محمدا نبيا كما وصفت ووليا للمؤمنين فمنّ الله به على امته حتى اختار له ماعنده فخلى على المسلمين امورهم ليختاروا لانفسهم مصيبين الحق لامائلين بزيغ الهوى فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت وإن كنت بالمؤمنين أخذت فنحن منهم . فما تقدّمنا في أمرك فرطا ، ولاحللنا وسطا ، ولابرحنا سخطا ، وان كان هذا الأمر وجب لك بالمؤمنين ، فماوجب اذ كنّا كارهين . مأأبعد قولك من أنّهم طعنوا عليك من قولك أنهم اختاروك ومالوا اليك ، وما

---

(٦٦) ـ العقد الفريد (٤ / ٢٥٩ ـ ٢٦٠) . وشرح النهج (٦ / ٤٨) . وغيرها من الواضع . والأنساب (١ / ٥٨٦) .

(٦٧) ـ شرح النهج (١ / ١٦٢) .

أبعد تسميتك خليفة رسول الله من قولك خلّى على الناس امورهم ليختاروك . فأمّا ماقلت ، إنك تجعله لي ، فإن كان حقّاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه ، وان كان لنا فلم نرض ببعضه دون بعض وعلى رسلك ، فإن رسول الله من شجرة نحن أغصانها وانتم جيرانها »[68] .

٣ ـ الفضل بن العباس (رض)

« يامعشر قريش انه ماحقت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم وصاحبنا أولى بها منكم »[69] .

٤ ـ خالد بن سعيد (رض)

« انكم اي بني هاشم لطوال الشجر طيبوا الثمر نحن تبع لكم »[70] .

هلم ابايعك ـ يقصد علياً ـ فوالله مافي الناس أحد أولى بمقام محمد منك [71] .

٥ ـ المقداد بن الاسود الكندي (رض)

« واعجبا لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم وفيهم أول المؤمنين »[72] .

٦ ـ سلمان الفارسي (رض)

« أصبتم الخيرة وأخطأتم المعدن »[73] .

كَردي وناكردي أي عملتم وماعملتم ، لو بايعوا عليا لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم [74] .

٧ ـ ابوذر الغفاري (رض)

---

(٦٨) ـ شرح النهج (١/ ٢٢١) .والإمامة والسياسة (١ / ٣٣) .
(٦٩) ـ اليعقوبي (٢ / ١٢٤) .
(٧٠) ـ شرح النهج (٢/ ٥٩) .واسد الغابة (٢ / ٨٤) .
(٧١) ـ شرح النهج (٦/ ٣٢) .واليعقوبي (٢ / ١٢٦) .
(٧٢) ـ اليعقوبي (٢ / ١٦٣) .
(٧٣) ـ شرح النهج (٢ / ٤٩) .
(٧٤) ـ شرح النهج (٦ / ٤٣) .وأنساب الأشراف (١ / ٥٩١) .

« أصبتم قناعة وتركتم قرابة لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان »[٧٥] .

أيتها الامة المتحيرة بعد نبيها أما لو قدمتم من قدم الله وأخرتم من أخر الله ، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت اقدامكم ، ولما عال ولي الله ولاطاش سهم من فرائض الله ، ولااختلف اثنان في حكم الله الا وجدتم على ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه فأما اذا فعلتم مافعلتم فذوقوا وبال أمركم وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون[٧٦] .

٨ ـ عتبة بن ابي لهب

ماكنت أحسب هذا الأمر منصرفا ... عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
عن أوّل الناس إيمانا وسابقة ... وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وآخر الناس عهدا بالنبي ومن ... جبريل عونٌ له في الغسل والكفن
من فيه مافيهم لايعترون به ... وليس في القوم مافيه من الحسن[٧٧]

هذا اضافة الى مواقف كثيرة من المعارضين ، الذين لم يتحصنوا ببيت فاطمة (ع) والذين حصلت بينهم وأبي بكر وعمر مشادات انتهت اما بإجبارهم على البيعة وإما قتلهم كما هو حال سعد بن عبادة كما سنرى وأسماءهم حسب اجماع المؤرخين كالتالي :

* ـ علي (ع) .
* ـ فاطمة (ع) .
* ـ العباس بن عبدالمطلب .
* ـ الفضل بن العباس .
* ـ الزبير بن العوام .

---

(٧٥) ـ شرح النهج (٦ / ١٣) .
(٧٦) ـ تاريخ اليعقوبي (٢ / ١٧١) .
(٧٧) ـ تاريخ اليعقوبي (٢ / ١٢٤) .

* ـ طلحة بن عبيدالله .
* ـ سعد بن ابي وقاص .
* ـ المقداد بن الاسود .
* ـ سلمان الفارسي .
* ـ ابوذر الغفاري .
* ـ عمار بن ياسر .
* ـ البراء بن عازب .
* ـ ابان بن سعيد .
* ـ ابي بن كعب .
* ـ سعد بن عبادة .
* ـ الحباب بن المنذر .

هذه الاسماء وردت في مصادر التاريخ الكبرى كتاريخ الامم والملوك لجعفر الطبري ، والكامل لإبن الأثير وتاريخ اليعقوبي ، واسد الغابة ، وتاريخ بن كثير وسيرة بن هشام .

وللمطلع على سيرة هذا الفريق من الصحابة ، يدرك أهمية المعارضة .

الخلفاء ماداموا صحابة

ومادام ممثلوا هذا التيار قد عرفوا بالصحابة ، وحتى لاتمسي هذه الميزة عائقا في فهم طبيعة الاغتصاب ، ولاتتحول « الصحبة » الى أمر يضبب الرؤية في خلفيات التحريف . كان لابدّ من الوقوف عند هذا الموضوع لتبيان حقيقته ، وهدم ماعلق به من تداعيات اسطورية تعيق أي محاولة لفهم حقيقة وملابسات الواقعة .

لم يكن للصحبة مفهوم على عهد رسول الله (ص) بالمعنى الاصطلاحي للكلمة وكل مافي الأمر انها تعبير لغوي عن مجموعة من الناس تختلف أهواءهم وتتنوع نزعاتهم اجتمعوا حول رسول الله (ص) وصاحبوه في رحلته كل وفق هواه ولم تكن الصحبة تعني صك غفران يعوض امتناع الصحابي عن العمل الصالح ، او تعصمه عن الارتداد .

ولعل مايجعل الحديث عن الصحبة صعب مستصعب ، لايستحمله إلا ذووا الألباب النيرة وأصحاب الحكم المتعالية . . ان اقتران وصف الصحابة لضروب من المواقف والوقائع شكلت في ذهن الجمهور قرينة على عصمتهم . وأهم تلك القرائن انهم حضروا بيعة الرضوان التي ذكرها القرآن ومدح أهلها ، وبعضهم ذهب بعيدا حين ذكر عشرة منهم من المبشرين بالجنة ، وآخرون ذكروا أن أهل بدر مغفور لهم ماتقدم وماتأخر من ذنوبهم لحديث حاطب بن أبي بلتعة ، وهلم جراً .

لقد اختلف مفهوم الصحابي من جيل الى جيل ، ومن مبنى الى آخر ، ففي جيل الصحابة الأوائل لم تكن للصحبة كما ذكرنا غير ذلك المفهوم اللغوي ، بينما

بدأ هذا المفهوم يتبلور في صور اصطلاحية في عصر التدوين ، وفي ضوء علم الحديث الذي بدأت قضية الجرح والتعديل فيه تقف عند رواة الأخبار . وهو عصر متأخر عن جيل الصحابة . وكانت له دوافع معينة اقتضتها عمليات الجرح والتعديل . وهي تنزيه الصحابة عن كل تجريح والأخذ بعدالتهم مطلقا . وسبق الأخذ بعدالتهم ، كلامٌ عن تعريفهم ، بشكل يبرر مذهب المحدثين ، ويضفي عليهم مسحة اصطلاحية معينة . فالصحبة كمصطلح شرعي هو من وضع المتأخرين من رجال الحديث .

كما أن مفهوم الصحبة يختلف معه مبنى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وسيرة الصحابة ، ومبنى المحدثين المتأخرين . ولتوضيح ذلك ، نرى من الأجدر التطرق الى مفهوم الصحابي من هذه الزوايا المتفرقة .

تعريف الصحابي وعدالته عند المتأخرين ، والردّ عليهم

عرف المتأخرون الصحابي تعريفا مناقضا لروح الشريعة الاسلامية ، ومنافيا للبناء العقلائي . فهم من جهة اعتبروا الصحابي هو كل من رأى الرسول (ص) ، سواء أكان كبيرا أم طفلا صغيرا . بل حتى من لم يره من العمي لتعذر الرؤية عليهم . بل ويعد صحابيا من رآه الرسول (ص) ولو عن بعد ، سواء جالسه أم لم يجالسه ، غزا معه أو لم يغز . وعلى ذلك استقر رأي الجمهور .

يقول في ذلك ابن حجر في الاصابة في تمييز الصحابة :

« الصحابي من لقي النبي (ص) مؤمنا به ، ومات على الاسلام فيدخل في من لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت ، ومن روى عنه أو لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغز . ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى » .

ويتبين من خلال هذا التعريف ، انحراف بالمفهوم من إطاره اللغوي الظاهر الى دائرة الاصطلاح ، وهذا ماجعل بن حجر العسقلاني يقول : « ان اسم صحبة نبي (ص) مستحق لمن صحبه أقل مايطلق على اسم صحبة لغة وان كان العرف يخص ذلك ببعض الملازمة »[٧٨]

---

(٧٨) ـ الأصابة في تمييز الصحابة.

وطبيعي ، ان هذا التحديد يخالفه العقلاء من حيث كونه متجاوزا للغة والعرف ، ومتقوما بتواضع المتأخرين واصطلاحهم من دون قرينة تنهض بما يخالف اللغة والعرف .

وحكموا بعد اطلاق تعريفهم على عدالتهم جميعا ، واعتبروا أغلاطهم غير منافية لعدالتهم .

وبهذا انتهى بالبعض الى اعتبار الصحبة اقوى من الايمان وفي ذلك خروج صريح عن منطق الاسلام الذي لايعطي صكوكا بقدر مايحكم على الاعمال الصالحة .

ذكر صاحب الاصابة : « اتفق أهل السنة على ان الجميع عدول ، ولم يخالف ذلك الا شذوذ من المبتدعة »[٧٩] .

وذكر النووي في التقريب : « الصحابة كلهم عدول ، من لابس الفتنة وغيرهم » .

ويبدو من خلال مااتفقوا عليه ، أن العدالة شيء ملازم للصحبة . بينما العدالة شأن اصطلاحي يختلف عن الصحبة . فالعدالة لها ضوابط محددة ، وشرائط مسطرة . فلا لزوم بينها وبين الصحبة . إلا من جهة التعسف الذي جرد عليه المزورون والمتحجرون . لأن تلك الملازمة لم يكن متعارف عليها في زمن الصحابة انفسهم ، وفيما أدركوه من القرآن وسنة رسول الله (ص) .

فالصحابة عاشوا فترة طويلة من الصراع بعد وفاة الرسول (ص) عملوا فيها السيف على رقاب بعضهم البعض . وبيتوا لبعضهم البعض . وتقاتلوا فرقا فرقا . ولو كان للصحبة مفهوم غير لغوي أو ان العدالة كانت من لوازمها . اذن لكان هذا الرهط أولى بالإلتزام بهذا الأمر . واذا كان التجريح لايطال الصحابة . فكان أولى بهؤلاء ان لايجرحوا بعضهم بعضا . ترى فهل كانت الصحبة عاصمة للصحابة من النار كما ادرك ذلك الصحابي نفسه ، وهل ان الصحبة ملازمة للعدالة في رأي الصحابي نفسه ؟ .

---

(٧٩) ـ الأصابة (١ / ٢٢١٧) .

روى البخاري عن زيد بن ثابت : « لما خرج النبي (ص) الى أحد رجع ناس من أصحابه فقالت فرقة منهم : نقتلهم ، وقالت فرقة : لانقتلهم » ، نزلت الآية الكريمة : ﴿ **فمالكم في المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا** ﴾[٨٠] .

وحكم كل من عمار وابن مسعود بالكفر على عثمان وثاروا ضده مع جمع من الصحابة وقالت عائشة اقتلوا نعثلا ـ تعني عثمان ـ فقد كفر[٨١] .

وفي ذلك قال لها ابن ام كلاب :

وانتِ أمرتِ بقتل الامام　　وقلتِ لنا أنه قد كفر[٨٢]

ويوم السقيفة عندما قال أناس : اتقوا سعدا ، لاتطؤوه : قال عمر : اقتلوه ،قتله الله .

واذا تبين ان الصحابة لم يكونوا يفهمون الصحبة بذاك المعنى الذي اصطلح عليه أهل الحديث المتأخرون . أدركنا اذ ذاك انهم رجال كباقي الرجال مرهونون هم ايضا بذنوبهم ، ومطالبون بالعمل الصالح ، وموعدون بنار جهنم . فاذا كان هذا هو موقف الصحابي من أخيه الصحابي ، ترى أي موقف كان الرسول (ص) منهم ؟ .

كان رسول الله (ص) يسكت عمن حوله ، ويسمي كل من حوله صاحب . وكان ذلك تساهلا منه وتأدّبا . وكانت كلمة صحابي تقال في مواقع مختلفة . فتارة يذكرها في السفر وأخرى في الحضر ، مرة يعني بها من صاحبه في الطريق . وأحيانا يقولها عمن صاحبهُ في قضيته . واخرى لمن أحاط به وسمع كلامه . ولهذا سمى الذين همّوا بقتله بـ« أصحابي » ، يوم تبوك كما تقدم .

ان كلمة صحابي في عهد رسول الله (ص) كانت تأخذ طابعا أدبيا يشترك فيها البر والفاجر ، المؤمن والمنافق . ولم تكن العدالة منحة رخيصة عندالصحابي في

---

(٨٠) ـ سورة النساء (آية٨٨) .

(٨١) ـ تاريخ الطبري (٤ / ٤٥٩).والكامل (٣ / ٢٠٦) والنهاية لابن الأثير (٥ / ٨٠).وتذكرة الخواص (٦٤ و ٦٦). والفتوح (٢ / ٢٤٩ و ٢٥٥) .

(٨٢) ـ تاريخ الطبري (٤ / ٤٥٩). والكامل (٣ / ٢٠٦). والفتوح (٢ / ٢٤٩) .

عهد رسول الله (ص) بل هي أمر له صلة بعمل الانسان ، لذا قال لهم مرة :

« مابعث الله من نبي ولااستخلف من خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحثه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عَصَمَهُ الله »[83] .

والقرآن يتحدث عن الصحابة بكل واقعية ، ويستخدم عبارات تدل على ان الصحبة ليست ميزة في ذاتها ، بقدر ماهي مرهونة بما يقدمه الصحابي من عمل صالح ، يقول تعالى :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجودذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجراً عظيما ﴾[84] .

فكلمة « منهم » تعبير عن اختصاص فئة معينة بالمغفرة والأجر العظيم . ليس ذلك لقاء تمحورهم وصحبتهم للرسول (ص) وانما لقاء ايمانهم وعملهم الصالح .

وبمقتضى المفهوم بالمخالفة ،يبقى منهم من ليسوا من أهل الايمان ولا من أصحاب العمل الصالح . وعلى ذلك الأساس يحرمون المغفرة والأجر العظيم . وكان هذا هو شأن أهل بيعة الرضوان الذين قال فيهم تعالى :

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾[85] .

فان تخصيص فئة منهم بالثواب أمرٌ اقتضاه الواقع من حالهم . اذ هناك من حضر بيعة الرضوان وهو ليس من ذاك المقام . بل هناك من عرف بالنفاق . وقد

---

(٨٣) ـ البخاري (٤ / ١٧٣) .
(٨٤) ـ سورة الفتح (آية ٢٩) .
(٨٥) ـ سورة الفتح (آية ١٨) .

حضر بيعة الرضوان فيمن حضرها عبدالله بن أبي رأس النفاق ، وأوس بن خولي . فكونهم من أهل بيعة الرضوان يستبطن مغزى عميقا ، لابد من البحث عنه وراء منطوق الآية الكريمة . فالبيعة وحدها لاتكفي للحكم على أصحابها . فعنصر الزمن الذي يعكس مدى صدق هذه البيعة من خلال استمرارية أصحابها عليها أم تراجعهم عنها . وقيمة البيعة هي في مدى الالتزام بشروطها كلها ، وتنحل تلك القيمة مع خروج أصحابها عليها . وكثير ممن حضر بيعة الرضوان لم يلتزم بتلك الشروط كما سنرى .

وكان ذلك متوقفا على مدى صبره واستمرارهم عليه . وقد سمعوا ذلك من الرسول (ص) اذ قال لهم : « اني فرطكم على الحوض من مرّ عليَّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا ، ليردنّ علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم فأقول : أصحابي ، فيقال : انك لاتدري ماأحدثوا بعدك فأقول سحقا لمن غيّر بعدي »[٨٦] .

وفي هذا النص الصحيح معنى صريح ، على أن ماذهب اليه المتأخرون من تعريف للصحابي أو عدالته ، محض أوهام ، ـ فهو هنا ـ كما يقول (ص) : يعرفونني . . ومع هذا لم يشفع لهم ذلك في النجاة من النار .

وعن العلاء بن المسيب عن ابيه قال : « لقيت البراء بن عازب (رض) فقلت طوبى لك صحبت النبي (ص) وبايعته تحت الشجرة ، فقال : ياابن أخي انك لاتدري ماأحدثنا بعده » .

وروى الحميدي في الجمع بين الصحيحين في مسند حذيفة ، انه قال :

« قال النبي (ص) : في أصحابي اثنا عشر منافقا ، منهم ثمانية لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، وأربعة لاأحفظ ماقال فيهم » .

قال (ص) : « لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »[٨٧] .

---

(٨٦) ـ البخاري (٥ / ٢٤٠٦ ح ٦٢١٢) ومسلم (٤ / ٤٧٢ ج ٢٢٩١ و٤٧٣ ح ٢٢٩٥ و ٤٧٤ ح ٢٢٩٧ و٤٧٨ ح ٢٣٠٤) .

(٨٧) ـ البخاري (٦ ح ٢٥٩٣ ـ ٢٥٩٤) .

هذه وأمثالها وكثير من النصوص القرآنية التي جاءت بعتاب الصحابة ولعن المنافقين منهم . وتحذير المذبذبين وتخويف المؤمنين من خطر الارتداد .

وهكذا يكون مفهوم الصحابي ليس له معنى أكثر مما يفيده لغويا وان الصحابة مثل باقي المسلمين معرضون للارتداد ، وقد جاء في السيرة : « ان عبدالله بن سعد بن ابي السرح قد أسلم وهاجر الى المدينة وكتب الوحي للرسول (ص) وارتد في النهاية مشركا »[٨٨] .

وجاء في كتاب الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا من يرتد . .** ﴾[٨٩] .

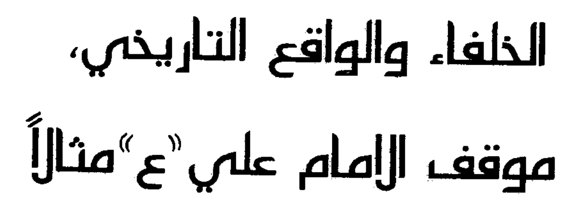
فالخطاب هنا موجه لجيل الصحابة ،لأنهم أول المعنيين به .

---

(٨٨) ـ الاستيعاب (٩١٨) والأصابة (٤ / ١٠٩) .

(٨٩) ـ سورة المائدة (آية ٥٤) .

الفصل الثاني



الخلفاء والواقع التاريخي،
موقف الامام علي "ع" مثالاً



أدرك الامام علي (ع) بعد كل ماوقع أنه قد وقع في مأزق وداخل شراك خطير فالعرب تظاهرت عليه واستضعفته وتيار الاغتصاب لم يركب الخلافة فحسب وانما طوق بيت الامام (ع) ، وحاصره بعد أن مد جسور التعاون مع المنافقين وأدرك بعدها الامام انه أمام خيارين اثنين لاثالث لهما :

- أن يجهز عليهم ، فلايبقى من تيار الاغتصاب رجلا يذكر .
- أو أن يصبر وينتظر حالما تعود الأمور الى نصابها .

أما الخيار الأول فهو يسير على علي (ع) وهو من أرعب بسيفه العرب واهتز لشجاعته الأبطال . وتيار الاغتصاب كان مدركا لكل ذلك . غير أنهم ادركوا أن أباالحسن لايقاتل في أمر لامصلحة للشرع فيه . ادركوا ذلك على مدى سنوات من الجهاد الذي كان يتزعمه علي (ع) . ولذلك تجاسروا عليه وأبدوا بطولاتهم المزيفة . كان الامام علي (ع) على علم تام بحقيقة هؤلاء الجبناء الذين ماثبتوا في معركة ، ولانصروا الاسلام . ولكنه اختار البقاء منتظرا .

والامام علي (ع) وهو ينتظر ، لم يكن مكتوف اليدين ، لم يكن انتظاره سلبيا كما يبدو للكثير .

كان علي (ع) نشيطا يعمل حسب ماتسمح به الظروف متحركا خلف الحصار المفروض عليه .

ان الذين التفوا حوله لم يكونوا على نفس الدرجة من الاخلاص . لقد كانوا على جانب من الذعر الذذي أخافهم وثبة العرب عليهم . وكان علي (ع) يومها مستعداً لقلب الأوضاع بعد أن رأى الأمر في يد تيار الإغتصاب .

ويذكر اليعقوبي انه اجتمع جماعة الى علي بن ابي طالب يدعونه الى البيعة ، فقال لهم : « اغدوا علي محلقين الرؤوس فلم يغد الا ثلاثة نفر »[90] .

وقال علي (ع) في بداية الأمر : « لو وجدت أربعين ذوي عزم لناهضتهم » .

ولما لم يجد من هم كذلك ، فضّل الصبر « فرأيت الصبر على هاتا احجى ، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى »[91] .

علي (ع) إمام شرعي ، وأمامه عصابة من المغتصبين لشرع الله . والمفروض اذ ذاك هو النهوض بالوضع بشكل يطيح بهؤلاء مع مراعاة مصلحة الاسلام . والتقية كما يقول بعدذلك الإمام الصادق (ع) :

التقية ديني ودين آبائي . فعلي (ع) أولى بالتقية وهو يعاصر مرحلة خطيرة عليه وعلى الاسلام .

وبالمقابل فإن تيار الاغتصاب راح يعضد بعضه بعضا . ويؤسس له حلفاً متماسكاً . يتداولونه قهرا وغلبة . فأبوبكر عهد الى عمر من دون مشورة وهذا الأخير عهد الى عثمان من خلال فبركة ملتوية . وكلُهم وقفوا من علي (ع) موقفا صارماً .

ولابدّ من أن نشير الى أن موقفهم من الامام لم يكن في شأن جدارته ، بل كان ذلك فيما يتعلق بالجانب السياسي .

بالإضافة الى أن كثيراً من الوقائع تشهد على ماكان من صراع حقيقي بين الثلاثة والإمام علي (ع) فالكل يحرص على ازاحة علي (ع) وهذا الأخير يعمل أيضا مافي وسعه لإقصائهم ، لترتاح منهم الأمة . ويعود الأمر كما بدأ لأهله الذين يستحقونه .

---

(٩٠) ـ اليعقوبي (٢ / ١٢٦) .

(٩١) ـ شرح النهج (١ / ١٥١) .

لقد اعتزل الإمام علي (ع) الخلفاء ، ولم يشاركهم في المعارك . بعد أن كان هو قائدها على عهد رسول الله (ص) وذلك كله إعرابا عن موقفه الرافض لشرعيتهم . وكان لايتدخل الا فيما أشكل على الناس من قضايا ، يرمي من خلالها الى الحفاظ على الحد الأدنى من الشريعة ، كما يرمي من خلالها الى إقامة الحجة على الناس وإظهار عدم أعلمية الخلفاء .

وكان (ع) لايألوا جهدا إلا وصَرَفَهُ في طريق الهدم لواقع الاغتصاب ، وعندما يستشيره أحدهم في أمر لاعلاقة له بالأحكام في امور الرعية ، كان يشير عليه بما يؤدي الى الموت والهلاك . ففي معركة القادسية أشار على عمر بن الخطاب عندما استشاره هذا الأخير ، بالمشاركة مع الجيش نصحه اصحابه النفعيون بعدم فعل ذلك خوفا عليه من الموت .

ذكر المسعودي : لما قتل ابوعبيدة الثقفي بالجسر شق ذلك على عمر وعلى المسلمين ، فخطب عمر الناس وحثهم على الجهاد ، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق ، وعسكر عمر وهو يريد الشخوص . وقد استعمل على مقدمته طلحة بن عبيدالله وعلى ميمنته الزبير بن العوام وعلى ميسرته عبدالرحمن بن عوف . ودعا الناس فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير ، ثم قال لعلي : ماترى يأابا الحسن : أسير أم أبعث ؟ .

قال : سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له ، فخرج من عنده فدعا العباس في جلة من مشيخة قريش وشاورهم فقالوا : أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين ان انهزموا فئة، فدخل اليه عبد الرحمن بن عوف فاستشاره فقال : ان انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك وانك ان تهزم او تقتل يكفر المسلمون ولايشهدوا أن لا اله الا الله أبدا قال : أشر علي من أبعث ؟ قال قلت : سعد بن ابي وقاص ،قال عمر : أعلم ان سعدا رجل شجاع ولكني أخشى ان لايكون له معرفة بتدبير الحرب ثم خرج فدخل عثمان عليه فقال له : ياأباعبدالله اشر علي أسير أم اقيم ؟ فقال عثمان أقم ياأمير المؤمنين وابعث بالجيوش فانه لاآمن إن أتى عليك آت ان ترجع العرب عن الاسلام ، ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض وابعث رجلاً له تجربة بالحرب .

قال عمر : ومن هو ؟ قال : علي بن ابي طالب . قال : « فالقه وكلمه وذاكره ذلك ، فهل تراه مسرعاً اليه اولا ، فخرج عثمان فلقي علياً فذاكره ذلك فأبى علي ذلك وكرهه »[٩٢] .

تحمل هذه الرواية عدة دلالات على مدى اعتزال الامام علي (ع) عن الخلفاء ، فهو يأبى ويكره أن يسير في جيوشهم ، فلو كانوا على جانب من الشرعية لكان علي (ع) أولى بكسب ذلك الثواب في الجهاد وفتح البلدان ، وأنه أشار على عمر بن الخطاب بالمسير خلافا لباقي الرجال ، رغم ان في بعث عمر خطر على حياته .

ان هذه الواقعة تثبت مدى حرص الامام علي (ع) على عدم الاحتفال بمشاريع ذلك التيار وعدم تزكية اي خطوة من خطواتهم ، وذلك عن طريق الامتناع عن تلبية طلباتهم وعدم نصرتهم . والاشارة عليه ـ اذا استشير ـ بما يهدد اركان الاغتصاب ويسهل عودة الخلافة الى وضعها الشرعي . وهذا الخذلان من جانب الامام علي (ع) هو الذي دعى بني امية للتحامل عليه في أمر عثمان . وكان عمر بن الخطاب متوقعا لأي محاولة من محاولات القتل من قبل علي (ع) وذلك مارأيناه في مقتل عمر بن الخطاب ، عندما التبس عليه الأمر ، فطلب بني هاشم ، ليحقق معهم في الأمر .

ذكر بن قتيبة وغيره :

لما طعن عمر قال لابن عباس ، اخرج فناد في الناس أعن ملأ ورضى منهم كان هذا ؟ فخرج فنادى فقالوا : معاذ الله ماعلمنا ولا اطلعنا فقال : « ياعلي أعن ملأ منكم ورضى كان هذا ؟ فقال علي (ع) ماكان عن ملأ منا ولا رضى »[٩٣] .

كان لعلي (ع) أصحاب موالون ، وهو من أهل السابقة . وكلهم كان رافضا لبيعة ابي بكر في السقيفة . وقد جاء ذكرهم آنفا ، وعلى رأسهم : سلمان الفارسي ، ابو ذر الغفاري ، عمار بن ياسر ، ابن عباس ، مالك الاشتر .

هؤلاء كانوا قد تفرقوا في البلدان واصبحوا يدعون سرا لولاية الامام علي[٩٤]

---

(٩٢) ـ مروج الذهب (ج ٢ ص ٣١٨) .

(٩٣) ـ الإمامة والسياسة (ص ٢٢) .

(٩٤) ـ أقول ، أن الدعوة الى قتل عثمان كانت ترافقها بالتوازي الدعوة الى ولاية علي (ع) وسوف نرى ذلك في حديثنا عن المقتل في تاريخ ابن خلدون ! .

فهذا سلمان كان بالمدائن وهي التي عرفت بعد ذلك بالتشيع الشديد لأهل البيت وذاك عمار بن ياسر بمصر ايام عثمان كان يدعو الى ولاية الامام علي (ع) .

يقول بن خلدون : وكان ـ أي عمار ـ يكثر الطعن على عثمان ويدعو في السر لأهل البيت ، ويقول : ان محمداً يرجع كما يرجع عيسى[٩٥] .

وبقوا على ذلك حتى ورد عثمان حيث كان الظرف مناسبا لاثارة الناس عليه بكل وضوح وحيث ان فترة عثمان عرفت نوعا من التهور بحيث تمكن انصار علي (ع) من تأليب الأمصار عليه . وانه ليس غريبا أن تتوحد مواقف هؤلاء الانصار وان تكون كل حركاتهم بأمر من الامام علي (ع) كيف ذلك وهم يعترفون له بالامامة ولايقومون بشيء دون مشورته .

ولذلك رأينا كيف ان شيعته بالكوفة والبصرة ومصر هم الذين جاؤوا بالوفود فكان مالك الاشتر على رأس الوفد الكوفي بينما حكيم بن جبلة كان على رأس الوفد البصري ، في حين تزعم الوفد المصري محمد بن ابي بكر وهؤلاء هم ايضا من اقتحم الدار على عثمان ونفذ فيه عملية القتل . ورأينا أن عليا هو الذي كان يتوسط وبيده امور الصلح وهو الذي رد الوفود بكلمة قالها . وهو الذي سكت حين رجعوا ، فنفذوا حكم القتل في عثمان . ولاعليك من قصة بعث الإمام لابنيه لحراسة عثمان . كيف يبعث ابنيه لصد ثورة عارمة تقف خلفها جماهير جرارة .

وهل الحسن والحسين الى تلك الدرجة من الصغار حتى يأتي ابوهما فيصفعهما لما قتل عثمان . فهل يعقل من أمير المؤمنين وإمام الأمة أن يؤاخذ سيديْ شباب أهل الجنة وائمة المستقبل ، على عدم رد مالاطاقة لهما به ، ولو كان كما صوروه رافضا لقتل عثمان ، اذن لكان احرى أن يأتي الى باب الدار وهو يعرف ان لامنقذ لعثمان من هؤلاء سوى كلمة قد تصدر عنه ، ولما رفض الرجوع الى عثمان وعدم الاستجابة لنجدته في نهاية المطاف . فكيف يلطم ابنيه وهو يعلم ان هؤلاء من كان ينازع ابابكر وعمر في عهدهما امام الناس ويستنزلون من قدرهم . فكان أحرى ان يضربهم على مافعلوه في الشيخين من قبل . وقد كانوا أصغر من سنهم ذاك . فقد

(٩٥) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٢١) .

جاء الحسن[٩٦] مرة الى ابي بكر وهو على منبر رسول الله (ص) فقال : انزل عن مجلس ابي . وفعلها الحسين مع عمر[٩٧] .

وهل كان من المعقول ان يرفض زعماء الوفود توسط علي (ع) فيما لو أراد عليه السلام ذلك . وهم من كانوا لايخطون خطوة الا باذنه . وبعد مشورته كما يتبين من الوقائع والقرائن المستفيضة . وهم كانوا من خلص شيعته . وكان أحرى به عليه السلام أن يلطم هؤلاء الذين قتلوه أو تزعموا قتله . بدل الثناء عليهم والاهتمام بهم . ودعنا أولاً وقبل كل شيء أن نرى كيف كان حال هؤلاء الأنصار ، وهل في سيرتهم مايؤكد على أنهم كانوا متمردين بلا ولاء ولاخلفيات .

كان زعماء الوفود وطلائع التمرد هم محمد بن ابي بكر ومحمد بن ابي حذيفة بمصر ومالك الاشتر في طليعة الوفد الكوفي وحكيم بن جبلة العبدي كان على رأس الوفد البصري[٩٨] .

على اي شيء قاتل هؤلاء . وعلى اي مأرب خاضوا كل هذه الثورات .

فأما عمار الذي ثار على عثمان وساهم في قتله ، ظل حليفا وفيا للبيت النبوي ، ومن انصار الامام علي (ع) والذين شاركوا في كل حروبه حتى استشهد في صفين . وكان موقفه على جانب من الحجية .

ذكر المسعودي :[٩٩] وقد كان عمار حين بويع عثمان بلَّغه قول أبي سفيان صخر بن حرب في دار عثمان عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو امية فقال ابو سفيان : أفيكم أحد من غيركم ؟ .

وقد كان عمي ، فقالوا : لا ، قال : يابني امية ،تلقفوها تلقف الكرة ،فوالذي يحلف به أبوسفيان مازلت أرجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة ، فانتهره عثمان ، وساءه ماقال ، ونمى هذا القول الى المهاجرين والانصار .

---

(٩٦) ـ كفاية الطالب (٤٢٤) ، والرياض النضرة (١ / ٢٠٣) ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي .

(٩٧) ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي (١٤٣) .والأصابة (١ / ٣٣٣) .وتاريخ بغداد (١ / ١٤١) .

(٩٨) ـ الكامل (٣ / ١٥٨ و١٦١) .والعقد الفريد (٤ / ٢٩٢) .وتاريخ أبن عساكر (٣١٥) .وشرح النهج (٣ / ٢٧) .

(٩٩) ـ مروج الذهب (٢ / ٣٥١ ـ ٣٥٢) .

(وغير ذلك الكلام) فقام عمار في المسجد فقال : يامعشر قريش ، أما اذ صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة فما أنا بآمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله .

أما المقداد الذي جاء إسمه في لائحة المعارضين للسقيفة . فإنه كان من الناقمين ايضا ،على عثمان . وكان ذلك على أساس إيمانه بحق الامام علي علي (ع) وأهل بيته . فقال :

« مارأيت مثل ماأوذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم ، فقال له عبدالرحمن بن عوف :

ومأأنت وذاك يامقداد فقال : « إني والله لأحبهم لحب رسول الله (ص) إيّاهم ، وإن الحق معهم وفيهم ، ياعبدالرحمن أعجب من قريش وانما تطولهم على الناس بفضل أهل هذا البيت ـ قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله (ص) بعده من ايديهم أما وأيم الله ياعبدالرحمن لو أجد على قريش أنصاراً لقاتلتهم كقتالي إيّاهم مع النبي (ص) يوم بدر ، وجرى بينهم من الكلام خطب طويل »[١٠٠] .

إن منطق الاصلاح كان هو الذي يوجه هؤلاء جميعا . وكان برنامجهم موحد . لقد أعطيت لهم الدنيا ودنت منهم أكثر من مرة ، ولكنهم رفضوها . فهم لايقاتلون على مآرب رخيصة . كان همهم منذ السقيفة أن يدمروا بنيان الخلافة الزائف وإقامة صرح الإمامة الشرعية .

لقد كان ثمة صراع حقيقي بين علي وعثمان . وبلغ بالإمام أنه بدأ يبدي اعتراضه الصريح على عثمان ولايأبه بأي تهديد منه ، كيف يسكت علي (ع) وهو لم يسكت قبلها ، اذ سكت إلا مراعاة لحرمة الاسلام وحواريي الرسول (ص) . أما وقد بدأ عثمان يختلف في الدين ويستهزىء بشريعته ، ويّنزل من مقام حواريي الرسول (ص) ويرفع من شأن الطلقاء ،« فلما يكون السكوت أحجا . وليكن مايكون » .

---

(١٠٠) ـ مروج الذهب (ج ٢ ص ٣٥٢) .

فعلي (ع) كان يريد أن يعيد الأمر بشكل جذري ، غير أن الظروف اقتضت أن يستثمر ماتوفر لديه من رجال مخلصين ،بايعوه على الموت . ومن تلك الأمثلة التي واجه فيها علي (ع) عثمان ،ماذكره المسعودي في مروج الذهب ،عندما اجتذب الإمام علي (ع) الوليد وضرب به الأرض وعلاه بالسوط ليقيم عليه الحد عند شرب الخمر ،ورفض عثمان لذلك وخوف الناس منه ،فقال عثمان :

ليس لك أن تفعل به هذا . . قال : بل وشرّا من هذا اذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه .

وذكر ـ ايضا ـ انه عندما أزمع عثمان على تسيير أبي ذر الغفاري (رض) الى الربذة ، ومنع الناس أن يسيروا معه ، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه علي بن أبي طالب ومعه ابناه وعقيل اخوه وعبدالله بن جعفر وعمار بن ياسر ، فاعترض مروان فقال : ياعلي ان أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أباذر في مسيره ويشيعوه . فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك ، فحمل عليه علي بن ابي طالب بالسوط وضرب بين أُذني راحلته ،وقال : تنحّ نحاك الله الى النار . ومضى مع أبي ذر فشيعه ثم ودّعه وانصرف ، فلما أراد علي الانصراف بكى ابوذر ، وقال : رحمكم الله أهل البيت ،اذا رأيتك يا أباالحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله (ص) فشكا مروان الى عثمان مافعل علي بن ابي طالب ،فقال عثمان : يامعشر المسلمين من يعذرني من علي ؟ ردّ رسولي عما وجّهته له ،وفعل كذا ، والله لنعطينه حقه فلما رجع علي استقبله الناس ، فقالوا له : ان أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أباذر ، فقال ، غضب الخيل على اللجّم .

هذه الواقعة تثبت أهمية الصراع الدائر بين علي وشيعته وعثمان وبطانته ووصلت تلك الحدة درجة من الخطورة اصبحت فيها الامور أوضح من الشمس في رائعة النهار .

ذكر المسعودي ماجرى بين علي وعثمان في ذلك الشأن وأظهر ماجرى بينهما من مشادات كلامية تعبر عن حدة ذاك الصراع يقول :[١٠١]

---

(١٠١) ـ مروج الذهب (ج ٢ ص ٣٥١) .

قال عثمان : ماحملك على ماصنعت بمروان ولم اجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري ؟! .

قال : أما مروان فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردي ، وأما امرك فلم اردّه ، قال عثمان : ألم يبلغك اني قد نهيت الناس عن ابي ذر وعن تشييعه ؟ فقال علي : أو كل ماأمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه امرك ؟ بالله لانفعل ، قال عثمان : أقد مروان ، قال : ومم أقيده ؟ قال : ضربت بين أذني راحلته وشتمته ، فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك ، قال علي : أما راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل . وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنّك أنت مثلها بما لاأكذب فيه ولاأقول إلا حقا . قال عثمان : ولم لايشتمك اذا شتمته ، فوالله ماأنت عندي بأفضل منه ؟! فغضب علي بن ابي طالب وقال :

أليّ تقول هذا القول ؟ وبمروان تعدلني ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأبي أفضل من أبيك ، وأمي أفضل من أمك ، وهذه نبلي قد نثلتها ،وهلم فانثل بنبلك ، فغضب عثمان واحمّر وجهه ، فقام ودخل داره .

لقد كان البرنامج ، والملف المطلبي للوفود المتمردة برنامجا رساليا وملفا مطلبيا منسجما مع متطلبات الشريعة الاسلامية وكان علي (ع) معززاً ومزكياً لهم في ذلك .

وعندما جاءت الوفود هرع عثمان الى علي (ع) ليتوسط له مع القوم ويردهم عنه .

وفي ذلك دلالة على مدى الولاء الذي كان يجمع بين علي وهؤلاء الثوار فقال له علي (ع) على اي شيء أردّهم عنك ؟ قال : على أن يصير الى ماأشرت اليه ورأيته لي[١٠٢] .

لقد كان الشرط الوحيد لعلي (ع) هو أن ينال الطاعة من عثمان فقال له (ع) « اني قد كلمتك مرة بعد اخرى فكل ذلك تخرج وتقول ثم ترجع

---

(١٠٢) ـ ابن الأثير (٣ / ١٦٢) .

عنه ،وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد ، فانك اطعتهم وعصيتني قال عثمان : « فأنا أعصيهم وأطيعك »[١٠٣] .

غير أن عثمان وبطانته كانوا قد خانوا العهد فرجعت الوفود جميعها . تطالب بقتل عثمان وجماعته وكانت آخر كلمة لعلي (ع) قالها لعثمان : « ماأنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك »[١٠٤] .

وبقي كذلك ، ولم يجب طلب عثمان ،وهو يعلم ان ذلك يؤدي به الى الموت حتما .

والذين قتلوا عثمان ، كانوا هم من بايع عليّا (ع) واصبحوا ساعده الأيمن . ولم يقل فيهم شيئا . ولاعاتبهم على شيء من ذلك البتة ، بل قد دافع عنهم ، وكان بينه وبين معاوية ان يسلم له قتلة عثمان ، لكن الإمام قاتل بهؤلاء بقايا الأمويين . واشتدت عرى ولائهم له .

وكان محمد بن ابي بكر الذي طعن عثمان ومالك الاشتر هم عماله الثقات على الامصار ، وهم الذين زكى الامام علي (ع) ثورتهم بأن جعل ثقته فيهم في إقامة الدين ومتابعة الإصلاح . فعندما أراد أن يبعث محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر الى الكوفة .

قال لهم : اني اخترتكم على الأمصار وفزعت اليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا وانهضوا الينا ، فالاصلاح نريد لتعود هذه الأمة اخوانا[١٠٥] .

لقد كان موقف علي وشيعته الاوائل واضحا لأعداءه . ولهذا سرعان ماهتزت عائشة ، التي كانت بالأمس تقول : « يامعشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته ، فقال عثمان : رب اصرف عني كيدهن ان كيدهن عظيم »[١٠٦] .

---

(١٠٣) ـ ابن الأثير (٣ / ١٦٢) .

(١٠٤) ـ ابن الأثير (٣ / ١٦٦) .

(١٠٥) ـ ابن الأثير (٣ / ٢٢٦) .

(١٠٦) ـ اليعقوبي (٢ / ١٧٥) .

تقول اليوم : يأيها الناس ان عثمان قتل مظلوما والله لأطلبن بدمه وكانت تقول : « يامعشر قريش ان عثمان قد قتل ، قتله علي بن ابي طالب ، والله لأنملة أو قالت لليلة من عثمان خير من عليّ الدهر كلّه »[١٠٧] .

إنهم رأوا كيف ان عليّا (ع) كان على اتصال بالثوار وأن قيادات الثورة وطلائعها كانوا من خلص أصحابه ، والساعد الايمن له بعد بيعته وانه حريص على تبرئتهم والدفاع عنهم وكان علي (ع) قد دخل على نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان قال لها : من قتله وأنت كنت معه ؟قالت : دخل اليه رجلان وقصت خبر محمد بن ابي بكر ، فلم ينكر ماقالت ، وقال :

والله لقد دخلت عليه وإني أريد قتله ،فلما خاطبني بما قال خرجت ، ولاأعلم بتخلف الرجلين عني ،والله ماكان لي في قتله سبب ولقد قتل وأنا لاأعلم بقتله[١٠٨] .

نعم . . هذا هو منطق الامام علي (ع) منطق الثورية واسلوب التقية فهو قتله ولم يقتله . قتله لما ذكر استحقاقه للموت والهم بقتله ولكنه ماكان له سبب في قتله تلك الليلة ولا علم بقتل عثمان وكيفية ذلك . انها عين التقية التي مارسها الأنبياء . وأشبه ماتكون بموقف ابراهيم (ع) في ردّ المشركين الى كبير الاصنام .

وعدم اعترافه بهدمها . انها تقية واجبة في هذا المقام . على انبياء الله كما على اولياءه . بيد ان الامام علي (ع) لم يستطع ان يتقي كل من حوله ممن رأى خلفية الثورة ، وهؤلاء بلاشك كانوا أصحاب اطماع واهواء اخرى ، حاولوا تحقيقها من خلال طلب الثأر لعثمان . غير أن الشعار كان حقيقيا ، اذ كثيرا ما أريد بكلمة الحق باطلا . فعلي (ع) هو قاتل عثمان . لما كان هذا الأخير مغتصبا . وكان الواجب يفرض على علي (ع) إزاحة الباطل . فمن اهدى من علي (ع) ومن أحرص منه على إزاحة الباطل ! .

وللإمام علي (ع) خطبة حول المقتل يحسن بالمتدبر في ثناياها ان يعي حقائقها .

---

(١٠٧) ـ الفتوح (٢٤٨/٢) .

(١٠٨) ـ مروج الذهب (٢ / ٣٥٤) .

قال (ع) : « لو أمرت به لكنت قاتلا ، أو نهيت عنه لكنت ناصرا . غير أن من نصره لايستطيع أن يقول : خذله من أنا خير منه ، ومن خذله لايستطيع أن يقول : نصره من هو خير مني : وأنا جامع لكم أمره ، استأثر فأساء الاثرة وجزعتم فأسأتم الجزع ، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع »[109] .

فموقف الامام واضح من خلال ماينطق به النص انه لم يأمر ولم ينه . ونحن دائما نصرف ذلك للتقية . نظرا لما بين أيدينا من قرائن ، كتلك التي تتعلق بالظروف التي عاشها . ونظرا لموقفه الجذري من اغتصاب الخلافة . وقد كان الامام كما سبق القول على جانب من القدرة في رد المعتدين . فسكوته هنا كسكوته على الخلافة من قبل . فهي مدارات يتقي بها ارتداد الناس وحمية الجاهلية . وقد سألوه يوما : أرضيت بقتله ؟ فقال : لم ارض ، فقيل له : اسخطت قتله ؟ فقال :

لم اسخط[110] فإذا لم يكن راض يعني انه ساخط . ولكن الامام يريد أن يقول لهم . ان قتله لايرضيه ، مادام ان الامور لم تحل من جذورها . ولكن هذا لايعني انه يسخط بقتله .

وذكر ابن ابي الحديد من اقواله المختلفة والكثيرة ، قوله تارة ، « الله قتله وأنا معه » . وقوله اخرى ، « كنت رجلا من المسلمين أوردت اذ اوردوا ، وأصدرت اذا أصدروا » . (الشرح ٢ / ٤٣) .

لقد ذكر الرسول (ص) في حديث له : ان عليا سيقاتل على التأويل . وكان عثمان أشد الخلفاء محاربة للتأويل . وذلك بتتبعه القراء ومعاقبتهم كابن مسعود وحرقه القرائين وتأويلها . وتجدر الاشارة الى تلك المصادفة العجيبة التي تزامنت مع الثورة على عثمان ومبايعة علي (ع) .

اذ جرى ذلك يوم الثامن عشر من ذي الحجة . وهي الذكرى السادسة والعشرين لواقعة الغدير الذي فيه خطب الرسول (ص) في المسلمين معلناً ولاية علي (ع) استجابة للنداء القرآني ﴿ **بلغ ماأنزل اليك من ربك ، فان لم تفعل فما**

---

(١٠٩) ـ شرح النهج (٢ / ١٢٦) .

(١١٠) ـ شرح النهج (٢ / ١٢٨) .

بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[111] .

ترى هل كانت تلك محض مصادفة أم انها تدبير الهي خفي لجعل ذكرى يوم التنصيب ، ذكرى لاقصاء المغتصب وتنصيب علي (ع) أقول ، انه لو لم تكن ثورة شيعة علي (ع) هي التي جاءت بعلي (ع) وفرضت ولايته لما رآها بنو هاشم البتة . ولكان عثمان عهد بها الى أحد من بطانته أو لفعل مثل مافعله شيخاه . ان في الأمر من التوافق مايثير الانتباه . فسبحان من له في خلقه شؤون ! .

(١١١) - سورة المائدة (آية ٦٧) .



الباب الثاني

ازمة تاريخ
ام ازمة مؤرخين ؟
نموذج ابن خلدون



التاريخ لماذا ؟

كثيرا ماكانت الطريقة التي سلكها المؤرخون في بحث أحوال الماضي من هذه الامة موغلة في التواطؤ تارة وفي الغباء طورا ، فالأحداث كما تقع في الماضي تختلف كلها عما يكتب على أديم التاريخ . وذلك كله راجع الى أسباب معينة ، قصية بأن تكون مقدمة لهذا الباب ، ومدخلا لفهم صراحته وجرأته في تناول الحقائق التاريخية في صورتها الجلية .

إن تراثنا تشكل من خلال لعبة تاريخية . وقفت من ورائها سلطة الخلفاء التي كانت تنهج نهجا تحريفيا في كل المؤسسات الاجتماعية والثقافية . من أجل خلق واقع منسجم . تتطابق فيه البنى السياسية بالاجتماعية والثقافية . ولأن القطاع الثقافي والتعليمي يشكل ركيزة المجتمع الحضاري . وأساسا للدولة العقائدية . فان المؤسسة السلطانية لعبت دورا كبيرا في اعادة ترتيب محتوياتها الداخلية . من أجل سلب العناصر النقيضة لتلك المؤسسة .

وتفريغ كل ذلك المحتوى من كل مامن شأنه أن يكون قنبلة موقوتة تهدد بقاء تلك المؤسسة .

وليس عجيبا ان يذكر التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك . تعكس حرص المؤسسة السلطانية على التصرف في الجهاز المعرفي والثقافي للأمة . ونزوع حالة من الشمولية تجعل الفكر محكوما برقابة شديدة وتحت رحمة الرغبة الخلفائية .

ومن هنا تبين كيف ان التحريف لم يخدم فقط الواجهة السياسية . بل انعكس ذلك ايضا على فلسفة التاريخ وعلى مناهج التاريخ وشخصية المؤرخ . فبعض المؤرخين تألق نجمهم وتلألأ في سماء ألتراث الاسلامي . على الرغم من صغر حجمهم . ونبوغ غيرهم ، ذلك بأن المؤرخ كان نفسه يعاني أخطر محنة في الماضي ، وان مهنة التاريخ كانت أخطر مهنة يمكن تصورها ساعتئذ . ومن هنا كانت الشهرة والألمعية من شأن المؤرخين المتزلفين للبلاط والمدافعين عن نهج الخلفاء . تعطى لهم الامتيازات بسخاء ، وتقدم لهم المناصب على أطباق من ذهب . في حين انطفأ فيه نجم النابغين الذين أفنوا حياتهم في العلم وبرعوا في هذه الصناعة . وترفعوا عن الاختلاف الى أبواب الخلفاء .

فكل ذلك كان بسبب ماتقتضيه السياسة من تحريف الحقائق وتزوير الأحداث بما يتفق مع نهجها السياسي أو هواها السلطاني . وماتلزمه تلك العملية من تقريب المتزلفين وتهميش العلماء المستقلين .

وعلى الرغم من كل ذلك يبقى التاريخ ضرورة لاغناء عنها ، والنظر في أحوال الماضي ضرورة علمية لامناص من مزاولتها . لأنها وحدها كفيلة بأن تطلعنا على حقيقة ماجرى في الماضي لفهم مايجري في الحاضر . وفيما يتعلق بالتراث الاسلامي ، لابد من تركيز الاهتمام بالتاريخ ومناهجه وكيفية ضبط الوثائق ونقدها وتحليل حفرياته . لسببين بسيطين :

الاول : لأن الرواية ـ وهي شأن تاريخي تعتبر أساسا لكل ماله علاقة بالاسلام .
من فقه واصول وكلام وتفسير ولغة و . . .

فالقرآن وهو أهم مصدر في الثقافة الاسلامية لم يكن يهم الأجيال فيما لو كانت الرواية التاريخية لاأهمية لها على المستوى العلمي . فالقرآن وصل عبر الرواية والمصاحف المعمول بها اليوم تعتمد على رواة تاريخيين . هذا بالاضافة الى السنة المدونة التي ابتدأت بالرواية ولازالت . فالتاريخ نافذة ضرورية لامهرب من أحكامها .

الثاني : لأن الاسلام كان دائما يوجه الى فتح نافذة التاريخ للوقوف عند تجارب

الامم ، واستخلاص العبرة منها بمايصلح لإفادة الحاضر والمستقبل .

والقرآن يتسع لفيض من تلكم الآيات التي تحث على تدبر الماضي وقراءته قراءة تاريخية منتجة ، ويستخدم كلمتين في شد الناس الى التاريخ ويركز كثيرا على أحداهما .

والكلمتان هما : الماضي . والماقبل .

ففيما يتصل بالماضي ، يذكر القرآن آيتان :

﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين ﴾[1] .

﴿ وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾[2] .

وربط كلمة ماضي بالأولين ، في حين استخدم عبارة (ماقبل ، من قبل .) كثيرا . إنه لايعتبر الماضي أمرا غابرا ، خصوصا في مقام الحديث عما يفهم منه حديث عن السنن الاجتماعية . فانه يستخدم عبارة ماقبل ، او من قبل . ليبين بان المسألة لها صلة بكل أطوار التاريخ . وبأن الحدث الواقع في الماضي هذا له امتداداته المنطقية على الحاضر والمستقبل . ومن هنا ، يبين بان النظر الى الماضي وهو نظر في الحاضر والمستقبل . نظرة من الخلف . وذلك هو أرقى مبدأ في فلسفة التاريخ . وأهم قاعدة في منهجه .

يقول تعالى : **﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾**[3] .

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[4] .

﴿ وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما ﴾[5] .

﴿ ولايكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل ﴾[6] .

---

(١) ـ سورة الزخرف (آية ٨) .
(٢) ـ سورة الأنفال (آية ٣) .
(٣) ـ سورة الأحزاب (آية ٣٨) .
(٤) ـ سورة الأحزاب (آية ٦٣) .
(٥) ـ سورة الفتح (آية ١٦) .
(٦) ـ سورة الحديد (آية ١٦) .

﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات ﴾[7] .

بعد هذا كله لم يعد مايحجب الانسان الباحث حقيقة النظر في تاريخ الامم لفهم طبيعة مايجري في الحاضر . اذ ليس الحاضر الا امتداد لذلك الماضي مأسور بحباله مثقل بأوزاره .

لقد أحدث الاسلام في بداية الدعوة قطيعة تاريخية بكل ماسبق من جهالات ولكننا لم نفز نحن بكتاب يحدث بيننا وبين مارزح به تاريخنا ، قطيعة تجعلنا نرتبط مباشرة بالاسلام المحمدي مباشرة وندخل في اجواء النص بدون عوائق .

---

(٧) ـ سورة آل عمران (آية ١٨٤) .

لماذا ابن خلدون ؟

انتقينا من بين المؤرخين ، إبن خلدون ، كنموذج لدراساتنا عن أزمة التاريخ والمؤرخين ، الذين تعاطوا بشكل سلبي مع كثير من الوقائع التاريخية . وابن خلدون هو مؤرخ له ميزاته المعروفة .

فهو رائد العقلانية التاريخية ورائد فلسفة التاريخ الاسلامي . ولأنه يشكل نموذجا للمؤرخ المغربي الذي تميز بموقفه من الإمامة والائمة . ولعل الاستاذ اسد حيدر صاحب الكتاب النفيس « جعفر الصادق والمذاهب الأربعة » هو الكاتب المشرقي الوحيد الذي انتبه الى بعض من تلك الفلتات الناصبية .

وعلى أساسها قام بكتابة مؤلفه العملاق حول الامام الصادق .

ان ابن خلدون ، من المؤرخين الذين لايحتفل بهم في أمور التاريخ الاسلامي الموثوق ، ذلك انه بالاضافة الى اعتباره ناقلا عن المؤخرين . فان هموما فلسفية كثيرة كانت توجه ابن خلدون في تأويل وقائعه . وأهدافا ايديولوجية اخرى كانت تفرض عليه ضروبا من القراءات المتهافتة في وقائع الماضي . ولأنه مؤرخ بعيد عن اهتمام المشارقة . وكان قد عاش في احضان سلاطنة المغرب . وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يكن سوى ناقلا للأحداث . معتمدا على مؤرخين سابقين له أمثال إبن جرير الطبري ، واليعقوبي ، والمسعودي ، الا انه حاول التصرف في تلك الاحداث المنقولة والاختصار فيها بشكل يسيء الى حقيقتها . وكل ذلك استجابة لرغبات مذهبية جامحة كانت تتحكم في ذهنية إبن خلدون وأسلوبه في التأريخ .

تقوم ميزة التاريخ الخلدوني على أساس ابداعه في مجال تطور العمران ونشوء الدول ، وما إليها من أمور ، كان إبن خلدون فيها صاحب قصب السبق من بين جموع من المؤرخين وعلماء الاجتماع . وبذلك كان مكتشفا لقوانين تاريخية واجتماعية واقتصادية ، كانت أساسا في نشوء مذاهب وتيارات في العصور التي جاءت بعده . ان فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد ونظرية المادية التاريخية . كلها من اكتشافاته الاولى . وهذا مايجعل ابن خلدون متميزا عن باقي من سبقه أو عاصره في هذه الصناعة .

ومايهمنا هنا هو الجانب التاريخي من اختصاصه . حتى نقف عند اقواله في شأن الإمامة وتاريخ الصراع حول الخلافة ومجموعة وقائع اخرى . لنكتشف عناصر المناصبة فيها . ولنتبين مدى فرادته في هذا المجال . ولنوقف مصداقيته العلمية هذه المرة في محك التاريخ .

ابن خلدون ، المؤرخ !

اذا اخذنا ابن خلدون كمؤرخ بعيدا عن ابن خلدون الاجتماعي أو عالم الاقتصاد سنكتشف انفسنا أمام شخصية اخرى جديدة إنه ابن خلدون الذي لايختلف عمن سبقه من مؤرخي الخلفاء والمبررين للخلافة . شأنه في ذلك كمن احتضنهم البلاط ووسع عليهم في العطاء .

والذين درسوا ابن خلدون من هذه الزاوية ، اكتشفوا ذلك الانفصام في شخصيته ، واكتشفوا الأسلوب الآخر الذي كان يعتمده في الكتابة التاريخية ، وهو اسلوب موغل جدا في الجمود واللاعقلانية .

يعتقد هاملتون جيب ، وهو من دارسي ابن خلدون الكبار أن هذا الأخير ليس الا مثالا لمن سبقه من الفقهاء المتزمتين . فإبن خلدون في نظره « مجرد فقيه مالكي ،كان يهدف الى تبرير واقع الخلافة كما فعل قبله الماوردي والباقلاني والغزالي » .

ويعود ليوقف ابن خلدون في مستواه الحقيقي ، ردا على من رام المبالغة في تصوير استقلاله الفكري . « وان شئت ان اوضح هذا النقص الذي أشير اليه توضيحاً عاما قلت انه يكمن في الميل الى المبالغة في تصوير استقلال فكر ابن خلدون ، وأصالته وهو ميل ناشيء عن سوء فهم لنظرته وخاصة من حيث علاقتها بالمسائل الدينية »[٨] .

(٨) ـ راجع النظم والفلسفة والدين في الإسلام ، فصل الأصول الإسلامية في نظرية ابن خلدون السياسية / هاملتون جيب .

وقد بالغ إبن خلدون في تبرير واقع الخلافة حتى صوره أ . ف . غوتيه بكونه شخصية وقحة ،لاتعرف سوى حقوق القوة ، أو الوقيعة ، وعاجزة عن ان تدرك غير الطغيان[9] .

ليس المقصود من التوقف عند إبن خلدون ان نقدم للقارىء تحليلا عن حياته وكتاباته . وإنما نريد هنا التطرق مباشرة لطريقته في تناول الأحداث المتصلة بقضية الإمامة وأهل البيت وتاريخ الخلاف .

كانت اهتمامات ابن خلدون الأولى منصبة على الفلسفة بالدرجة الأولى والفقه واللغة . من جهة أخرى .

وكان العصر الذي عاش فيه يتميز باضطراب شديد ، خصوصا في منطقة المغرب والأندلس . فسقوط دول وقيام أخرى . يغير ويبدل من أحوال البلاد ويعيد الأمور صوب وجهة جديدة . فالأنصار اليوم هم الأعداء غدا . والأعداء اليوم يتحولون بفعل التحول والإنقلاب في الدول الى أنصار ووزراء . وكان هو ضحية لأعمال السياسة الفاشلة . اذ أنه قضى جل حياته متقلبا بين السجون والبلاط . وعلى امتداد المغرب الاسلامي ، كان إبن خلدون إما متآمراً أو متزلفاً . إلى أن تحول الى مسالم يعتزل السياسة ويميل الى العلم . والعلم الذي استهواه في نهاية رحلته ، كان هو التاريخ . من أجل تضمينه بتجربته والإفاضة عليه بما اكتسبه من خبرات . ومن هنا جاء مؤلفه الشهير « العبر » . والمتتبع لتاريخ إبن خلدون يدرك الأسباب التي جعلت ضحية النزعة الجبرية والتشاؤمية أحيانا . واهتمامه بالدول والعمران نشوءهما وزوالهما ، كل هذا كان انعكاسا لتجربته الطويلة والمرة .

وسوف نطلع على نص لإبن خلدون ، يؤاخذ فيه مناهج المؤرخين الذين جاء على اثرهم . ويعتبر نفسه صاحب الفضل في اكتشاف مايصلح للأخبار عن الماضي ، لكي نحاسبه على ضوء عقلانيته في مقام تناولنا لمسألة الإمامة والخلافة في تاريخه . يقول :

« ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على

(٩) ـ ابن خلدون ، أيف لاكوست ـ ترجمة ميشال سليمان .

ذلك المنوال ويحتذي منه المثال ، ويذهل عما أحالته الأيام من الاحوال ، فيحلبون الأخبار عن الدول ، وحكايات الوقائع في العصور الأول صوراً قد تجردت من موادها ، يكررون في موضوعاتها الأخبار المتداولة بأعيانها اتباعاً لمن عني من المتقدمين بشأنها ، ويغفلون أمر الناشئة في ديوانها ، ثم اذا عرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا محافظين على نقلها وهماً أو صدقاً ، لايتعرضون لبدايتها ولايذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها ،ولاعلة الوقوف عند غايتها ، فيبقى الناظر متطلعا الى اقتفاء أحوال مبادىء الدول ومراتبها ، مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها ،باحثا عن المقنع في تباينها أو تناسبها »[١٠] .

وكان مما وقع فيه ابن خلدون من مآزق انه كان يصطنع للسلاطين الذين تزلف لهم ، قصصا لارصيد لها من الواقع . كأن ينسب زعماء الدولة الحفصية الى عمر ابن الخطاب . كما جاء في قصيدته للخليفة ابي العباس (١٣٧٠ - ١٣٩٤ م) ، جاء فيها :

قوم أبو حفص اب لهم وما أدراك والفاروق جد أول

وكان الحفصيون ، قوما من البربر من قبيلة هنتاتة وهي جبال مصمودة ببلاد المغرب الأقصى . هذا وكثير مثله من أمثلة التزوير والتزييف التي كان يقوم بها ابن خلدون . وسكوته عن الكثير من الوقائع التاريخية حفاظا على سمعة السلطان . وتأويله لكثير من الاحداث . كما سنرى في مثال تأريخه لوقائع العهد الاول وعصر الفتنة ومسألة الخلافة .

(١٠) - المقدمة (ابن خلدون ص ٥) .

ابن خلدون وفاة الرسول (ص) وبدء الخلافة !

للسقيفة علاقة وثيقة بما جرى في حجة الوداع من تأمير علي (ع) على المسلمين ، والاعلان عن خلافته للناس . ولايمكننا فهم الوقائع التي جرت داخل السقيفة وخلفية اللعبة التي تمثلها حزب الشيخين هناك ، الا باستيعاب ماجرى قبل ذلك في الوصايا التي خلفها رسول الله (ص) ونبذها حزب الشيخين وتيار الاغتصاب من وراءه .

وحديث الغدير الذي يلخص حادثة التأمير بعد حجة الوداع ، أشهر لدى المؤرخين ورواة الحديث ، من نار على علم . فهو بلغ حدا من التواتر بات من الصعب على المحدثين تكذيبه بل كل مافي الأمر ان عمد بعض نواصبهم الى التحايل على ألفاظه ، وتأويله بشكل يسيء الى متنه ، ويتعسف على مضمونه . من أمثال ابن حجر في الصواعق المحرقة .

ودعنا الآن نتعرف على ماجرى في هذه الفترة . وأهم ماوقع فيها .

ذَكَرَ جماعة من المؤرخين والمحدثين انه لما انتهى الرسول (ص) من حجة الوداع وصل الى مكان اسمه « غدير خم » يقع على مقربة من الجحفة بناحية رابغ ـ بين مكة والمدينة ـ قام خطيبا فقال : « الست أولى بالمؤمنين من انفسهم ، قالوا بلى ، قال ، فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله »[11] .

---

(١١) ـ مسند أحمد (٢ / ١٩٥ و ٢٠٠ و ٢٠١) . ومستدرك الحاكم (٣ / ١٠٩ و ١١٠) . وتهذيب =

وعلى اثر ذلك نهض عمر وهو يقول لعلي (ع) « بخ بخ (هنيئاً) لك يا ابن أبي طالب اصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة »[١٢] .

لقد تواتر هذا الخبر ولم يتجاوز هذه الواقعة أحد من المحدثين أو المؤرخين حتى اولئك الذين عرفوا بنصبهم وكتبوا حوله الاسفار الا ابن خلدون فقد حاول القفز عليه وعدم الاشارة اليه على الرغم من أنه ذكر كل ماحدث في حجة الوداع ، وعلى الرغم من اطلاعه ونقله عن السابقين الذين ذكروه قبله . وذلك لاأحسبه الا ضغينه منه ، وتكلفا جلياً في نبذ مايعزز استحقاق أهل البيت (ع) وكل ذلك البتر والتصرف في الوقائع التاريخية كان ايضا بقصد خلق نوع من الانسجام بين نظريته حول الامامة والتاريخ . فإذا أورد حديث الغدير ، فان ذلك يناقض نظريته حول الامامة التي يرى فيها أمرا دنيويا يقوم على مصالح الناس ، ولامدخلية للنص فيها .

التهذيب (٧ / ٣٣٧) . والبداية والنهاية (٣ / ٢٠٩ ـ ٢١٤) . والصواعق المحرقة (٤٢) . مجمع الزوائد (٩ / ١٠٨ و ١١٠).والمصنف (٧ / ٤٩٦ و ٤٩٩).وأسعاف الراغبين (١٦٦).وغيرها من المصادر .

(١٢) ـ مسند أحمد (٤ / ٢٨١).وتاريخ بغداد (٨ / ٢٩٠).وكنز العمال (١٣ / ١٣٤ ح ٣٦٤٢٠) وذخائر العقبى (٦٨) . والمصنف (٧ / ٥٠٣) . وتذكرة الخواص (٣٦ و ٦٤) . والبداية والنهاية (٣ / ٢١٠).وفرائد السمطين (١ / ٦٥ و ٧١ و ٧٧).وشواهد التنزيل (١ / ١٥٧).ومناقب الخوارزمي (١٥٦).ومناقب ابن المغازلي (١٩).وينابيع المودة (١ / ٣١) .

في مسألة تجهيز جيش أسامة

سبق ان ذكرنا خبر تجهيز جيش اسامة واعتراض بعض الصحابة عن الذهاب مع اسامة ولم يكن احد من المعترضين على اسامة من غير اولئك الصحابة الذين رأوا فيه شابا صغير السن وهم شيوخ كبار وكان عمر متمسكا كما ذكرنا بعزل اسامة ، وبقي على تلك الحال حتى عهد ابي بكر ، حيث نهره هذا الأخير وأنبه .

وقد لعن الرسول (ص) كما تقدم كل متخلف عنه ، وبالتالي كل متقول في امارة اسامة . وابن خلدون لم ينف الحادثة ، بل أكد عليها وذكر ماقاله الرسول (ص) حول من تقول فيها :

وقد بلغني أن أقواما تكلموا في إمارة اسامة ، طعنوا في امارته لقد طعنوا في امارة أبيه من قبله وان كان ابوه لحقيق بالامارة ، وانه لحقيق بها انفروا فبعث أسامة ، فضرب أسامة بالجرف وتمهل[١٣] .

ولاأحسب ابن خلدون كان مدققا في الأمر . اذن لما كان ذكر هذا الحديث لما فيه من الطعن على عمر وأبي بكر وبعض الأصحاب . قال في مفتتح كلامه عن بعث أسامة :

« وتكلم المنافقون في شأن أسامة ، وبلغ الخبر بارتداد الاسود ومسيلمة »[١٤] .

(١٣) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٤) .

(١٤) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٤) .

اذاً ، فإبن خلدون يثبت ان المتقولين في امارة أسامة كانوا منافقين وسبق ان ذكرنا أن عمر وأبوبكر كانا من المتقولين فيها . بل إن عمر بن الخطاب بقي على تقوله في ذلك الى عهد أبي بكر . هذا علما أن التقول كان بخصوص حداثة سن أسامة وليس في موضوع البحث أصلا .

ويسترسل بن خلدون في تناقضه . لينتهي الى حادثة مرض النبي (ص) الذي تزامن مع إصداره على بعث أسامة . ولعن المتخلفين عنه . وقد اعترف ابن خلدون بأن الرسول (ص) خرج اليهم عاصبا رأسه من الصداع . ولكن سرعان مايورد كلاما جرى بين ابي بكر والرسول (ص) .

وذكر ان رسول الله (ص) قال بعد ان قال له ابوبكر : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا فقال :

« على رسلك ياأبا بكر ، ثم جمع أصحابه ورحب بهم وعيناه تدمعان ودعا لهم كثيرا »[١٥] .

قال ابن خلدون : ثم سألوه عن مغسله فقال : « الادنون من أهلي ، وسألوه عن الكفن فقال : في ثيابي هذه أو بياض مصر أو حلة يمانية . وسألوه عن الصلاة عليه فقال »[١٦] .

ولعل التناقض هنا واضح لاغبش فيه . فاذا كان ابن خلدون ينقل ان الرسول (ص) شدد على بعث اسامة ، ولعن من تخلف عنه . وقد أقر المؤرخون والمحدثون بوجود ابي بكر وعمر . في هذا الجيش وبأنهم معنيون باللعن ان هم تقولوا في امارة اسامة أو تخلفوا عنها . كيف اذن يستقبلهم الرسول (ص) وكيف يدعوا لهم ويرحب بهم . وهو من قام معصبا رأسه ،لاعنا المتخلفين من الصحابة عن جيش اسامة . ثم ان مايرومه ابن خلدون هو ان يبين عبر التدليس ـ ان ابا بكر كان الى جنب رسول الله (ص) ولم يشر الى ان ابابكر كان قد خرج الى منزله بالسنح ـ كما تقدم ـ بل سكت عن ذلك وربط حديثه مع رسول الله (ص) مباشرة بفقرة جديدة ثم سألوه عن مغسله .

---

(١٥) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٥) .

(١٦) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٥) .

وكان أولى بمؤرخ المغرب أن يقول ثم سأله ابوبكر ، بل في انتقاله من كلام ابي بكر الى صيغة الجمع دليل على غياب ابي بكر . فأهل السنة ردوا على أن يفردوا ابن ابي قحافة وعمر بن الخطاب في كل مقام اذا كانت له مشاركة فيه .

ومرد أهل السنة أن يتكلموا بصيغة الجمع في المواقع التي يحضرها ابوبكر وعمر اذا لم يكن هناك حضور مشرف لهما . كأن يتكلموا بصيغة الجمع في فراري أحد .

وفي من تقول في امارة اسامة . والحقيقة كما اثبتناها سابقا ان ابابكر لم يطل مكثه مع الرسول (ص) بل راح الى السنح[17] ولم يعد الا بعد موت النبي (ص) ثم لم يلبث أن لحق بالأنصار الى السقيفة برفقة عمرو ابوعبيدة وانهم لم يحضروا دفن النبي (ص) .

وفي هذا الفصل ، تطرق ابن خلدون الى حادثة يوم الخميس ، ولم يطل المكث عندها . لما تمثله من خطورة على مبناه المذهبي . قال : « وسألوه عمن يدخله القبر فقال : أهلي .

ثم قال : ائتوني بدواة وقرطاس ، اكتب لكم كتابا لاتضلون بعده فتنازعوا وقال بعضهم انه يهجر ، وقال بعضهم أهجر ؟ يستفهم ، ثم ذهبوا يعيدون عليه ، ثم قال :

دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني اليه » .

لقد مرّ ابن خلدون مرّ الكرام على هذه الحادثة ولاهو بمن يجهل قيمتها في فضح سريرة الباطل ولاهو بمن يستصغر قدرها على أولي الألباب . إنه يعرف رواة ذلك الخبر .

وهو من قراء البخاري والطبري اذ قال عنه :

« هذا أمر الجمل ملخص من كتاب ابي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به لسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة »[18] .

ولكنه لم يختر من وجوه الرواية الا ذلك الوجه الذي أورده المحدثون بتصرف

---

(١٧) ـ الطبري (٢ / ٤٤٠ و ٤٤١) . والكامل (٢ / ٣٢٢) .

(١٨) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٩٥) .

مقيت حيث يغيبون اسم عمر بن الخطاب وهو صاحب كلمة « يهجر » لنعرف كيف ان ابن خلدون كان يحرف على طريقته ويدلس ، ولايتوخى الوضع لأسباب سبق أن قلنا انها مذهبية محضة .

قال ابن عباس : يوم الخميس ومايوم الخميس ، اشتد برسول الله وجعه ، فقال : هلم اكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده ، فقال عمر إن النبي قد غلبه الوجع وعندكم كتاب الله ، فاختلف أهل البيت فلما اكثروا اللغو والاختلاف عندالنبي (ص) قال لهم قوموا عني ، فكان ابن عباس يقول : ان الرزية كل الرزية ماحال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم[١٩] .

وحسبك أن الاضطراب الذي نتج عن فعل التصحيف والتحريف ، ان الخبر جاء بصيغ مختلفة كلها تعكس تدخل اقلام التحريف لتجيير الحقيقة لصالح عمر . فمرة يجعلونها في صيغة الغائب : « وقال بعضهم » وهي الصيغة التي اختارها ابن خلدون . وهناك من جعلها بصيغة الاستفهام « أهجر » يستفهم ! وقد اخرج البخاري ، قال عمر : « ان النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم كتاب الله » بيد ان ابن خلدون سكت عن إسم عمر بن الخطاب ، وجاء بما يلبس على الناس . وبعد ذلك لم يتطرق لما جرى بعد سماعه (ص) اللغط من حوله . وبعد ان تلقت أذنه الشريفة كلمة « الهجران » حتى ادرك أنه لم يعد بعدها جدوى من الوصية . لأن الأمر بعدها سيكون اخطر . وسيكون السؤال ، هل ان كلام الرسول (ص) حق ناطق عن الوصي أم أن كلام الرسول (ص) فيه نوع من الهجر . واذا ثبت الهجر في قوله ذلك ، ترتب عليه ثبوته في كل اقواله . مما ينفي العصمة عنه . أو لم يحاول بعضهم النيل من عصمة النبي (ص) حتى يتمكن من تأويل بعض أقواله بما لايطابق حقيقتها . وسيكون الأمر بعدها أشد حرجا على الاسلام ، عندما يبدأ الطعن في النبوة ومقامها الشريف . فالأولى التضحية بالإمامة بدل النبوة ، لأن الامامة قد تعود مادامت هي امتداد للنبوة . أما لو أن الخلاف كان في النبوة ، للزم

---

(١٩) ـ الملل والنحل (٦) . والبداية والنهاية (٥ / ٢٢٧) . وطبقات ابن سعد (٢ / ٢٤٢) ومسلم (٣ / ٤٥٤ و ٤٥٥ ح ١٦٣٢ ـ ١٦٣٤) . وشرح النهج (٢ / ٥٤ و ٥٥) . وتاريخ الطبري (٣ / ١٩٢ و ١٩٣) . والكامل (٢ / ٣٢٠) .

الدور . ولكان من باب المستحيلات الدعوة الى الإمامة مجددا . وهذا ماجعل الامام علي (ع) في بداية الأمر يتجنب المواجهة خوفا على عودة الناس الى الشرك .

ان ابن خلدون انهى القصة بشكل سريع ، وقفز على كل ماجرى . ليقول :

« ثم ذهبوا يعيدون عليه ، ثم قال : دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه » .

السؤال الذي قد يطرحه كل لبيب على مؤرخ المغرب : لماذا طلب منهم ان يدعوه ، ولماذا يكون جوابه بتلك الصيغة التي يبدو فيها اليأس ممن حوله ؟ بعد ان كان قد حثهم على إحضار الدواة والقرطاس ؟ .

ابن خلدون سكت عن ذلك . لكن التواريخ التي سبقت ابن خلدون وأخذ عنها . وكذا أخبار المحدثين الذين حفظ لهم ابن خلدون . تذكر ان لغطا شديدا جرى في حضرة النبي (ص) على اثر طلبه احضار الدواة والقرطاس . وانه صلى الله عليه وآله وسلم غضب في وجه عمر لما صدر عن هذا الأخير . فقد ذكر الطبراني في الأوسط : « . . . . » فقال النسوة من وراء الستر : ألا تسمعون مايقول رسول الله (ص) قال ، قال عمر : فقلت إنكن صويحبات يوسف اذا مرض رسول الله عصرتن اعينكن ، واذا صحّ ركبتن عنقه ! قال : فقال رسول الله (ص) : « دعوهنّ فانهنّ خير منكم » .

وفي صحيح مسلم ، انه لما وقع الغوغاء ، وضج النبي (ص) قال أهله : لاينبغي عند النبي (ص) هذه الغوغاء ، فاختلفوا ،فقال بعضهم : احضروا ماطلب ، ومنع آخرون ،فقال النبي (ص) « ابعدوا » .

واذا حاولنا اكتشاف هؤلاء الذين خالفوا ، لن يكونوا الا عمر بن الخطاب ! .

ذلك ماذكره احمد بن حنبل في مسنده ، مع تلطيف وتهذيب للعبارة بما لايخدش في عمر بن الخطاب ولايكشف عن سوء أدبه مع الأنبياء . قال عن جابر « ان النبي (ص) دعا عند موته بصحيفة ليكتب كتابا لايضلون بعده ، فخالف عمر بن الخطاب حتى رفضها » .

وفي نقلهم الحديث بالمعنى ، دلالة على قمة مابلغه كلام عمر من وقاحة تدل على ازدراءه واستهتاره بطلب النبي (ص) وانحطاط اسلوبه مع من جعل الله

الوصي على لسانه .

وإذا أردنا الإطناب في تلك الرزية ، فلنذكر ماجاء في شرح النهج لابن ابي الحديد وغيره ، حول ماجرى بين عمر وابن عباس ، عندما انتهى عمر الى القول :

« لقد كان من رسول الله (ص) في أمره ذرو[20] من قول ـ اي في امر علي (ع) ـ » لايثبت حجة ولايقطع عذرا ، ولقد كان يربع في أمره وقتا ما ، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك ، إشفاقا وحيطة على الاسلام ، لا ، ورب هذه البنية ، لاتجتمع عليه قريش ابدا ، ولو وليها لانتفضت عليه العرب من اقطارها ، فعلم رسول الله اني علمت مافي نفسه فأمسك ،[21] وأبى الله إلا امضاء ماحتم »[22] .

وهذا يعني ان الرسول (ص) سكت لما علم موقف عمر من علي (ع) وانه رافض لخلافته ومنازعه إياها . وهذا الكلام كله الذي جرى في حضرة الرسول (ص) لم يورده بن خلدون مخافة على فاروقه من تقريع التاريخ . ومخافة على مذهبه من الافلاس .

ولعمري ، ان الفضيحة هذه المرة ظهرت على لسان ابن خلدون . وتجبره على النطق بما يشوه تدبير المحرفين . قال : « وأوصى بثلاث : ان يخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأن يجيزوا الوفد كما كان يجيزهم ، وسكت عن الثالثة أو نسيها الراوي » .

هذه العبارة تستبطن أمرا خطيرا ، سكت عنه الرسول (ص) كما ذكر ابن خلدون . ولكن الأمر يختلف عما دبره . فالراوي هو الذي نسيها . وابن خلدون لم يذكر الراوي ولا خلفية النسيان والسكوت . ابن خلدون الذي نعى على المؤرخين السابقين تقليدهم في نقل الأخبار .

هاهو لم يستخدم ملكته في تحليل أحوال العمران . في اكتشاف الأيدي التي

---

(٢٠) ـ ذرو : طرف

(٢١) ـ قلت : ومن إمساك الرسول أن غضب وأخرجهم عنه .

(٢٢) ـ شرح النهج (١٢ / ٢١) .

عبثت بهذا الخبر . والعقول التي أسرفت في تحريف معناه . والخبر كما ذكره البخاري في كتاب الجهاد والسيرة من صحيحه هو . قال : ونسيت الثالثة .

غير أن ابن خلدون زاد « وسكت عن الثالثة » . انتقاء لما يقوي مبناه ويسنده . والسكوت في الحقيقة كان من الراوي لا من الرسول (ص) . والظاهر انه قاله بعد أن منع احضار الدواة والقرطاس عمر . وفي حضرة من أهل البيت ، والرواية هنا كانت عن ابن عباس .

فتح باب ابي بكر ، وذكر الخلة !

أقحم بن خلدون أثناء حديثه بـ « مرض الرسول » كثيراً من المرويات المزيفة إمعانا منه في التلبيس على القارىء . قال : قال الرسول (ص) : « . . . » ثم قال : سدّوا هذه الابواب في المسجد الاّ باب أبي بكر ، فإني لاأعلم امرءاً أفضل يدا عندي في الصحبة من أبي بكر . ولو كنت متخذا خليلاً لإتخذت أبا بكر خليلا . ولكن صحبته إخاء وإيمانا حتى يجمعنا الله عنده .

إن المتعمق في مباحث التاريخ الاسلامي . والمستوعب لأسفار الأخبار والأحاديث والسيرة . يدرك مقدار التحايل في سرد ابن خلدون لهذه الوقائع . فهي من جهة ، قد تكون وقائع متفرقة ، فيأتي ليرقعها بشكل يجعلها متكاملة ومنسجمة . ومن جهة ثانية يعمل على انتقاءء الأخبار المنسجمة مع مايقوم به من ترقيع . حتى وان كان الخبر بلغ عند المحدثين والمؤرخين درجة من الشذوذ يدعو الى الترك ! .

وهذه العبارات التي أتى بها بن خلدون ، هي من ذلك القبيل . والحبكة التي جمع فيها بين أكثر من واقعة متفرقة هي من تلك الحبكات المغرضة التي يبتغي بها صرف الناس عن موارد الحقيقة .

ان حديث الخلة التي اورده هنا لايستقيم له سند فهو من موضوعات البكرية وكيف يكون الرسول (ص) في نهاية حياته يقول لأبي بكر « لو كنت متخذا خليلا لإتخذت ابا بكر خليلا » .

وقد سبق وأن قال قبلها :

« الا اني أبرأ الى كل خليل من خلة »[٢٣] .

كيف يكون الرسول يتمنى لو يكون ابوبكر خليلا له ، وهو يبرأ من ذلك قبل موته بخمسة أيام .

كان ذلك من وضع البكرية لقاء ماذكر من أحاديث في فضل علي (ع) واخوته التي شهدت بها الأخبار عندما قال له الرسول (ص) « انت اخي في الدنيا والأخرة »[٢٤] في حادثة الإخاء الشهيرة . ولعل ذلك كان واضحا لإبن خلدون . وهو ممن لم يذكر ماجرى بين رسول الله (ص) وعلي بن أبي طالب (ع) من إخاء . بعد أن ذكر حادثة الإخاء كلها .

وبعد ذلك كله يحسن أن نذكر ابن خلدون بهذا السؤال : كيف يجري الحديث معه في تلك اللحظة التي لم يكن الرسول (ص) يطيق فيها رؤيتهم ، بعد أن تخلفوا عن جيش أسامة ولعنوا بالتخلف عنه . فتأمل مليّا يرحمك الله ! .

أما بالنسبة لحديث : « سد الابواب » فهذا مما روي في فضائل علي (ع) فتم تحريفه من قبل جماعة البكرية . وراج في زمن بني أمية . وقد كانت تلك فضيلة لعلي (ع) قبل وفاة الرسول (ص) وتعارف عليها الصحابة منذ ذاك العهد . وقد جاء إبن خلدون بهذا الخبر على شذوذه ، انتصارا للبكرية وتهميشا لعلي (ع) .

وحديث سد الأبواب مما اشتهر عند المحدثين في شأن علي (ع) وقد روي كالتالي :

ان النبي (ص) أمر بسد الابواب الا باب علي (ع) فتكلم الناس ، فخطب رسول الله (ص) فحمد الله ، واثنى عليه ، ثم قال : « اما بعد ، فإني أمرت بسد هذه الابواب غير باب علي ، فقال فيه قائلكم ، والله ماسددت شيئا ولافتحته وانما أمرت بشيء فاتبعته »[٢٥] .

---

(٢٣) ـ مسلم (٥ / ٩) .

(٢٤) ـ فرائد السمطين (١ / ١٢٦).وكفاية الطالب (١٩٢).والترمذي (٥ / ٦٣٦ ح ٣٧٢٠).وكنز العمال (١١ / ٥٩٨). ومصابيح السنة (٤ / ١٧٣) .ومناقب المغازلي (٣٧) .

(٢٥) ـ مسند أحمد (٤ / ٣٦٩) . وخصائص النسائي (٥٥) . والحاكم (٣ / ١٢٥) والترمذي (٥ / ٦٤١ ح ٣٧٣٢) .والصواعق المحرقة (١٢٤) .

وهناك مختلف الطرق التي روي بها هذا الحديث :

١ ـ قال زيد بن ارقم ، « كان لنفر من اصحاب رسول الله ابواب شارعة في المسجد فقال رسول الله (ص) سدوا هذه الأبواب الا باب علي فتكلم الناس في ذلك فقام رسول الله (ص) فحمد الله واثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني أمرت بسد هذه الابواب الاّ باب علي فقال فيه قائلكم واني والله ماسددت شيئا ولافتحته ولكني امرت بشيء فاتبعته »[٢٦] .

٢ ـ اخرج البزار ، « ان رسول الله (ص) أخذ بيد علي فقال إن موسى سأل ربه أن يطهر مسجده بهارون واني سألت ربي أن يطهر مسجدي بك ، ثم ارسل الى ابي بكر أن سد بابك فاسترجع ثم قال سمعا وطاعة ثم أرسل الى عمر ثم أرسل الى العباس بمثل ذلك ثم قال (ص) ماأنا سددت أبوابكم وفتحت باب علي ولكن الله فتح بابه وسد أبوابكم »[٢٧] .

٣ ـ قال رسول الله (ص) : « ياعلي لايحل لأحد أن يجنب في المسجد غيري وغيرك »[٢٨] .

٤ ـ قال عمر بن الخطاب : « لقد اعطي علي ابن ابي طالب ثلاث خصال لأن تكون لي واحدة منها أحب اليّ أن أعطي من حمر النعم ، زوجته فاطمة بنت رسول الله وسكناه المسجد مع رسول الله محل له مايحل فيه والراية يوم خيبر »[٢٩] .

ودعنا نلقي نظرة عما ذكره ابن ابي الحديد في شأن بعض المرويات التي وضعتها البكرية في مقابل ماجاء عن علي (ع) « فلما رأت البكرية ماصنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث ، نحو : لو كنت متخذا خليلا فانهم وضعوه في مقابلة حديث الاخاء ونحو سد الابواب فانه لعلي (ع) فقلبته البكرية الى ابي بكر »[٣٠] .

---

(٢٦) ـ كنز العمال (١١ / ٦١٨ ح ٣٣٠٠٤). ومجمع الزوائد (٩ / ١١٧) .

(٢٧) ـ كنز العمال (١٣ / ١٧٥ ح ٣٦٢١) .

(٢٨) ـ الترمذي (٥ / ٦٤٠ ح ٣٧٢٧). وكنز العمال (١١ / ٦٢٦ ح ٣٣٠٥٢) .

(٢٩) ـ المستدرك (٣ / ١٢٥). والصواعق (١٢٧) .

(٣٠) ـ شرح النهج (١١ / ٤٩) .

أقول وكيف يكون (ابوبكر) خليلاً له وقد رده عن تبليغ براءة وأعطاها علياً (ع) ثم قال :

امُرت ألا يؤدي عني إلا أنا أو أحد مني فلعلها القاصمة التي ايقضت حفيظة البكرية فراحت تبحث عن مقابل لهذه الفضيلة .

ان ابن خلدون يردف حديث الخلة بزيادة ، قائلا ولكن صحبته إخاء وايمان حتى يجمعنا الله عنده . فالرسول (ص) هنا يعتبر صحبته اخاء . وهذا لاوجه له فيما كان في حادثة الايخاء . فلوكان الأمر كما أورد ابن خلدون . اذاً لكان الرسول (ص) أولى بأن يتخذ له في حادثة الايخاء أبابكر أخا ، تعويضا عن تلك الخلة التي تمناها له .

ولكن ابن خلدون في حديثه عن المؤاخات ذكر بأن الرسول (ص) آخى بين ابي بكر وخارجة ابن زيد . ولقد جاء في الأخبار بتواتر ، « أن رسول الله (ص) آخى بين الناس ، وترك عليا حتى بقي آخرهم ، لايرى له أخا فقال : يارسول الله (ص) آخيت بين أصحابك وتركتني ؟ فقال : انما تركتك لنفسي ، انت أخي ، وأنا اخوك ، فإن ذكرك أحد ،فقل :

أنا عبدالله وأخو رسوله ،لايدعيها بعدك الا كذاب »[٣١] .

وكذلك لو كان الأمر كذلك ، اذن لكان أولى بأبي بكر أن يفوز بأخوة الرسول (ص) وبالمنزلة كما جاء في صحاح السنة أما ترضى أن تكون مني بمنزل هارون من موسى الا انه لانبي بعدي[٣٢] .

هذه كلها قرائن تصرف الخلة عن أبي بكر . وتكشف عن أسباب التحريف والتزوير الذي قامت به البكرية وسار عليه العامة . وابن خلدون لايجهل الصحاح . وهو الفقيه المالكي المتطرف . كيف انه يتجاوز كل هذه الأخبار المتواترة ليركز على ماشذ وخالف . وذاك ضغن واضح منه .

---

(٣١) ـ فرائد السمطين (١ / ٢٢٧ و ٢٤٨) . والمصنف (٧ / ٤٩٧) . والمستدرك (٣ / ١١٢) والتذكرة (١٠٣) وكتاب السنة (٥٨٤).وشرح النهج (٢ / ٦٠ و ٦٠ / ١١) .

(٣٢) ـ مسلم (٥ / ٢٣) . والبخاري (٣ / ١٣٥٩ ح ٣٥٠٣) . والترمذي (٥ / ٦٤١ ح ٣٧٣١) والخصائص (٦٠) .

صلاة ابي بكر

« ثم ثقل به الوجع وأغمي عليه ، فاجتمع اليه نساؤه وبنوه وأهل بيته والعباس وعلي ، ثم حضر وقت الصلاة فقال : مروا أبابكر فليصلِّ بالناس فقالت عائشة : أنه رجل أسيف لايستطيع أن يقوم مقامك فمر عمر ، فامتنع عمر وصلى أبوبكر . ووجد رسول الله (ص) خفة فخرج فلما أحسّ به ابوبكر تأخر فجذبه رسول الله (ص) وأقامه مكانه ، وقرأ من حيث انتهى ابوبكر . ثم كان ابوبكر يصلي بصلاته والناس بصلاة أبي بكر ، قيل صلوا كذلك سبع عشرة صلاة ، وكان يدخل يده في القدح وهو في النزع فيمسح وجهه في الماء ويقول : اللهم أعني على سكرات الموت . فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج الى صلاة الصبح عاصبا رأسه ، وأبوبكر يصلي فنكص عن صلاته ورده رسول الله (ص) بيده ، وصلّ قاعداً على يمينه ، ثم أقبل على الناس بعد الصلاة فوعظهم وذكرهم ، ولما فرغ من كلامه قال له ابوبكر : إني أراك قد أصبحت بنعمة الله وفضله كما نحب ، وخرج الى أهله في السنح ، ودخل رسول الله (ص) في بيته فاضطجع في حجرة عائشة ،

ودخل عبدالرحمن بن ابي بكر عليه وفي يده سواك أخضر ، فنظر اليه وعرفت عائشة أنه يريده قالت :

فمضغته حتى لان وأعطيته إياه فاستن به ثم وضعه ، ثم ثقل في حجري فذهبت انظر في وجهه ، فاذا بصره قد شخص وهو يقول : الرفيق الأعلى من الجنة

فعلمت أنه خيّر فاختار »[٣٣] .

هذه الفقرة التي ختم بها ابن خلدون حديثه عن مرض الرسول (ص) تنطوي على حبكة مقصودة وتناقضات مفضوحة . فأما الحبكة فهي تكمن في عملية الانتقاء للخبر الواحد الذي تكاثرت وجوهه كما سنرى . وتكمن من جهة اخرى في جعل الامور كلها تدور بين يدي أسرة ابن ابي قحافة .

فهناك أبوبكر الذي أمره بالصلاة على الناس ، وهناك عائشة التي اضطجع في حجرها وهناك عبدالرحمن بن أبي بكر الذي دخل بسواك أخضر . هناك تعلق شديد أبداه رسول الله (ص) بهذه الاسرة التيمية . فهو يرتاح الى حجر بنت أبي بكر ويرتاح لصلاة أبيها ،ويريد سواك أخيها عبدالرحمن ليستنّ به . وانها لعمري من روائع البكرية وشطحاتها . وتتأكد لنا الحبكة هنا في أن ابن خلدون لم يحكِ لنا عما قام به أهل بيت الرسول (ص) أين كان علي (ع) وأين كانت فاطمة (ع) والحسنان (ع) في هذا الحدث رغم انه لم يمنعهم عنه جرف ولاسنح !! .

وماهو ذلك العهد الذي عهد به إلى علي (ع) في آخر عمره . وماذا جرى بينه وبين بضعته الطاهرة ، التي أحبها وفضلها على نساء العالمين . فالحبكة هنا مقصودة وواضحة في ثنايا الخبر .

أما التناقض المفضوح فهو في ماذكره ابن خلدون في مفتتح كلامه عن مرض الرسول (ص) قال : قال رسول الله (ص) « ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ماعنده ، فاختار ماعنده . وفهمها أبوبكر فبكى فقال : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا » .

فالكلام هنا واضح لايحتاج الى تأويل . ان ابابكر أدرك بوعيه الثاقب ان الرسول (ص) مقبل على الوفاة . وأنه معرض لها ابتداء من تلك الساعة وفي أي لحظة من تلكم اللحظات . غير أنه في مختتم كلامه ، قال :

قال له ابوبكر : « اني أراك قد اصبحت بنعمة الله وفضله كما نحب ، وخرج الى أهله في السنح »[٣٤] .

(٣٣) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٦) .

(٣٤) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٦) .

فكيف يراه بخير وقد عصب رأسه وهو كما ذكر بن خلدون ، « كان يدخل يده في القدح وهو في النزع فيمسح وجهه في الماء ويقول : اللهم أعني على سكرات الموت . فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج الى صلاة الصبح عاصبا رأسه » .

ان الرسول (ص) كان يعاني حرارة الموت ، وانه في اللحظات الأخيرة من عمره . ثم يعود فيورد كلام أبي بكر « أراك أصبحت بنعمة الله » فآثار الترقيع واضحة للّبيب ، وعملية الاختلاق ظاهرة في تدليس بن خلدون رضوخاً للرغبة المذهبية والنزوع البكري . وبعد ذلك لابدّ أن نشير إلى ملاحظتين في هذا النص المختلق :

الملاحظة الاولى ، حول صلاة أبي بكر .

الملاحظة الثانية ، حول موت النبي (ص) وهو في حجر عائشة .

الملاحظة الاولى :

هناك مايجلي اهتزاز النص من أساسه في مسألة صلاة ابي بكر . لقد ثبت في الأخبار ان عليّا (ع) لم يبرح رسول لله (ص) طيلة فترة مرضه . وانه بقي ملازما له حتى انتهى من دفنه . وهو لولاذلك الانشغال لما فاته أمر السقيفة . اين اذاً كان موقعه من تلك الصلاة وهل كان يصلي بصلاة ابي بكر أم بصلاة الرسول (ص) ولماذا لم يذكروا وجوده في هذه الصلاة ، التي أتاها الرسول (ص) وهو متكىء على العباس والامام علي (ع) ان البكرية التي اصطنعت هذه الأحاديث تريد ان تجعل ابابكر ذا حضور مكثف في كل المواطن . في وفاة الرسول وفي السقيفة وهذا أمر مستحيل . فأبوبكر دعي لتجهيز جيش أسامة وعدم التخلف عنه .

وكان الرسول (ص) حسب ماجاء في الأخبار متشبثا بانفاذ جيش اسامة حتى اليوم الذي توفي فيه كما سننقل في النص الآتي وأن طيلة السبع عشرة صلاة لم يكن الرسول (ص) يطيق رؤية من انفذهم في جيش اسامة وكان يزجرهم كلما ظهر له أحدهم . وكانوا طيلة ذلك الوقت معسكرين بالجرف خارج المدينة .

فلما كان يوم الاثنين لأربع ليالٍ بقين من صفر سنة احدى عشر من هجرة

رسول الله أمر رسول لله (ص) الناس بالتهيؤ لغزو الروم فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد . فلما كان يوم الاربعاء بدأ به المرض فحم وصدع فلمّا اصبح يوم الخميس عقد لإسامة لواءه بيده فخرج وعسكر بالجرف . وذكر صاحب الطبقات :

« وخرج الى معسكره فأمر الناس بالرحيل ، فبينما هو يريد الركوب اذا رسول امه ام ايمن قد جاء يقول : إن رسول الله يموت فاقبل وأقبل معه عمر وأبوعبيدة فانتهوا الى رسول لله (ص) وهو يموت فتوفي حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول » .

اذن فالرواية تثبت لنا ان هناك غياب كامل لأبي بكر من أحداث الموت . وأنه لم يقضِ معه الوقت الكافي لإجراء حديث معه بذلك الشكل ، والصلاة بالمسلمين لغاية سبعة عشر صلاة . فهناك باختصار قرائن تثبت غياب أبي بكر عن كل ماجرى في بيت النبي (ص) وانه لم يصل بالناس سبعة عشر صلاة حتى وفاة النبي (ص) وهي :

١ ـ أبوبكر كان من المعسكرين بالجرف منذ يوم التجهيز الخميس إلى الاثنين ، أي عند رجوع الناس من الجرف .

٢ ـ في تلك اللحظات المعدودة التي بقيت من يوم الاثنين ، كان أبوبكر بالسنح .

ان وجود أبي بكر في حضرة الرسول (ص) يصلي بالمسلمين ، يعني أن أبابكر لم يكن حاضرا بالجرف .

وهذا يدل على أنه كان من الذين تخلفوا عنه . فكيف يسمح له الرسول (ص) بذلك وهو قد لعن كل متخلف عنه . فتأمل .

لقد أورد ابن خلدون خبر صلاة أبي بكر . وانتقى وجها من وجوه الرواية التي تعددت حبكاتها بشكل متناقض ، واختار منها ماهو مناقض ، الرسول (ص) صلى عن يمينه وهو يصلي عن يساره . فيصلي هو بصلاة النبي (ص) والمسلمون يصلون بصلاة أبي بكر . وهذه بأمي وأبي ، هي الفوضى الفقهية التي اتصفت بها البكرية المختلقة لهذه الواقعة . اذ كيف يأتم ابوبكر بالرسول (ص) من جهة اليسار .

وكيف ان المسلمين عزفوا عن الإئتمام برسول لله (ص) وصاروا على هذه الواسطة الثقيلة والمملة . بأي مقياس فقهي هي شرعية هذه الصورة من الصلاة .

أما فيما يخص متن الخبر فحدث ولاحرج . لقد ورد بطرق مختلفة جدا ومتناقضة ، فمرة يذكرون ان عائشة قالت لبلال مر ابا بكر فليصل بالناس ، وقالت حفصة مروا عمر فليصل بالناس . مرة يذكرون ان عمر صلى ثم سمع رسول الله صوته ، فغضب وقال : مروا أبابكر فليصل بالناس . وغيرها من الطرق المتعارف عليها عند محدثي العامة . والتي تتناقض في وجوهها الى حد الغثيان ! .

لكن ابن خلدون ـ وتلك عادته ـ انتقى من ذلك الخليط المتضارب ، مايصلح لحبكته من دون أن يثير بحوافر التدليس نقع الشبهات . وكانت عائشة كما ثبت في الأخبار هي راوية هذا الحديث اضافة الى مادعته من وفاة رسول الله ورأسه في حجرها ، أو بين سحرها ونحرها ، وكان ابن خلدون على علم بكل هذه الاختلاقات . لكن منطق الانتقاء ضروري لكل من همّ بحبك الاحداث التاريخية وتزويرها .

الملاحظة الثانية

لامجال لمناقشة الاسباب التي دعت عائشة الى ادعاء وفاة الرسول (ص) في حجرها فإن عداوتها للإمام علي (ع) وهي من ألبت عليه الوفاً من المنافقين وقد أحصى عليها التاريخ تلك الضغائن الكثيرة لبني هاشم ، لكن قضيتنا هنا ترتبط بالمؤرخ المحرف للأحداث .

فإبن خلدون جاء بهذه الرواية كعادته في الانتصار لتيار البكرية .

ودعنا نرى ـ هنا ـ هل ان وفاة الرسول (ص) كانت كذلك في واقع الأمر ؟ .

قالت ام سلمة : « والذي أحلف به ان كان علي لأقرب الناس عهدا برسول الله (ص) الى ان قالت : فأكب عليه رسول لله (ص) وجعل يسارّه ويناجيه ثم قبض رسول لله (ص) من يومه ذلك فكان علي اقرب الناس عهدا به »[٣٥] .

---

(٣٥) ـ مستدرك الحاكم (٣ / ١٣٨) .

وعن جابر بن عبدالله الانصاري ان كعب الاحبار سأل عمر فقال : ماكان آخر ماتكلم به رسول لله (ص) فقال عمر : سل عليّا فسأله كعب فقال علي : اسندت رسول لله (ص) الى صدري فوضع رأسه على منكبي فقال : الصلاة ، الصلاة ، قال كعب كذلك آخر عهد الانبياء وبه أمروا وعليه يبعثون .

قال كعب فمن غسله ياأمير المؤمنين ،فقال عمر سل عليّا ، فسأله فقال : « كنت أنا أغسله »[٣٦] .

وقيل لابن عباس : أرأيت رسول لله (ص) توفي ورأسه في حجر أحد ؟ قال : نعم توفي وإنه لمستند الى صدر علي ، فقيل له : ان عروة يحدث عن عائشة انها قالت : توفي بين سحري ونحري ، فأنكر ابن عباس ذلك ، قائلا للسائل : اتعقل ؟ والله لتوفي رسول لله (ص) وإنه لمستند الى صدر علي وهو الذي غسله[٣٧] .

وفي رواية اخرى عن ام سلمة قالت : والذي أحلف به ان كان علي لأقرب الناس عهدا برسول لله (ص) عدناه غداة وهو يقول : جاء علي ؟ جاء علي ؟ مرارا فقالت فاطمة كأنك بعثته في حاجة قالت : فجاء بعد ، فظننت ان له حاجة ، فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب ، قالت ام سلمة : « وكنت من أدناهم الى الباب ، فأكبّ عليه رسول لله (ص) وجعل يسارّه ويناجيه ، ثم قبض (ص) من يومه ذلك ، فكان أقرب الناس به عهدا »[٣٨] .

وحسبك من ذلك مادلّ عليه الحال في حياة الرسول (ص) اذ كان له مجلس خاص مع علي (ع) .

وقد ذكروا انه كان كثيرا مايخلو بعلي يناجيه . وقد دخلت عائشة عليهما وهما يتناجيان فقالت لعلي : « ليس لي من رسول الله الا يوم من تسعة أيام أفما تدعني ياابن ابي طالب ويومي . فأقبل رسول الله عليها وهو غضبان محمر الوجه »[٣٩] .

---

(٣٦) ـ طبقات ابن سعد (٢ / ٢٦٢) .
(٣٧) ـ طبقات ابن سعد (٢ / ٢٦٣) .
(٣٨) ـ المستدرك (٣ / ١٣٨) والتذكرة (٤٦) .
(٣٩) ـ شرح النهج (٦ / ٢١٧) .

وقال الامام علي (ع) : « كان لي من رسول الله (ص) مدخلان : مدخل بالليل ، ومدخل بالنهار . فكنت اذا أتيته وهو يصلي تنحنح » .

كيف بعد كل هذا الحرص على مناجات علي (ع) وهو لايزال بين أظهرهم . كيف يزهد في وجوده ، وهو مقبل على الغياب . هل يعقل ذلك عند كل ذي لب ، رشيد ! .

وماكان ذلك جهلا من ابن خلدون في حفظ الاحداث . ولاغباء منه في انتقاء الأخبار ، انها حبكة مدبرة ونزعة مستترة . وذلك عندما ذكر أبا بكر في دفن الرسول (ص) فقال :

واختلفوا أيُدفَن في مسجده أو بيته ، فقال ابوبكر : سمعته (ص) يقول : « ماقبض نبي الا ويدفن حيث قبض . فرفع فراشه الذي قبض عليه وحفر له تحته »[٤٠] .

وهذه واحدة من كبريات الهناة في مشروع التدليس الخلدوني وقد سبق ان ذكرنا عدم حضور أبي بكر وعمر في تغسيل الرسول (ص) ودفنه وقد جاء في الأخبار مايسند ذلك .

اذ بينما علي (ع) دائب في جهاز رسول الله ، فمضيا ـ عمر وأبوبكر ـ مسرعين نحوهم فلقيا أباعبيدة بن الجراح فتماشوا اليهم ثلاثتهم[٤١] .

وذكر ابو ذؤيب الهذلي : « قدمت المدينة ولها ضجيج كضجيج الحاج اذا أهلّوا بالاحرام فقلت :

مه ؟ قالوا : قبض رسول الله (ص) فجئت الى المسجد فوجدته خاليا ، فأتيت بيت رسول الله (ص) فأصبت بابه مرتجا ، وقيل : هو مسجى . وقد خلا به أهله ، فقلت : اين الناس ؟ فقيل في سقيفة بني ساعدة صاروا الى الانصار »[٤٢] .

فكيف تهيأ للوضاعين ومصدقيهم ان ابابكر الذي سار الى السقيفة مع فاروقه

---

(٤٠) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٧) .

(٤١) ـ تاريخ الطبري (٣ / ٢١٩) .

(٤٢) ـ أسد الغابة (٥ / ١٨٩) والإستيعاب (٤ / ١٦٤٩) .

بعد ان غلق الباب دون الرسول (ص) وانطلقا الى السقيفة . كيف يحضر دفن الرسول (ص) ويقوم هو بالحفر والدفن ، فهل البكرية تريد لأبي بكر ان يكون له حضور سحري في كل واقعة في السقيفة والدفن ، في السنح والمرض ، في الجرف والصلاة ، هذا اسراف مبين ! .

لكن الحقيقة هي ان ابابكر وعمر انشغلا بمجالدة الناس وقهرهم على البيعة ، ولو لم يحضرا الدفن .

وقد سبق ان ذكرنا ماجاء في اخبارهما من ان « ابابكر وعمر لم يشهدا دفن النبي »[٤٣] .

كما جاء في الخبر انه « لم يله الا أقاربه ولقد سمعت بنو غنم صريف المساحي حين حفر لرسول الله (ص) وانهم لفي بيوتهم »[٤٤] .

أما الذي تولى دفنه فهو علي (ع) وأهل بيته لما جاء في طبقات بن سعد :

« ولي وضع رسول الله في قبره هؤلاء الرهط الذين غسلوه : العباس وعلي والفضل وصالح مولاه وخلّى أصحاب رسول الله بين رسول الله وأهله فولوا إجنانه » .

هذه كلها بداية لما سيحدث في سقيفة بني ساعدة . وابن خلدون من البداية يحضر طبخاته ، ويذري عليها من بهارات النصب مايعمق الجهل ويعمي الأبصار . ويدخل التاريخ في حالة من الخاووس (CAOS) .

---

(٤٣) ـ انظر كتابنا هذا (ص ١٢٦) .
(٤٤) ـ طبقات ابن سعد (٢ / ٣٠٤) .

خبر السقيفة

هناك ثلاثة امور نستفيدها مما سبق ذكره في تحليل أمر السقيفة .

اولا : انها مؤتمر فاقد للشرعية من حيث ترتبه على موقف مخالف ، وهو التخلف عن جيش اسامة .

ثانيا : أنها لم تكن بحضور جميع الصحابة فهي اذن ليست شورى .

ثالثا : منيت بمعارضة من قبل اعداد كبيرة من رموز الصحابة .

في ضوء هذه النقاط الثلاث التي استفدناها من خلال سردنا لأحداث السقيفة سوف نناقش ابن خلدون ، وهي الآن بمثابة فرضيات لمزاولة التحليل .

جاء في نص ابن خلدون حول السقيفة (« فأتوهم في مكانهم ذلك ـ يقصد ابوبكر وعمر وابوعبيدة ـ فأعجلوهم عن شأنهم (يقصدون الانصار) وغلبوهم عليه جماعاً وموعظة »)[٤٥] .

ان اول اطلالة على هذا النص الذي افتتح به صاحبنا حديث السقيفة ، يؤكد على الموقف النظري لابن خلدون من مسألة الامامة . وكذلك يؤكد على الواقع التاريخي الذي كان سببا في نشوء مثل هذه النظريات . إنها نظرية الامامة القائمة على أساس الغلبة .

---

(٤٥) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٨) .

قال ابو بكر : نحن أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره ، ولاينازع في ذلك وانتم لكم حق السابقة والنصرة ، فنحن الأمراء وانتم الوزراء . وقال الحباب بن المنذر بن الجموح : منا أمير ومنكم أمير ، وإن أبوا فاجلوهم يامعشر الانصار عن البلاد ، بأسيافكم وان الناس لهذا الدين ، وإن شئتم أعدناها جذعة أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب .

وقال عمر : « ان رسول الله (ص) أوصانا بكم كما تعلمون ، ولو كنتم الأمراء لأوصاكم بنا »[٤٦] .

قبل السير في كشف آثار التلبيس في هذا النص ، يجدر بنا ان نعري ايضا عن ذلك الجو الذي أودعوه خبر السقيفة . ابن خلدون يجعل خبر السقيفة بحيث يفيد القارىء بمدى تلقائية اجتماع ابي بكر وعمر وأبي عبيدة . والواقع يثبت عكس ذلك . ان هناك خطة مدبرة سلفا يتزعمها اولئك الثلاثة . ولست ممن يستسيغ ان يكون هذا الحلف قادرا بتلقائيته الانتصار على الانصار ، ان لم يكن هناك تدبير مسبق .

ذكر ابن ابي الحديد : « ان عمر لما علم ان رسول الله قد مات خاف من وقوع فتنة في الامامة وتقَلّب اقوام عليها ، اما من الانصار أو من غيرهم ، فاقتضت المصلحة عنده تسكين الناس فأظهر من كون رسول الله لم يمت ماأظهر وأوقع تلك الشبهة في قلوبهم حراسة للدين والدولة الى ان جاء ابوبكر »[٤٧] .

وهذا الكلام يفيد في ان قضية الخلافة كانت متواجدة في ذهن عمر بن الخطاب وينتظر مجيء ابي بكر ليبدأ تحركهما في هذا المجال . . والأمر آنذاك كان يقتضي تسكين المسلمين . وبث الشبهة في اذهانهم واشغالهم بذلك ربما للوقت ، ولايعنينا

« وغلبوهم عليه جماعا وموعظة » ولعل كلمتي « جماعا وموعظة » هي لغز زائد عند ابن خلدون وامعانا منه في تنسيق موقف الشيخين فيما زاولوه من قمع وإرهاب للأنصار . دعنا نتابع الأمر لنرى هل فيه مايصدق كلام بن خلدون ؟! .

---

(٤٦) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٨) .

(٤٧) ـ شرح النهج (٢ / ٤٣) .

ذكر هذا الأخير احتجاج كل من ابي بكر وعمر بن الخطاب على هذا النحو : مارامه ابن ابي الحديد من ان ذلك كان بمقتضى المصلحة في حراسة الدين والدولة .

وذكر الشهرستاني قول عمر بن الخطاب : كنت أزور في نفسي كلاما في الطريق : فلما وصلنا الى السقيفة أردت أن اتكلم . فقال ابوبكر : « مه ياعمر ، فحمد الله واثنى عليه ، وذكر ماكنت اقدره في نفسي ؟ كأنه يخبر عن غيب ، فقبل ان يشتغل الانصار بالكلام مددت يدي اليه فبايعته وبايعه الناس وسكنت الفتنة ، الا ان بيعة ابي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها ، فمن عاد الى مثلها فاقتلوه »[٤٨] .

وفي نص البخاري ، قال عمر : « فأردت ان اتكلم فقال ابوبكر على رسلك . فتكلم هو ، والله ماترك من كلمة اعجبتني في تزويري الا قال مثلها أو أفضل »[٤٩] .

اذاً هناك تدبير مسبق . حاول عمر أن يعزوه الى الاتفاق . لابعاد تهمة التآمر عليه .

ذلك التآمر الذي كشف عنه الامام علي (ع) عندما قال له : احلب حلبا لك شطره[٥٠] .

وقال : لشدّ ماتشطرا ضرعيها[٥١] فهناك اذن تزوير ، وهناك موافقة من ابي بكر . وهذا أمر لاتنطلي خلفيته على اللبيب ! .

ثم لنعد الى ماعتمده ابن خلدون من رواية . لنرى هل ماقاله عمر في السقيفة هو كما ذهب اليه ؟! .

أورد ابن خلدون نصاً لايوافق نصوص المؤرخين والمحدثين الذين اعتمدهم

---

(٤٨) ـ الملل والنحل (٧) والصواعق (١٠) وتاريخ الطبري (٣ / ٢٠٥) والكامل (٢ / ٣٢٧) .
(٤٩) ـ الصواعق المحرقة (١٠) والأنساب (١ / ٥٨٤) .
(٥٠) ـ شرح النهج (٦ / ١١) والأنساب (١ / ٥٨٧) .
(٥١) ـ شرح النهج (١ / ١٦٢) .

ووثق رواياتهم ، فعمر بن الخطاب لم تكن له كلمة في السقيفة على نحو هادىء يثير العقل ويحرك الحوار .

بل كان ـ كدأبه ـ فظا غليظ القلب ، وحسبك ماجرى وبين والحباب بن المنذر ، وسعد بن عبادة من مشادات كلامية ، وصل بعضها الى العراك والهم بامتشاق السيوف .

وفي الروايات التي ذكرها المؤرخون ، هناك محاولة ابداها عمر للكلام ، فأسكته ابوبكر .

ثم لم يعد بعدها الا ليجالد الآراء ويشوشر على الحضور . ففي رواية الطبري :

« تكلم ابوبكر ـ بعد أن منع عمر عن الكلام ـ وحمد الله وأثنى عليه »[٥٢] .

ولم يتحدث بعدها عمر حتى قال « فقال عمر : هيهات ! لايجتمع اثنان في قرن ـ يقصد الحباب بن المنذر ـ والله لاترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لاتمتنع ان تولى امرها من كانت النبوة فيهم ، وولي امورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته . الا مدل بباطل أو متجانف لاثم و متورط في هلكة »[٥٣] .

ثم لما تكلم الحباب بن المنذر وأغلظ في القول أجابه عمر :

قال عمر : « اذن يقتلك الله »[٥٤] .

وفي نص ابن قتيبة[٥٥] « قال عمر : خشيت ان يقصر ابوبكر عن بعض الكلام ، فلما تيسر عمر للكلام ، تجهز ابوبكر وقال له : على رسلك : فستكفى الكلام ،فتشهد ابوبكر » .

---

(٥٢) ـ تاريخ الطبري (٣ / ٢١٩) .

(٥٣) ـ تاريخ الطبري (٣ / ٢٢٠) .

(٥٤) ـ تاريخ الطبري (٣ / ٢٢١) .

(٥٥) ـ الإمامة والسياسة (٢٣) .

لقد خالف ابن خلدون ماشتهر عند المؤرخين في خبر السقيفة . وانتقى من الشاذ مايجعل به لعمر موقفا احتجاجيا ، عندما ردّ على المنذر . فهو لم يرد عليه الا بالقتل حين قال له : اذن يقتلك الله ؟ .

فمن أين ورد على ابن خلدون ، انه ردّ عليه بذلك المنطق السابق .

والحقيقة أن ذلك لم يحدث قط في السقيفة . وماكان ذلك الا من كلام علي علي (ع) حين أخبر بموقف الأنصار فقال :

ماقالت الانصار .

قالوا : قالت منا أمير ومنكم أمير .

قال : فهلا احتججتم عليهم بأن الرسول (ص) وصّى بهم .

ثم قال : لو كانت الامامة فيهم لم تكن الوصية بهم[٥٦] .

فثم هذا التحريف للكلمة وهي سرقة تاريخية مكشوفة . ليلعب دورين مغرضين . الأول : اعطاء عمر موقفا مشرفا في السقيفة . واقتطاع نص الإمام علي (ع) ونسبه الى عمر ، لإختلاق سمعة مزيفة له . والثاني : تغييب دور الإمام علي (ع) ومنطقه في دحض مزاعم المغتصبين .

ويذكر عمر ان هناك ملاحات وقعت بين عمر والمنذر بن الحباب . ولم يشر إلى تفاصيل تلك الملاحات ، التي ذكرنا سابقا . وذلك محاولة منه في إخفاء منطق العنف في موقف عمر داخل السقيفة .

---

(٥٦) ـ شرح النهج (٦ / ٣) .

سعد الخزرجي وأساطير الجن !

ابن خلدون أحد المؤرخين الذين رفع البلاط من شأنهم ، وجعلهم أنوارا تشعشع في سماء الفكر التاريخي والعقلانية الاسلامية . لم يكن الا مالاحظه دارسوه ممن ادرك مواطن تخلفه الفكري ورجعيته بأن عقلانيته لم تبرح بعضا من تلك الأفكار حول العمران وأحوال المعاش .

في حديثه عن سعد بن عبادة ارتكب غلطتين لو كانت واحدة منهما لكفت .

الاولى : عندما اعتبر سعدا مخالفا ومعارضا وحيدا للسقيفة « ولم يخالف الا سعد إن صح خلافه ، فلم يلتفت اليه لشذوذه »(٥٧) .

الثاني : هو ماختم به حديث السقيفة عندما ذكر مقتله عن طريق الجن !؟ .

وقد سبق ان وضعنا عدد الصحابة المعارضين لما ادعاه من اجماع السقيفة ومنهم رموزها وطلائعها الكبار الذين شهد لهم الرسول (ص) بالفضل . وحسبك من ذلك اقرباء الرسول (ص) وفي طليعتهم الامام علي (ع) وماجرى من قمع وإجبار لانتزاع البيعة من المعارضين .

الأمر الذي انتهى بتهديد فاطمة الزهراء ومحاولة حرق الدار . وغيرها من الاحداث الخطيرة التي سكت عنها ابن خلدون .

أما ماذهب اليه في مقتل سعد بن عبادة . فجدير بمن سلك طريق العقل في

(٥٧) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٦٩) .

تحقيق الأخبار أن يدرك تهدل هذا الخبر ، وسذاجة الاسطورة . قال :

وفي أخبارهم انه لحق بالشام ، فلم يزل هنالك حتى مات ، وأن الجن قتلته ، وينشدون البيتين الشهيرين وهما :

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
فرميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

ويكفي أن نطلع على موقف سعد بن عبادة الذي واجه عمر في السقيفة إلى أن تماسكا ، حتى دعاه أبوبكر إلى الرفق . وتمسّك سعد بموقفه ، إذ لم يبايع حتى مات . وعمر بن الخطاب الذي همّ بحرق دار فاطمة ، وقتل علي (ع) ان لم يبايع . كيف يزهد في تدبير قتل سعد بن عبادة . وهل الجن هي ايضا ممن يدعوها الاتفاق إلى تخليص الشيخين من أحد أقطاب المعارضة . وكان المؤرخون دائما يعملون على حبك الأخبار المزيفة ، حتى ولو اقتضى الحال إكمالها بالأساطير ، التي استساغها ولايزال الذهن العربي .

لقد دعاهم لقتل سعد بن عبادة في جنح الظلام أمران :

اولا : ان سعدا أبى المبايعة . وقد قال عمر لأبي بكر : لاتدعه حتى يبايع .

فالمعنى من ذلك انه اذا لم يبايع يجب أن يقتل .

ثانيا : لأن قتله مباشرة قد يحدث نوعا من القلاقل لا طاقة للشيخين بها ، ذلك ان بشير بن سعد قال لعمر حين قال ماقال :

« انه قد لجّ وأبى ، وليس بمبايعكم حتى يقتل . وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تركه بضاركم انما هو رجل واحد »[٥٨] .

وكان قد بقي على ذلك الموقف حتى ولي عمر بن الخطاب .

دعنا هنا مرة اخرى نستقصي الخبر . . لنعرف من الذي نفذ جريمة القتل في رجل حمل راية الأنصار في فتح مكة .

---

(٥٨) ـ تاريخ الطبري (٣ / ٢٢٢) . وتاريخ ابن الأثير (٢ / ٣٣١) .

ذكر ابن سعد : « انه جلس ـ اي سعد ـ يبول في نفق فاقتتل فمات من ساعته ووجدوه قد أخضر جلده »[٥٩] .

ولست ادري ، كيف انتقل الخبر عندهم . وهل عرفوا انه بال في الماء أم لا . وهل شهدوا الجني الذي قتله ، وماقال في قتله . اذن لابدّ من وجود راوي قد نقل لهم تفاصيل الواقعة .

الناقل بلاشك ـ كان ـ هو قاتل سعد ! .

وذكر المسعودي حادثة قتل سعد بن عبادة كالتالي :

« وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع فصار الى الشام ، فقتل هناك في سنة خمس عشر ، وليس كتابنا هذا موضعا لخبر مقتله »[٦٠] .

اذن فقتل سعد بن عبادة كان في طريقه الى الشام . ولكن السؤال الذي يطرح هنا بإلحاح :

من سيّره الى الشام . وهل هناك من كان على علم بمسيره الى الشام ؟ .

ذكر ابن سعد في طبقاته : لما ولي عمر الخلافة لقيه في بعض طرق المدينة .

فقال له : إيه ياسعد ؟ .

فقال له : إيه ياعمر ؟ .

فقال له عمر : أنت صاحب المقالة ؟ .

قال سعد : نعم أنا ذلك ، وقد افضى اليك هذا الأمر كان والله صاحبك أحب إلينا منك[٦١] .

وقد أصبحت والله كارها لجوارك .

---

(٥٩) ـ طبقات ابن سعد (٣ / ٦١٧) ومختصر تاريخ دمشق (٩ / ٢٤٦) والإستيعاب (٢ / ٥٩٩) والعقد الفريد (٤ / ٢٥٩ ـ ٢٦٠) . وشرح النهج (١٠ / ١١١ و١٧ / ٢٢٣) والانساب (١ / ٥٨٩) .

(٦٠) ـ مروج الذهب (٢ / ٣٠٧) .

(٦١) ـ أقول : هذه الكلمة لا تفيد اعترافه بابي بكر ، اذ لو كان الأمر كما قال ، لبايعه في حياته .

فقال عمر : من كره جوار جار تحوّل عنه .

فقال سعد : « ماأنا غير مستسر بذلك وأنا متحول الى جوار من هو خير منك ، فلم يلبث الا قليلا حتى خرج الى الشام في أول خلافة عمر . . الخ »[٦٢] .

وجاء في تبصرة العوام[٦٣] ، ان خالدا كان في الشام فأعان على قتله .

الآن وقد ظهرت المؤامرة على حقيقتها . هل نتورع عن اتهام عمر . وهو من علم بمسير سعد . وهو الذي أوكل قتله إلى أحد أنصاره بالشام . ترى هل بقي أثر لمؤامرة الجن على سعد بن عبادة المسكين . ثم ماذا ؟ .

هناك مايشفي الغليل ويريح البال في خبر مقتل سعد . تظهر واضحة لكل لبيب يتفهم ويعي المنطوق في ضوء مفهومه . والظاهر في وعي الباطن . والحضور في لوحة الغياب ! .

ذكر البلاذري ، ان سعدا لم يبايع أبابكر وخرج الى الشام فبعث عمر رجلا ، وقال :

ادعه الى البيعة واحتل له ، فان أبى فاستعن الله عليه ، فقدم الرجل الشام فوجد سعدا في حائط بحوارين فدعاه الى البيعة .

فقال :لا أبايع قريشا ابدا .

قال : فاني أقاتلك .

قال : وان قاتلتني .

قال : أفخارج انت مما دخلت فيه الأمة ؟ .

قال : أما من البيعة فاني خارج ، فرماه بسهم فقتله[٦٤] .

وهذه واحدة من النماذج التي تظهر نزعة التلبيس في تاريخ ابن خلدون ! .

---

(٦٢) ـ طبقات ابن سعد (٣ / ٦١٦) . والسيرة الحلبية (٣ / ٤٨٣) . ومختصر تاريخ دمشق (٩ / ٢٤٥) . وشرح النهج (٦ / ١٠) .

(٦٣) ـ تبصرة العوام (٣٢) .

(٦٤) ـ أنساب الأشراف (١ / ٥٨٩) .

خلافة عمر

جاء في تاريخ ابن خلدون : « ولما احتضر ابوبكر عهد الى عمر ، رضي الله عنهما بالأمر من بعده ، بعد أن شاور عليّا وطلحة وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وغيرهم ، وأخبرهم بما يريد فيه ، فأثنوا عليه رأيه فأشرف على الناس وقال : إني قد استخلفت عمر لو آل لكم نصحا فاسمعوا له وأطيعوا ودعى عثمان فأمره فكتب »[٦٥] .

افتتح ابن خلدون عهد عمر بن الخطاب بهذه الفقرة . وجعلها بحيث تبدو مقنعة شافية ، بعد أن أودعها فتوقا وثلما أفسدت المقصود الواقعي لهذا النص التاريخي ، ذلك عندما لم يشر الى ماشهدته تلك اللحظة الحرجة من استخلاف عمر بن الخطاب ، من مشادات كلامية ، تبين الى اي حد وصلت قناعة الصحابة برفض هذا الرجل ، وتبين ايضا ، الشق الثاني للعبة السقيفة التي أشار اليها من قبل علي (ع) حين قال : احلب حلْباً لك شطره .

إن السقيفة يمكننا قراءتها بشكل واضح على هذه الصفحة الاستخلافية المهمة ، لأنها تعبير واضح عن منهجها ، وامتداد حقيقي لها .

ولعمري ، هذا مادفع ابن خلدون الى التجافي عن عرض وقائع استخلاف ابي بكر لعمر ، تجنبا للوقوع فيما يعزز طرح الناقدين ، وإمعانا منه في اكمال سبك قراءاته المنحولة .

---

(٦٥) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٩٤) .

في الفقرة التي أوردناها عن ابن خلدون ، نفهم الأمر على أساس مضلل نظرا لسرعة العرض والقفز على الوقائع الساخنة . وجاء فيها :

١ ـ عهد ابوبكر الى عمر بالأمر من بعده بعد أن شاور عليا وطلحة وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وغيرهم .

٢ ـ فأثنوا على رأيه ـ بلا إستثناء ـ .

نبدأ بطرح هذا الاشكال على نص ابن خلدون . ونمضي بعدذلك في مناظرته .

إن النص في شقه الأول يدعي أن أبابكر شاور قبل العهد الى عمر كل من علي وطلحة وعثمان و .....

فهل تم ذلك فعلا . وهل شاور عليّا ولو افترضنا مشاورته إياه فماذا كان موقفه ؟؟ .

كما إدّعَى ان الذين أشاروا على أبي بكر كانوا قد اثنوا على رأيه فهل هذا صحيح ؟ .

في البدء لابد من الاشارة الى ملاحظة أساسية هي انه لم يشتهر على علي (ع) انه أشار على ابي بكر في أمر عمر . وكيف يشير عليه بذلك وهو نفسه يشعر باغتصابه الأمر من علي (ع) .

وكيف يطلب منه المشورة وهو من كان في مقام المنازع له . وهو لم يبايع الا بالإكراه .

وعلي بقي طيلة الفترة التي وليها تيار الاغتصاب من لدن ابي بكر الى عثمان ، معرضا عنهم ، مبديا رأيه في فلتاتهم ، ولعل ماجرى بين عمر وابن عباس ، دليل على ذلك الإعراض . اذ سأل عمر بن عباس قائلا : « ياعبدالله ، عليك دماء البدن إن كتمتنيها ، هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة ؟ قلت : نعم ، قال : أيزعم أن رسول لله (ص) نص عليه ؟ قلت نعم »[٦٦] .

---

(٦٦) ـ شرح النهج (١٢ / ٢٠) .

وحسبك ماجاء في كلامه ـ عليه السلام ـ كما نقل في نهج البلاغة :

« حتى مضى الأول لسبيله ـ أي ابوبكر ـ فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده .

« شتان مايومى على كورها ويوم حيان أخي جابر »

فياعجبا ! بينا هو يستقيلها في حياته ، اذ عقدها لآخر بعد وفاته ! لشدّ ماتشطرا ضرعيها ! فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ، ويخشن مسها ، ويكثر العثار فيها ، والاعتذار منها ، فصاحبها كراكب الصعبة ، إن أشنق لهاخرم ، وان أسلس لها تقحم ، فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس ، وتلوّن واعتراض فصبرت على طول المدة ، وشدة المحنة »[٦٧] .

ان كلام الامام علي (ع) فيه بيان شافي لموقفه من تيار الاغتصاب . وذلك من بدايته الى نهايته . وكان موقفه هو الصبر على طول المدة وشدة المحنة . وحاشا جنابة أن يكون مشيرا صغيرا يقرن بمن هو دونه في بعد الصيت وعلو الهمة والشأن .

وحاشاه أن يكون محض مشير في حضرة من قد غلبوه على الأمر واستلبوه منه بالغلبة .

وحسبك من معرفة موقفه من بيعة ابي بكر . ان تدرك ماقاله في حق عمر .

« فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ، ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها » .

فهو وصف يعزز موقف الصحابة من عمر أثناء العهد له بالأمر . هذا ناهيك عن أن أمر الخلافة يخرج بتخصص في مقام استجواب علي (ع) في أمر العهد والبيعة . اذ هي في عقيدته نص وعهد الهي لاتدخل في وسع الرأي أو الغلبة .

ولو راجعنا التاريخ ، وخصوصا تلك المصادر المعتمدة عند ابن خلدون لوجدنا بأن المشيرين عليه في الأمر كانوا هم عثمان وعبد الرحمن بن عوف وهؤلاء هم الذين دعاهم . وأما طلحة كان ممن دخل بعدهم بلامشورة . ولامكان لعلي (ع) بعدها . الا تماديا من الوضاعين والمحرفين . لاظهر شديد يحمل دليليته ولاأساس

(٦٧) ـ شرح النهج (١ / ١٦٢) .

متين يقيم ادعاءه .

ولنمضِ مع ابن خلدون لنرى كيف كانت طريقة الشورى . وهل ثبت أن أثنوا على رأيه ؟ أم ان الأمر لم يكن سوى محض تعقل واسراف من ابن خلدون نفسه ؟ ! .

ذكر إبن قتيبة « ان عمر قد خرج بالكتاب وأعلمهم : فقالوا : سمعاً وطاعة . فقال له رجل : مافي الكتاب ياأباحفص ؟ قال : لاأدري ، ولكني أول من سمع وأطاع . قال : لكني والله أدري مافيه : أمرّته عام أوّل وأمّرك العام[٦٨] .

ولندع رواية إبن قتيبة وهو ممن رفض ابن خلدون الأخذ عنه في هذا المجال ، لأنه لن يجد عنده ماهو مطاوع لتعمُّله ولاقابل لملاطفاته ، وان كان ابن قتيبة ممن مدحه أهل الرجال وأصحاب التراجم كصاحب الفهرست ، وممن مارس القضاء بدينور من دون تزلف وشهد له بالعدالة . ولكن دعنا نعود الى من وثقهم ابن خلدون وألزم نفسه بالأخذ عنهم ، كإبن جرير الطبري . لنقف عند حقيقة ماجرى من هذه المشورة المفتعلة .

جاء في الأثر « ان ابابكر لما نزل به الموت دعا عبدالرحمن بن عوف ، فقال : أخبرني عن عمر قال : إنه أفضل من رأيك الا أن فيه غلظة ، فقال ابوبكر : ذاك لأنه يراني رقيقا ، ولو قد أفضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو عليه ، وقد رمقته اذا أنا غضبت على رجل أراني الرضا عنه ، واذا لنت له أراني الشدة عليه . ثم دعى عثمان بن عفان ، فقال : أخبرني عن عمر ، فقال : سريرته خير من علانيته ، وليس فينا مثله . فقال لهما : لاتذكروا مما قلت لكما شيئا ، ولو تركت عمر لما عدوتك ياعثمان ، والخيرة لك ألا تلي من امورهم شيئا ، ولوددت اني كنت من اموركم خلوا ، وكنت فيمن مضى من سلفكم . ودخل طلحة بن عبيدالله على أبي بكر ، فقال : إنه بلغني انك ياخليفة رسول الله استخلفت عمراً ، وقد رأيت مايلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به اذا خلا بهم ، وأنت غدا لاق ربك ، فيسألك عن رعيتك ! .

فقال أبو بكر : اجلسوني ثم قال : أبالله تخوفني ! اذا لقيت ربي فسألني قلت :

---

(٦٨) ـ الإمامة والسياسة (١ / ٣٨) .

استخلفت عليهم خير أهلك . فقال طلحة : أعمر خير الناس ، فاشتد غضبه ، وقال :

اي والله ، هو خيرهم وأنت شرهم ، أما والله لو وليتك لجعلت انفك في قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها ، حتى يكون الله هو الذي يضعها ! أتيتني وقد دلكت عينك ، تريد أن تفتني عن ديني ، وتزيلني عن رأيي ! قم لا أقام الله رجليك ! أما والله لئن عشت فوق ناقة ، وبلغني انك غمصته فيها ، أو ذكرته بسوء ، لألحقنك بمحمضات قنة ، فقام طلحة فخرج »[٦٩] .

مايفهم من هذا النص . ومايظهر من ثناياه ، أن أبابكر كان متشبثاً برأيه في عمر بن الخطاب ، ولنرجع مرة اخرى الى نص ابن خلدون : « بعد أن شاور علياً وطلحة وعثمان وعبدالرحمن وغيرهم . فأثنوا عليه » . فقد تبين لنا أن الأمر كان على خلاف ذلك الإدعاء فعلي (ع) لم يشر بشيء . وكان موقفه الرفض للأول والثاني كما سبق من كلامه في النهج . وان طلحة أجاب بالرفض حتى أثار حفيظة أبي بكر ، وحصل بينهما ماشاء من سب وقدح . وأما عبدالرحمن فقد كان ثناؤه عليه مشوباً بموجدة على عمر . اذ قال : « انه أفضل من رأيك إلا ان فيه غلظة » . وكان عثمان هو الذي أثنى عليه نزولاً عند رغبة أبي بكر ، وهو على هواه . أما عموم الصحابة فقد رفضوا كما سبق ذكره ، وهابوا خلافته وقالوا فيه ماقاله طلحة .

فكيف بعد كل هذا يدعي ابن خلدون ، ان الثناء كان عفوياً من الجميع . وجعل في الأمر من التلبيس مايعكر صفو الحقيقة . ويكسر شوكة الصواب .

ولابدّ من الوقوف عند خلافة عمر ، وكتابة العهد ، لينجلي لنا بعد تبيان مجمل اللعبة ، أن نصوص ابن خلدون حولها مدخولة إلى المدى الذي يبدو منها التعسف الذميم والإعنات الممل ! .

لقد سبق أن رأينا ماكان عليه الحال عند وفاة الرسول (ص) والتلبيس الذي قاموا به ليجعلوا من وفاة الرسول (ص) وفاة صامتة . وفاة رجل لامسؤول ، ولاهمّ له فيما يخص مستقبل أمته من بعد موته . لقد توفي وهو ساكت عن العهد .

---

(٦٩) - شرح النهج (١ / ١٦٥) وتاريخ الطبري (٣ / ٤٣٣) ومصنف ابن أبي شيبة (٧ / ٤٨٥) .

وحين أراد ذلك ألقمه عمر بتهمة الهجر . غير ان المقام عند وفاة أبي بكر اختلف تماماً . فأبو بكر أبصر بالأمور ، وأنه لابد من العهد . وذلك درأً للخلاف من بعده . بعد أن ادعوا أن كتاب الله بين ايديهم ويكفيهم عن عهد الرسول (ص) من بعده بالأمر . لقد تصدى عمر أثناء مرض الرسول (ص) لقمع كل من رام احضار الكتاب لرسول الله (ص) كما تقدم . وسنده في ذلك ان كتاب الله بين ايدينا ولاحاجة للعهد بعدذلك ، وان الرسول يهجر من جهة اخرى .

هذا الموقف لم يعد نفسه يوم وفاة أبي بكر ، لم يقل إن كتاب الله معنا ولاحاجة لنا بعهد أبي بكر ،فعهد رسول الله (ص) أولى من ذلك وقد أعرضنا عنه ، كما لم يقل في أبي بكر ماقاله في رسول الله (ص) لقد كتب أبوبكر العهد إلى عمر وهو في لحظة من الإغماء كما ذكر المؤرخون .

فقد ذكر الطبري ، « انه دعى ابوبكر عثمان فأمره أن يكتب عهدا ، فقال :

اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماعهد عبدالله بن عثمان الى المسلمين . أما بعد ، ثم أغمي عليه ، وكتب عثمان : قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، وأفاق ابوبكر ، فقال : اقرأ فقرأه ، فكبر ابوبكر ، وسرّ ، وقال : أراك خفت ان يختلف الناس إن مت في غشيتي ! قال : نعم ، قال : جزاك الله خيرا عن الاسلام وأهله »[٧٠] .

هذا هو الجو الذي كتب فيه العهد ، جو الاغماء والهجر الحقيقي . ولكن عمر بن الخطاب تأدب هذه المرة مع رفيقه . واستخدم أحسن الألفاظ وأسوغها وحث الناس على طاعة ابي بكر وتقبل ماعهد به اليه . وقد ثبت عنه يومها ماجاء في الأخبار : « ان عمرا كان جالسا والناس معه بيده جريدة ومعه شديد مولى أبي بكر معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر ، وعمر يقول :

« أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله انه يقول : إني لم آلكم نصحا »[٧١] .

وقد ثبت أيضا ان عمر اعتبر خلافة أبي بكر فلتة . وذلك لأنها لم تكن بمشورة

---

(٧٠) ـ تاريخ الطبري (ج ٣ ص ٣٢٩) .

(٧١) ـ تاريخ الطبري (٣ / ٤٢٩) .

من المسلمين ، وهو هنا يتقبل عهد أبي بكر له بالأمر من دون أن يراجعه في ذلك أو يعتبره فلتة من جنس تلك الفلتة التي ذكرها .

كيف تقبل العهد من دون مشورة ! .

انني لست مرتاحاً لهذه الحبكة المفضوحة ، ولعمر الله ، ان المؤامرة لبينة حتى لذي غرارة صغير ، فهل ذلك مما ينطلي على أولي الألباب ، وهل ابن خلدون يجهل ذلك أم أن الأمر محض تجاهل ، ومن قبيل التعامي والتغاضي المقيت ؟! .

ان عمر بن الخطاب لم يكن ممن حضر في بداية الأمر ، ولم يشهد ماراج بين الصحابة وأبي بكر في ذلك الشأن ، فهو مطمئن الجناب من هذا الأمر ، والمسألة اليوم ليست كما كانت عليه في سقيفة بني ساعدة . ولم يجن عمر ويتوعد بالقتل من قال بوفاة الرسول (ص) ولم يتهم بالهجر أبابكر حين عهد له بالأمر ، ولم يهرع لمجالدة الصحابة على رأيه في الأمر .

ان ابن خلدون لم يستعرض كامل الأحداث ، ولم يشر إلى ملابسات العهد كما كتبه عثمان . ولا إلى قضية الإغماء ، وكل ذلك تجنباً منه لعدم التعرض للإستفهام .

عثمان والفتنة

هناك ثلاث محطات أساسية تطرق اليها ابن خلدون في حديثه عن خلافة عثمان . وهي تلك التي عنون لها بـ (ببدء الانتفاض على عثمان ، وحصار عثمان ومقتله) .

كيف تناول ابن خلدون تلك الملابسات ،وأي قدر من الصراحة ضمنها نصوصه حولها ؟ .

من ألّب على عثمان ومن قتله ولماذا . من هم أنصاره ومن هم معارضوه وأعداؤه ؟ .

كيف تمت عملية القتل ومن تولاها ؟ .

اسئلة كثيرة تضع تاريخ ابن خلدون أمام محك الحقيقة ! .

هنا تركيز على نقطتين في استعراض ابن خلدون لأحداث مايسمونه بالفتنة الكبرى .

١ ـ ان الذين ثاروا على عثمان وقتلوه كانوا يشكلون سفهاء القوم وغوغائهم .

٢ ـ ان الثورة على عثمان كانت من وحي عبدالله بن سبأ .

ومايدل على المسألة الاولى ، هو قول ابن خلدون « كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار من قريش وسواهم فأنفت

نفوسهم منه ، ووافق أيام عثمان ، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار ، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات ، والاستبطاء عليهم في الطاعات ، والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل ، ويفيضون في النكير على عثمان »(٧٢) .

وقوله : « ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم »(٧٣) .

أما مايؤكد المسألة الثانية ، فهو قوله :

« ألاّ عمَّار فإنه استماله قوم من الأشرار ، انقطعوا اليه ، منهم عبدالله بن سبأ ويعرف بإبن السوداء »(٧٤) .

« وكان ابن سبأ يأتيه ـ اي الى ابي ذر ـ فيغريه بمعاوية »(٧٥) .

« وتأخر عمار ابن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه »(٧٦) .

« وكان بدؤه فيما يقال شأن عبدالله بن سبأ المعروف بابن السوداء »(٧٧) .

والمعنى الاجمالي من هذا الكلام ان ابن خلدون يريد أن يثبت عبر التلبيس والتدليس ان الثورة على عثمان كانت من وحي عبدالله بن سبأ لجماهير من الغوغاء وانها بالنتيجة لم تكن ثورة شرعية وانما كانت مؤامرة مدبرة وفوضى مجنونة استغل فيها المتآمرون سوقة الناس ودهمائهم ، وفساق القوم وسفهائهم .

وقد سبق أن افضنا في هذه القضية في كتاب « الانتقال » ويكفي ماثبته العالم النحرير والمحقق الرئيس السيد مرتضى العسكري في سفره النفيس « عبدالله بن سبأ » فقد أثبت بكامل الوسع ضعف هذه الرواية التي انفرد بها سيف بن عمر التميمي والذي أخذها عنه الطبري . . . وندع القارىء يواجه بنفسه تفاصيل تحقيق الاستاذ الكبير . . ونتوقف نحن عند ابن جرير الطبري الذي منه أخذ ابن خلدون رواية عبدالله بن سبأ من دون النظر في مداخيلها ، أخذها بعد أن وضع

(٧٢) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٦١) .
(٧٣) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٧٤) .
(٧٤) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٦١) .
(٧٥) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٦١) .
(٧٦) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٦٧) .
(٧٧) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٦٤) .

عقله في القفص ، وانقاد اليها بسذاجة المقلدين ، الذين طالما عاتبهم ابن خلدون على التلقي غير الواعي ، واللامنتج ، الذي لايتم فيه التمحيص للخبر ، قال ابن خلدون :

« هذا آخر الكلام في الخلافة الاسلامية وماكان فيها من الردة والفتوحات والحروب ، ثم الاتفاق والجماعة اوردتها ملخصة عيونها ومجامعها من كتب محمد إبن جرير الطبري ، وهو تاريخه الكبير ، فانه أوثق مارأيناه في ذلك وأبعد عن المطاعن ، والشبه في كبار الأمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين »(٧٨) .

اذن ، ابن خلدون أخذ هذه الرواية عن الطبري . ونلاحظ أنه لم يأخذ عنه الروايات التي تدين عثمان أو الخلفاء . فهو اذن ينتقي . وفي انتقائه ذاك يعبر عن إعنات مفرط ، وانتحال للأخبار موقع في التلبيس . وقد سبق أن رأينا كيف طوى كشحا عن تلك الروايات الكثيرة عند الطبري في أمر وفاة الرسول (ص) والسقيفة ، ورأينا كيف كان من دأبه أن يروي الأساطير في تعزيز مذهبه التاريخي ، نظير ماجاء في مقتل سعد بن عبادة من قبل الجن ، وهو بذلك يؤكد على الطبيعة السحرية لمنهجه التاريخي . ومثل تلك الاساطير التي اعتمدها لِما تنطوي عليه من تعتيم على انحراف خلافة عثمان وعلى مجريات الأحداث .

ولايهمنا هنا مناقشة صميم الرواية . فيكفي أن يراجع القارىء ماأثبته الاستاذ العسكري . وانما أريد أن أؤكد على تهافت ابن خلدون في سرده لهذه الرواية بشكل يثير القرف ويبعث على الغثيان .

إنه مرة يؤكد أنه ـ اي ابن سبأ ـ ذهب الى البصرة حيث حكيم بن جبلة . . وكان هذا الأخير حسب شهادة ابن خلدون ممن أخرج ابن سبأ الى الكوفة . ومنها ذهب الى مصر حيث التقى بعمار .

من خلال هذه القصة يعتقد ابن خلدون بأن أتباع ابن سبأ الرموز كانوا هم عمار وأبو ذر .

وذلك لأن هؤلاء كانوا هم في طليعة الثورة على عثمان . ومن هنا سنبدأ

(٧٨) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٤٥٧) .

مناظرتنا لإبن خلدون :

اولا : اعتراف ابن خلدون بتشيع حكيم بن جبلة لعلي (ع) واخراجه لعبدالله بن سبأ ، دليل واضحٌ على أن حكيم بن جبلة ممن رفض أفكار عبدالله بن سبأ . غير أن التاريخ يثبت ان حكيم بن جبلة كان من الثوار الكبار ضد عثمان . ومن الذين جاؤوا بوفد البصرة الذي شارك في حصار عثمان .

ومن جهة اخرى . أن الوفود كانت تتألف من الوفد المصري والكوفي والبصري . وكلهم كان على موقف واحد . وعلى مطلب مشترك . وكلهم من المتشيعين لعلي (ع) « ونزل معهم أناس من أهل مصر وكان هواهم في علي »(٧٩) .

نستخلص من ذلك كله ، أن حكيم بن جبلة لم يكن حسب ماذهب اليه ابن خلدون موافقا على مطالب الوفود اذ زعم انه رفض تحريض ابن السوداء ، وان هذا الأخير هو من كان وراء حركة الامصار . ولو كان كذلك ـ اذن لزم عدم مجيئه في وفد كامل لقتل عثمان .

فهناك تناقض بيِّنٌ فيما ادعاه ابن خلدون ، و يثبت ان ابن السوداء فشل في إقناع حكيم بن جبلة وأهل البصرة . وليس ثمة مايقنعهم به إلا أمرين .

التشيع لعلي ، والثورة على عثمان . فأما الأول فكان من شأن حكيم بن جبلة وأهل البصرة . وذلك بشهادةابن خلدون . وأماالثاني فلو كانوا رفضوها ، اذن لما جاؤوا بوفدهم لقتل عثمان .

يقول ابن خلدون بعد ذلك « وحدث بالبصرة مثل ذلك من الطعن »(٨٠) .

فإذن ، التحريض على عثمان لم يكن من اختصاص ابن سبأ الاسطوري .

ان التناقض هنا واضح جدا . لمن تأمل ثنايا الخبر .

ثانيا :

ابن خلدون الذي بذل الوسع في تعظيم الامويين ، ورفض مذاهب الشيعة اذ

---

(٧٩) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٦٨) .

(٨٠) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٦٤) .

رفضها لغلوها في استنقاص الصحابة . هاهو الآن يحط من قدرهم . وينزل من شأنهم كأشد مايكون من الاستنقاص وكأحط مايكون الاستنزال . فهو يتهم صحابة من ذوي الفضل والسابقة . وممن يشهد لهم الرسول (ص) بالعظمة وعهد لهم بما سارت به الركبان وغنت به الشعراء .

هاهو يجعلهم أكثر دونية وصغارا ، ويصورهم على أشكال تقع دون البله وأقل تبصرا من الغرير ، فيجعل من عمار بن ياسر ذي السابقة والبلاء ممن يستميلهم اليهودي المتزندق ، ومن ابي ذر الغفاري العظيم ، من يغريهم السفهاء والدخلاء بالتعرض للأمراء ، وكأن ديننا ليس فيه فكرة عن مناهضة الظلم ، ولا وازع لمحاربة الفساد .

وأي دين هو أحرص من ديننا في طلب الاصلاح وممارسة التغيير ، وحسبك من ذلك التهافت ، ان ابن خلدون ذهب الى أن حكيم بن جبلة كان قد رفض على ابن السوداء دعوته واخراجه من البصرة ، كيف يكون حكيمٌ أبصر بالامور ، وأكثر تمييزا لما بين الحق والباطل ، ممن قام الاسلام على اخلاصهم ، وماتوا على صدق في المواطن .

ثم بالله عليك ، ماذا سوف يعلمهم ابن السوداء ، وكيف يغري اباذر ويستميل عماراً ؟!! .

ابن خلدون يذهب الى أن ابن سبأ أغرى اباذر بمعاوية ، اذ قال :

« وكان ابن سبأ يأتيه فيغريه بمعاوية »[٨١] .

« وجاء به عبادة الى معاوية وقال : هذا الذي بعث عليك اباذر » .

كما زعم أنه علّم عماراً القول بالإمامة والرجعة .

ان هذا لعمر الله هو صميم النيل من الصحابة ، وإنه لإزدراء مابعده ازدراء ، فهدي محمد لم يستطع ان يوفر أدنى حصانة دينية وعلمية لعمار وهو من أعمدة الدعوة وأركانها ، حتى يأتي يهودي فيستميله ، كاستمالة الحدث الصغير .

وان اباذر الغفاري الذي تأله قبل الدعوة . وجاء طوعاً يبحث عن الاسلام ،

---

(٨١) ـ سبق ذكره .

وساهم بكل اخلاص في حروبه كلها . أكان في حاجة الى يهودي يعلمه الثورة على الظلم . وهل كل ماقام به معاوية لم يكن كافيا لإثارة الوازع الديني في أمثال أبي ذر وعمار . فهل بعد هذا كله يليق بابن خلدون ان يدعي انه اعتمد على تاريخ فيه البعد عن المطاعن والشبه في كبار الائمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين !! .

ثالثا :

ان ابن خلدون وهو يمارس تدليسه هذا على القارىء كان على مقربة من فهم الامور . فما يعز على محلل العمران ومفكك التاريخ أن تنطلي عليه مثل هذه القضايا . إنه يعترف بأن هؤلاء الثوار كانوا على علاقة وثيقة بالإمام علي (ع) وهم من سمعوا رأيه في المرة الاولى فراوحوا الأمصار . وهم الذين بايعوه ودعوا لإمامته . وكان جديراً بإبن سبأ وهو رمز الدعوة الى الولاية لعلي (ع) وهو الذي علم عماراً القول بالإمامة ، وعلم مثل ذلك لأبي ذر وهو الذي انتقل بين الامصار المتمردة ، الكوفة والبصرة ومصر وهي مسقط رأس الوفود . لكان اذن جديراً ان يتقدم شيعة علي (ع) في زمانه ، ولكان علي (ع) قد ولاه فيمن ولاهم على الامصار . ولكان له صيت بعيد وشأن يذكر . لما قدمه من جهود في الدعوة لإمامة علي (ع) ولكن التاريخ ـ المبتذل ـ لايجد مايقوله لنا عن موقع عبدالله ابن سبأ في عهد علي (ع) ولا أين كان موقعه يوم اختراق الدار على عثمان .

إن التاريخ المبتذل يحتفظ لنا بصورة خفية عنه ، سواء في عهد عثمان أو في عهد علي (ع) فهو في كلا العهدين خفي ومتآمر ، فان كان هناك مايدعوه في عصر عثمان الى التستر فماذا يمنعه الآن بعد مقتله ، ولأن كان بقي بمصر . . فأي مانع للأمويين من ان يقتلوه وقد تمكنوا من قتل واليها يومذاك ، ولكان قتلته العثمانية مثلما قتلوا محمد بن ابي بكر . وقد لفق بعض المؤرخين ماحدث من إحراق علي (ع) لهم على ماذهبوا إليه من تأليهه ، ولكنه لم يحرق بن سبأ ، لأن بعضاً من أصحابه اعترض عليه ونصحه بتركه ، إن اسطورة الحرق هذه ، لم تكن سوى محاولة في تقريب عبدالله إبن سبأ من دائرة الواقع ، غير أنه كان ينفلت من قبضة الواقع ، انفلات الزئبق ، فكيف يحرق علي (ع) أحدا من كان ، وهو الذي اعترض على حرق أبي

بكر للفجاءة ، وكيف يحرق كل السبئيين ويبقى على زعيمهم ويطلق له العنان ، وكيف ينال منهم ويحرقهم وهو يعظم ويجلل أحد رموز السبئية على حد تعبير المؤرخين ، وهو عمار بن ياسر ، بل لقد ولّاه وأعزّه وكان ساعده الايمن ، ولست أدري ان كان عبدالله بن سبأ حقيقة معاصرة لتلك الأحداث ، كيف لايتعقبه معاوية بعد أن أثبتوا أن عبادة جاء به الى معاوية ، كيف لم يقتله أو يبعث من يقتله ، ولم نعثر على قولة لمعاوية ولا للعثمانية فيه على الرغم من أنه رقم واحد في الأحداث التي عصفت بعثمان على حد تعبيرهم ، وبعد أن كان معاوية يترصد كل أعداء وقاتلي عثمان ، وكان يقول اقتلوهم تحت كل حجر ومَدَر .

ان الاضطراب في هذا الخبر يكشفه المحقق لأول وهلة ، فإبن سبأ هذا رجل لم يدقق فيه المخبرون ، ولم يعطوا أدلة قاطعة تمكن المطلعين من معرفة حقيقة نسبه وطبيعة نشاطه ، ماذا قال عنه أرباب السير ورواد التأريخ والتراجم ، أكان حدّادا أم نجارا ، أكان طويلاً أم قصيراً ، نحيلاً أم مربوعاً ، بل كل مافي الأمر ان أهل الملل والنحل دأبوا على تلقف الحكايات تلقف الصبية للكرة ، من دون أعمال العقل فيها والنظر ، فهمَّهم إضافة إسم جديد لفرقة يسودون بها أسفارهم ، ويكشكلون ، بالشاذ والغريب ، رواياتهم .

انه لمن العار ياناس ، أن يتم التعسف على التاريخ بهذا الشكل المهول المريع . . ان التأليه لم يكن في عهد علي (ع) في أكثر التقادير ، لم يكن أحد يدعي أن عليا (ع) الهاً ، انها تهمة في ظني نشأت متأخرة ، وبالضبط في العصرين الاموي والعباسي ، لقد اعترفوا من حيث لايشعرون ان التشيع لعلي (ع) في العصر الاول لم يكن يعني أكثر من الولاء السياسي .

حتى عصر الامام الصادق (ع) الامام السادس من ائمة أهل البيت فيأخذ التشيع صبغته الايديولوجية والمذهبية[٨٢] وفي نفس الوقت يعتبرون التشيع من وحي

(٨٢) ـ اعتبر كثير من المحققين والكتاب ، أن التشيع ألوان يأخذ طابعاً سياسياً . يقول في ذلك مثلا ، د . إبراهيم بيضون : والسبئية اسطورة كانت أم حقيقة ، هي على هامش التشيع ومتناقضة في الصميم مع الفكر الشيعي ، بخلفيته السياسية البحتة ، الدولة الأموية والمعارضة (ص ٤٥) الطبعة الثانية بيروت وذكر صاحب التاريخ الإسلامي (محمود شاكر) حول الخلفاء الراشدين والعهد الأموي : (بل لم =

عبدالله ابن سبأ الذي عاش في عصر عثمان ؟! .

ولمزيد من الإيضاح ، ان عمارا عندما بعثه عثمان إلى مصر ، لم يستمله أحد ، وإنما بقي هناك على اتصال بكل من محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة ، وكانا من أقوى المحرضين على عثمان ، وهما رئيسا الوفد المصري ، ان تداخل خطة العمل بين كل من الوفود الثلاثة ، ووحدة الطرح لكل رموز المعارضة كعمار ، والأشتر ، وحكيم بن جبلة ومحمد بن أبي بكر وإبن أبي حذيفة ، والإمام علي (ع) هو مايجعل اسطورة السبئي لامسوغ لها إلا في أذهان المدلسين ، فهي في تهدلها ووهنها كبيت العنكبوت ، وهي أوهن البيوت .

ونعود بعد ذلك ، كي نطلع على الوضع السياسي الذي أثار غضب الثوار وجلب الحنق على عثمان ، ففي تاريخ ابن خلدون لم يكن عثمان الا منفذا لتعاليم الدين ، ولم يكن على مادعاه الخصوم ، ولهذا اتهم الثائرين عليه وقاتليه بالسفاهة .

يقول :

« ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم »[٨٣] .

وعلى هذا الاساس يكون كل من عمار وأبي ذر وإبن مسعود والذين تضرروا من سياسة عثمان وانتقدوها ، وكفروه سفهاء ، ويدخل في ذلك عائشة عندما دعت الى قتله في بداية الأمر .

قائلة : « اقتلوا نعثلا فقد كفر » ، ويدخل في ذلك حسب هذا المبنى الامام علي (ع) الذي لم ينصره بل هو الذي حسب شهادة عثمان نفسه ، قد جرأ عليه الثوار .

= تكن كلمة الشيعة تحمل أكثر من معنى التأييد والمناصرة . ولكنها غدت مع الزمن فكراً خاصا وعقيدة خاصة ، ونسب الى الأوائل أقوال لم يقولوها وأخبار لم يعرفوها ، وافكار لم تخطر على بالهم أبداً) . وثبت عندي أن الجابري تلقفها من محمود شاكر ، عندما قال : يجمع المؤرخون على أن التشيع لعلي أبن أبي طالب وابنائه من بعده لم يتجاوز مستوى الولاء السياسي (ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥) ، بنية العقل العربي ، المركز الثقافي العربي .

(٨٣) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٨٤) .

يقول إبن خلدون[84] :

« فأتاه عثمان الى منزله ليلا يستلينه ويعده الثبات على رأيه معه ، فقال : بعد أن أقام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم ؟ فخرج عثمان وهو يقول خذلتني وجرأت عليّ الناس » .

وحتى كان أبوهريرة الدوسي الذي عرف بملازمة الامويين على ملء بطنه ، ينقل له ابن خلدون موقفا عبقريا ، يقول : ياقوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار ، وقاتل .

وإني لأتساءل كيف قاتل ابوهريرة ، وهل هو من طينة البواسل ، ومتى رفع ابوهريرة رمحا أو مسك قوسا ، كيف يدعو من اشتهر بكذبه على رسول الله (ص) الصحابة الكبار الى النجاة ، وهم يدعونه الى النار ، فهل يعقل أن يدعو الدوسي عليّاً ، وعماراً ، والاشتر ، ومحمد بن ابي بكر الى النجاة ! .

وفي ظني ان الذي دعاهم لاختلاق ذلك الموقف ، ماقاله الرسول (ص) عن عمار بن ياسر :

« مالهم وعمار يدعوهم الى الجنة ويدعونهُ الى النار وذاك الاشقياء الفجار »[85] ، وعمار هذا كان قد كفّر عثمان وحرض على قتله .

لقد حاول ابن خلدون أن يقلل من شأن تلك المآخذ التي أوردوها على عثمان ، كإخراجه أبي ذر الى الربذة ، حاول ابن خلدون كعادته أن يبرىء عثمان من ذلك كله . وإن اقتضى الأمر الازدراء بأبي ذر ، واستصغار بصيرته وعلمه .

والآن لماذا اخرج عثمان أباذر الغفاري الى الربذة ؟ .

ابن خلدون يجيب على الفور ، بعد ان يحبك قصة كاملة ، كالتالي :

١ ـ ان أباذر « يأخذ بالظاهر في ذم الادخار وبكنز الذهب والفضة وكان ابن سبأ يأتيه فيغريه بمعاوية ، ويعيب قوله : المال مال الله ويوهم ان في ذلك احتجانه

---

(٨٤) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٧١) .

(٨٥) ـ البخاري (١ / ١٧٢ ح ٤٣٦)ووقعة صفين (٣٢٣) وكنز العمال (١١ / ٧٢٢ ح ٣٣٥٣١) والتذكرة (٩١) ومناقب الخوارزمي (١٩٢) وطبقات أبن سعد (٣ / ٢٥١ و٢٥٢) .

للمال وصرفه على المسلمين حتى عتب ابوذر في ذلك معاوية فاستعتب له وقال : سأقول ماللمسلمين وأتى ابن سبأ الى أبي الدرداء وعبادة بن الصامت بمثل ذلك فدفعوه ، وجاء به عبادة الى معاوية وقال :

هذا الذي بعث عليك اباذر »[٨٦] .

٢ ـ ثم استأذن ابوذر عثمان في الخروج من المدينة وقال : « ان رسول الله (ص) أمرني بالخروج منها اذا بلغ البناء سلعا فأذن له ونزل الربذة وبنى بها مسجدا وأقطعه عثمان صرمة من الابل وأعطاه صعلوكين وأجرى عليه رزقا ، وكان يتعاهد المدينة .

فعدّ اولئك الرهط خروج أبي ذر فيما ينقمونه على عثمان مع ماكانوا يعدون عليه من اعطاء مروان خمس مغانم افريقيا ، والصحيح أنه اشتراه بخمسمائة الف فوضعها عنه » .

من خلال الفقرتين ، يتبين أن اباذر كان رجلا ظاهريا لايأخذ بباطن الامور . فهو اذن ينقصه العلم بالاحكام والدراية بقضايا الشريعة . وأن عبدالله بن سبأ اغرى اباذر وأوهمه بمايجعله يعاتب معاوية فاستعتب له هذا الأخير . وانهم أتوا بـ (عبدالله بن سبأ) الى معاوية قائلين له : هذا الذي بعث عليك اباذر ثم ان خروج ابي ذر الى الربذة ، كان اختياراً منه وذلك بعهد من رسول الله (ص) وأقطعه عثمان مايكفيه من الابل وأعطاه مايفضل عنه من الرزق فهو لم يكن ذا حاجة وان اتهام عثمان باخراج ابي ذر كان من ادعاء ذلك الرهط .

لنبدأ بطرح رأينا حول هذه العبارة ونفككها لنقف عند حقيقتها .

اولا : ان اباذر بشهادة الرسول (ص) كان أصدق لهجة . . كما جاء في الرواية الشهيرة :

« ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر » .

فهو ممن اوتوا الفطنة والعلم والصدق . ولا أدل على ذلك من التزامه وسلوكه الذي يعكس ذلك العلم الكبير والفطنة النافذة .

---

(٨٦) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٦٢) .

لقد اعتبر (رض) مفاسد الامويين يومها خطراً على الاسلام وصدقت فراسته فهو لم يكن كما ادعى مؤرخ المغرب ، رجلا ظاهريا ، ولا أدل على علمه ايضا ، والتزامه ، ماجرى بينه وعثمان في حضرة كعب ، وان كانت تلك الحادثة تدل على شيء فإنما على مدى قوة بصيرة أبي ذر ، وحسبه من علم الباطن ، ان ردّ بأعنف العنف اليهودي المندس عن الافتاء في دين الله . وان تكون دعوته مما حملها المحرومون عبر التاريخ .

ولايزال ابوذر الغفاري يمثل أروع نموذج لثورة الفقراء حتى جعله البعض الاشتراكي الأول في تاريخ الاسلام ! .

ودعنا هنا ، نعرض بعض الاحصائيات عن الممتلكات الضخمة التي كانت تدور بعين أبي ذر وتثير رفضه لنرى هل مثل ذلك الحجم من الثروات في أيدي عثمان . وذلك الشكل من الفقر الذي تعانيه الطبقات السفلى من الناس . شيء طبيعي بالنسبة لذوي الضمائر الحية والروح المسؤولة .

لِنَرَ هل فعلا كان ابوذر ينتظر من عبدالله ابن سبأ ان يعلمه الثورة على الاثرياء . ام أن ذلك من تعاليم الامام علي (ع) حين كان لايفتر عن الاشارة الى هذا الوضع وهو صاحب الكلمة الشهيرة :

« مارأيت نعمة موفورة الا وبجانبها حق مضيع » وهو من قال بعدها :

« الله الله في الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم »(٨٧) .

ذكر عبدالله بن عتبة ان عثمان يوم قتل « كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار ، وخلف خيلا كثيرا وإبلا »(٨٨) .

هذه هي ثروة عثمان الشخصية ناهيك عما اقطعه لبطانته ، وما اغتصبه من بيت مال المسلمين(٨٩) .

---

(٨٧) ـ شرح النهج (١٧ / ٨٥) .

(٨٨) ـ مروج الذهب (٢ / ٣٤١ ـ ٣٤٢) .

(٨٩) ـ مروج الذهب (٢ / ٣٤٢) وراجع عثمان والفتنة الكبرى من كتابنا الانتقال ص ١٩١ .

وللبيب أن يتساءل ، هل بعد هذا كله كان ابوذر ضحية تمويه . وصدق طه حسين ، حين استسرف الأمر قائلا : ومن هذا التلقين الى أن يقال أنه الذي لقن أباذر مذهبه كله في نقد الامراء والاغنياء وتبشير الكانزين للذهب والفضة بمكاو من نار ، وماأعرف إسراف يشبه هذا الاسراف[٩٠] .

وينقلب السحر على الساحر في عملية العرض المغرضة ليكون ابن خلدون أحياناً عراب فضيحته فقد ذكر أنهم اتوا به الى معاوية ، وانه لمن الخطل تأييد هذه الاكذوبة فمعاوية الذي ضاق بأبي ذر الغفاري حتى أخرجه من الشام وشكاه الى عثمان . كيف لاينبس ببنت شفة أمام عبدالله بن سبأ وهو الذي أثار ابا ذر على معاوية حسب زعمهم .

ثم كانت الطامة الكبرى والبطشة الاخرى ، كما نسجها المنوال الرديء عندما اعتبر ابن خلدون خروج ابي ذر الى الربذة محض اختيار .

ولابدّ هنا من الاعتراض على ابن خلدون ، ونقول له إن أباذر خرج ثلاث مرات وليس مرة واحدة ، أخرج المرة الاولى من المدينة إلى الشام ، وأخرج في الثانية من الشام إلى المدينة ، وفي الثالثة من المدينة إلى الربذة وكان عثمان هو من أجبره على كل ذلك .

لقد نفي الى الشام عندما شكاه مروان ، ورجع الى المدينة بطلب من عثمان بعد أن شكاه معاوية ومن المدينة هُجِّر الى الربذة بعد أن ضاق به عثمان ذرعا ، وسوف نتعرض فقط للصورة التي تم تهجير ابي ذر عليها من المدينة الى الربذة ، والطريقة التي جاء بها الى المدينة من الشام .

عندما ضاق معاوية بأبي ذر الغفاري بالشام واستنجد عليه بعثمان طلب منه هذا الأخير أن يشخصه اليه في أغلظ مركب وأوعره[٩١] .

ذكر المسعودي : « ان معاوية كتب الى عثمان : إن أباذر تجتمع اليه الجموع ، ولاآمن أن يفسدهم عليك ، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله اليك ، فكتب اليه عثمان بحمله ، فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة

(٩٠) ـ اسلاميات طه حسين (٧٦١) .

(٩١) ـ مروج الذهب (٢ / ٣٤٩) .

يطيرون به ، حتى أتوا به المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف ، فقيل له : إنك تموت من ذلك ، فقال : هيهات لن أموت حتى أنفى ، وذكر جوامع ماينزل به بعد ،ومن يتولى دفنه ، فأحسن اليه في داره أيام ، ثم دخل اليه فجلس على ركبتيه وتكلم بأشياء .

وكان في ذلك اليوم قد أتى عثمان بتركة عبدالرحمن بن عوف من المال ، فنثرت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم ، فقال عثمان : إني لأرجو لعبد الرحمن خيرا ، لأنه كان يتصدق ،ويقري الضيف ، وترك ماترون ، فقال كعب الاحبار : صدقت ياأمير المؤمنين ،فشال أبوذر العصا ، فضرب بها رأس كعب ، ولم يشغله ماكان فيه من الألم وقال : ياابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال : إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة ، وتقطع على الله بذلك ، وأنا سمعت النبي (ص) يقول : « مايسرني أن أموت وأودع مايزن قيراطا » فقال له عثمان : وار عني وجهك ، فقال : أسير الى مكة ، قال : لاوالله ،قال : فتمنعني من بيت ربي أعبده فيه حتى أموت ؟ قال : اي والله ،قال : فإلى الشام ،قال :

لاوالله ،فاختر غير هذه البلدان ،قال : لاوالله ماأختار غير ماذكرت لك ، ولو تركتني في دار الهجرة ماأردت شيئا من البلدان ، فسيرني حيث شئت من البلاد ، قال : فاني مسيرك الى الربذة » .

أما ماأدعاه ابن خلدون من أن عثمان أعطى أباذر مايكفيه من رزق ، فهذا مالايشتد له ظهر ايضا ، لما علمنا من أن أباذر كانت له حساسية كبيرة من المال الحرام ، وأنه ماثار اذ ثار الا على هذا التبذير والترف ، والتصرف اللامسؤول في أموال المسلمين ، والثابت في الرواية هو أن أباذر مات هو وأبناءه من شدة الجوع ، حتى ان زوجته لم تجد له كفناً ، وكان بعض السيارة قد دفنوه بعد ذلك[٩٢] .

ذكر صاحب المروج : « قال عثمان : فاني مسيرك إلى الربذة ، قال : الله اكبر ، صدق رسول الله (ص) قد أخبرني بكل ما أنا لاق ، قال عثمان : وماقال لك ؟ قال : أخبرني بأني أُمنع عن مكة والمدينة وأموت بالربذة ، ويتولى مواراتي

---

(٩٢) ـ مروج الذهب (٢ / ٣٤٩) .

نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز ، وبعث أبوذر إلى جمل له فحمل عليه امرأته ، وقيل : ابنتيه ، وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتى يسير إلى الربذة ..» .

إن اخراج أبي ذر الى الربذة من قبل عثمان وتضايق التيار الأموي به ، هو من المشهورات في التاريخ الاسلامي ، ولو كان اختياراً منه الخروج إلى الربذة ، اذن لما أغلظ عثمان على من شيعه في الطريق بأشد مما تكون الغلظة . ولما حدث بينه والإمام علي (ع) في شأنه من تلك المشادات .

كان ابن خلدون يحاول من وراء ذلك تبرئة عثمان وتخطئة معارضيه مرة متهما اياهم بالسفه ومرة بقلة العلم واخرى بسوء الفهم ، وينسى انه كم مرة اعترف هو نفسه بمفاسد عثمان من حيث لايشعر وعرض مايؤكد ذلك الوضع السيء وتلك الصورة البشعة التي كانت عليها خلافة عثمان .(٩٣) .

قال ابن خلدون :

« وقيل : ان عليًا لما رجع عن المصريين أشار على عثمان أن يسمع الناس مااعتزم عليه من النزوع قبل أن يجيء غيرهم ففعل وخطب بذلك ، وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال : أنا أول من اتعظ ، استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه ، فليأت اشرافكم يروني رأيهم ، فوالله إن ردني الحق عبدٌ لأستن بسنة العبد ولأذلن ذلّ العبد ، وماعن الله مذهب الا اليه فوالله لأعطينكم الرضى ولااحتجب عنكم . ثم بكى وبكّى الناس ودخل منزله » .

اذن ، فابن خلدون يذكر ان عثمان اعترف بالذنب ، وانه استغفر الله وتاب و أعطى للناس من نفسه التوبة . ونقول لابن خلدون على من تكون هذه التوبة ان كان معارضوه ممن يجب في حقهم التوبة والاستغفار . وعلى من استغفر عثمان ، وبما اتعظ . أو لايدل ذلك على انه أتى من كبائر الاثم والذنوب مامأسى ظاهرا للجميع . فكيف يبرىء بن خلدون من أعترف بالذنب وأقر بالخطيئة .

وعليه ، فان أباذر كان قد اخرجه عثمان قهراً . ويدل على ذلك ماروواه الواقدي : « ان ابا الاسود الدؤلي قال : كنت أحب لقاء أبي ذر لأسأله عن سبب

---

(٩٣) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٧١) .

خروجه ، فنزلت الربذة ، فقلت له : ألا تخبرني ، خرجت من المدينة طائعاً ، أم أخرجت ؟ فقال : كنت في ثغر من ثغور المسلمين ، أغنى عنهم فأخرجت إلى المدينة ، فقلت : أصحابي ، ودار هجرتي ، فأخرجت منها الى ماترى » .

وفي يوم الدار حيث اقتحم الثوار بيت عثمان ، ودخل محمد بن ابي بكر على عثمان .

قال ابن خلدون : « ودخل عليه محمد بن ابي بكر فحاوره طويلا بما لاحاجة الى ذكره ، ثم استحيا وخرج . ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم »[٩٤] .

وليت شعري ـ هذه المرة ـ أي حوار طويل هذا الذي جرى بين الاثنين ، وعلى أي أساس رأى ابن خلدون عدم الحاجة إلى ذكره ، وكيف ان محمد بن ابي بكر استحيا وخرج ؟! .

وهلّا استحيا وهو يسير إليه من مصر إلى المدينة في وفد كبير . دعنا ننقل ذلك الحوار الطويل لنرى هل فعلا لاتدعونا الحاجة إلى ذكره أم لا .

لما دخل محمد بن ابي بكر على عثمان قال له هذا الأخير : ويحك ! أعلى الله تغضب ! هل لي اليك جرم الا اني أخذت حق الله منك ؟ فأخذ محمد بلحيته ، وقال : أخزاك الله يانعثل ! .

قال : لست بنعثل ، ولكني عثمان وأمير المؤمنين ، فقال : ماأغنى عنك معاوية وفلان وفلان ! .

فقال عثمان : يابن أخي ، دعها من يدك ، فما كان أبوك ليقبض عليها ، فقال : لو عملت ماعملت في حياة ابي ليقبض عليها ، والذي أريد بك أشدّ من قبضتي عليها . فقال : استنصر الله عليك وأستعين به ، فتركه وخرج ، وقيل : بل طعنه في جبينه بمشقص كان في يده[٩٥] .

ومن هنا تبين كيف ان الفائدة عمت عند ذكر الحوار ، وان محمداً لم يخرج مستحياً كما تخيله إبن خلدون ، وانما عنّفه وضربه وأخلى بذلك الطريق للثوار كي

---

(٩٤) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٧٤) .

(٩٥) ـ شرح النهج (٢ / ١٥٧) .

يشرعوا في قتله ، ولا أدلّ على ذلك مما ذكرنا من شكوى بنت الفرافصة مافعل محمد بن ابي بكر ، عندما سألها علي (ع) كما تقدّم ، ولو كان استحيا وخرج كما زعم ، لما شكت الكلبية ، ولكانت من الشاكرين له . ولما كانوا انتقموا منه شر انتقام حين ظفروا به وأحرقوه انتقاما ليوم الدار ، ولقاء ماصدر عنه من عنف في قتل عثمان . . . لقد ذكر ابن خلدون في مورد آخر ، وفي لحظة تبرير جديد ان ابن حديج كان قد منع محمد ابن ابي بكر الماء جزاء بما فعل بعثمان ، ثم أحرقه في جوف حمار .

أفلا يدل ذلك على أن موقف محمد العنيف من عثمان ، كان مما اشتهر به في زمانه ! .

لقد امتنع ابن خلدون عن نقل تفاصيل الحوار الذي دار بين الاثنين ، حتى يتسنى له القول :

« ثم استحيا وخرج » .

ويبقى ان نطرح سؤالا على ابن خلدون عن موقع وموقف عائشة من مقتل عثمان .

ابن خلدون ، لم يذكرها بشيء . وقصارى ماجادت به قريحته في هذا المجال قوله : « ثم خرجت عائشة الى الحج ودعت أخاها فأبى فقال له حنظلة الكاتب : تدعوك أم المؤمنين فلاتتبعها ، وتتبع سفهاء العرب فيما لايحلّ ؟ ولو قد صار الأمر الى الغلبة غلبك عليه بنو عبد مناف »[٩٦] .

وفي مورد آخر قال : وكان سبب اجتماعهم بمكة أن عائشة كانت خرجت الى مكة وعثمان محصور كما قدمناه ، فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة ، فلقيت في طريقها رجلا من بني ليث أخوالها ، فأخبرها بقتل عثمان وبيعة علي فقالت : « قتل عثمان والله ظلما ولأطلبن بدمه فقال لها الرجل ولم انت كنت تقولين ماقلت ؟ فقالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه وانصرفت الى مكة »[٩٧] .

---

(٩٦) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٧٤) .

(٩٧) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٧٩) .

هذا تلبيس يهدف الى وضع مقدمة مضللة لحادثة الجمل . واذا كان ابن خلدون قد اعتمد في أمر الجمل على ابن جرير الطبري ، فانه لم يأخذ عنه موقف عائشة من مقتل عثمان . لقد انتهى مايمكنه من سبك كلامه من دون أن يهدم صرح التلبيس فيما ينتحله من مواقف وأحداث . يقول :

« وهذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به لسلامته من الاهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين »[٩٨] .

لقد عمل ابن خلدون على انتقاء الروايات التي من شأنها ، التشويش على القارىء ، فجعلها بحيث يختفي منها موقف عائشة من مقتل عثمان ، حين قال : فقال لها الرجل ولم انت كنت تقولين ماقلت ؟ وماذا قالت عائشة ؟ . . . ابن خلدون يسكت ! .

لكن الطبري وهو المعتمد عند بن خلدون ، ينقل ماكانت تقوله عائشة في عثمان . وهو قولها : اقتلوا نعثلا فقد كفر .

هذه الكلمة هي التي دفعت ابن خلدون الى تعويضها بـ : تقولين ماقلت ؟ وسوف ننقل مادار بين الرجل وعائشة ، بمزيد من الإيضاح .

ذكر ابن خلدون ، ان رجلا من بني ليث أخوالها لقيته في طريقها ، وكان ذلك منه تلبيسا في القضية . وحتى يُبعد القارىء عن الاسم الذي ذكره المؤرخون ، كي لايقفوا على تفاصيل الكلام .

فالرجل الذي قال عنه ابن خلدون ، من بني ليث اخوالها . هو ماعرّفه المؤرخون بعبيد بن أم كلاب . وهو رجل ينسب إلى أمه . وهو عبيد بن أبي سلمة الليثي . . وبإسم بن أم كلاب اشتهر ، وكذلك مادار بينه وبين عائشة من كلام ، وذكر ذلك كل من الطبري وابن الأثير وآخرون .

والحوار الذي جرى بينهما كان كالتالي :

صاحت أم المؤمنين ، ردوني ، ردوني . فانصرفت الى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه ! فقال لها ابن ام كلاب : ولم ؟ فوالله إن

---

(٩٨) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٥٩٤) .

أول من أمال حرفه لأنت ، فلقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، قالت : انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير من قولي الأول ، فقال لها ابن ام كلاب :

فمنكِ البداء ومنكِ الغير	ومنكِ الرياح ومنكِ المطر
وانتِ أمرتِ بقتل الامام	وقلتِ لنا انه قد كفر
فهبنا أطعناكِ في قتله	وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا	ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تُدْرَإ[99]	يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها	ومامن وفى مثل من قد غدر[100]

وكان ابن خلدون يهدف من وراء ذلك الى غاية ذميمة . أن يجعل سبب اجتماع الثلاثة بمكة هو أن عائشة قد خرجت الى مكة ، وعثمان محاصرٌ ، حتى ورد عليها هذا الرجل وأخبرها بالأمر .

ونرى من الواجب فك هذا التهافت ، وتوضيح هذا التضليل ، فعائشة خرجت وهي تعلم بمقتل عثمان ، وكانوا قد كلموها في الأمر فرفضت ، وكان مروان قد جاء الى عائشة ، فقال : « ياأم المؤمنين ، لو قمت بين هذا الرجل وبين الناس ؟ قالت : قد فرغت من جهازي ، وأنا أريد الحج .

قال : فيدفع اليك بكل درهم أنفقته درهمين ، قالت : لعلك ترى اني في شك من صاحبك ؟ أما والله لوددت أنه مقطع بغرارة من غرائري ، واني أطيق حمله ، فأطرحه في البحر »[101] .

وكانت عائشة شديدة عليه أيام خلافته . ومن المحرضين عليه ايضا . حتى ورد عنها بينما عثمان يخطب اذ دلت قميص رسول الله (ص) ونادت : « يامعشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته ، فقال عثمان رب

---

(٩٩) ـ ذو تدرأ : أي ذو عدة وقوة .

(١٠٠) ـ طبقات ابن سعد (٥ / ٨٨) . والكامل (٣ / ٢٠٦) . والفتوح (٢ / ٢٤٩) . وتذكرة السبط (٦٦) . وتاريخ الطبري (٤ / ٥٤٩) .

(١٠١) ـ اليعقوبي (٢ / ١٧٥) .

اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم »[١٠٢] .

هذا هو موقفها منه وانها لم ترجع عن ذلك الا بعد أن قيل لها ان عليّا (ع) ، قد بويع ، فقالت عندها : « والله ليت هذه أنطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك »[١٠٣] ، ومن أقوالها في ذلك : « يا أيها الناس أن عثمان قتل مظلوماً والله لأطلبن بدمه »[١٠٤] ، وكانت تقول : « يامعشر قريش إن عثمان قد قتله علي بن أبي طالب ، والله لانملة ـ أو قالت ـ لليلة (ليوم) من عثمان خير من علي الدهر كله »[١٠٥] .

والمستفاد من أخبار المؤرخين . . أنها لم تقل ذلك الا بعد أن علمت بيعة علي من قول عبيد بن أم كلاب ، السابق[١٠٦] ، وقبل ذلك كانت بمكة ، وأخبرت بقتله من دون سماع بيعة علي . قالت : « أبعده الله ، ذاك بما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد »[١٠٧] . . وكانت تقول : « أبعد الله ، قتله ذنبه ، وأقاده الله بعمله ، يامعشر قريش لا يسومنكم قتل عثمان كما سام أحمر ثمود قومه ، أن أحق الناس بهذا الأمر ذو الأصبع ـ تقصد طلحة ـ[١٠٨] ثم أقبلت بسرعة الى المدينة ، وهي لا تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر ، وكانت تقول [١٠٩] : بُعداً لنعثل وسحقاً إيه ذا الإصبع إيه أبا شبل إيه يابن عم لكأني أنظرُ الى إصبعه وهو يبايع له حثّوا الإبل ودعدعوها[١١٠] .

ولّما أنتهت الى « سرف » قرب مكة في الطريق الى المدينة ، لقيها عبيد بن أم كلاب[١١١] فحدث بينهما ما قدمناه .

---

(١٠٢) ـ تاريخ اليعقوبي (٢ / ١٧٥) .
(١٠٣) ـ الكامل (٣ / ٢٠٦) وتاريخ الطبري (٤ / ٤٥٩) .
(١٠٤) ـ تاريخ الطبري (٤ / ٤٥٩) .
(١٠٥) ـ الفتوح (٢ / ٢٤٨) .
(١٠٦) ـ انظر كتابنا هذا (ص ١٧٥) .
(١٠٧) ـ شرح النهج (٦ / ٢١٦) .
(١٠٨) ـ شرح النهج (٦ / ٢١٦) .
(١٠٩) ـ شرح النهج (٦ / ٢١٥) .
(١١٠) ـ الدعدعة : الزجر .
(١١١) ـ تاريخ الطبري (٤ / ٤٥٩) وطبقات ابن سعد (٥ / ٨٨) .

والآن نبيّن لك عزيزي القارىء . . كيف أن عائشة كانت تريد الأمر لأبن عمها ، تعصبا لبني تيم بن مرة . . وأنها لم تعدل عن قولها الا بعد أن نزل عليها خبر المبايعة لعلي (ع) كالصاعقة . . فأرعدت وأمطرت .

لقد كان علي (ع) شجا في حلقها . . قذى في عينها . . وقد أسرها موته حين حزن لذلك المؤمنون ، وعبرت عن ضغنها حين وصل اليها خبر مقتله قائلة:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر

وقد سألت عمن قتله ؟ فقيل : رجل من مراد ، قالت :

فان يك نائيا فلقد نعاه نعاة ليس في فيها التراب[112]

قال : لما أن جاء عائشة قتل علي سجدت[113] .

وليت شعري ماالذي يمنع ابن خلدون من ان يشير الى ماقامت به عائشة من مخالفات لشرع الله وخروجها من بيتها بعد أن أمرت بلزومه . . لقد خرجت بألوف من الرجال وردّها عليّ (ع) بأربعين من نساء البصرة . . انها عبقرية إبن خلدون . . فيلسوف التاريخ وعالم العمران .

---

(١١٢) ـ تجارب الأمم / ابن مسكويه (ج ١ ص ٣٨٣) . وطبقات ابن سعد (٣ / ٤٠) والكامل (٣ / ٣٩٤) . وتاريخ الطبري (٥ / ١٥٠) .

(١١٣) ـ مقاتل الطالبيين (٥٥) .

ابن خلدون .. ومعاوية بن ابي سفيان !

لا أحد من المؤرخين يشك في درجة انحراف معاوية بن ابي سفيان . . وفي تلك الطعون التي أحصاها عليه المؤرخون . . وكثيراً منهم اتهمه في الدين وحكم بفسقه . . وكيف لايفسق من قاتل عليا (ع) وقتل عماراً ، وحجراً . . وخنق الامة بسياسة بني هند وأبناء العاص ، بعد أن حولها الى ملك عضوض ، واذا كان الصحابة حسب ماذكرناه سابقاً يعرفون المنافق ببغضه علياً (ع) فكيف بمن حاربه وجعل سبه ولعنه سنة لاتتم من دونها الصلاة ولاتقوم بدونها المنابر .

وعند إبن خلدون كعادته في تبرير السلطة وإخفاء الطعون ، يقول في شأن معاوية :

« وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم ، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة ، ولاينظر في ذلك إلى حديث : الخلافة بعدي ثلاثون ، فإنه لم يصحّ ، ـ والحق ـ إن معاوية في عداد الخلفاء » .

ورغم ان ابن خلدون يعتقد ان الخلافة في عهده كانت غلبة الا انه لم يجد في ذلك ماينقض حكم الشرع ، « فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك ، ويشبهون بعضهم ببعض ، وحاشا لله أن يشبه معاوية بأحد ممن بعده ، فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانية ممن تلاه في المرتبة كذلك ، وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس ، ولايقال : ان الملك أدون رتبة من الخلافة ، فكيف يكون خليفة

ملكا »[114] .

وعلى ذلك الأساس يكون معاوية من الخلفاء الراشدين ، الذين سنتهم فرض على جميع المسلمين .

وان الخلافة التي تأتي عن طريق المغالبة والعصبية ليست ملكا ، كما يدعي أهل الأهواء ، بل هي شرع له نظائره في سيرة الأنبياء . « واعلم ان الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتية والمعبر عنها بالكسروية التي انكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها ، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلاينافي الخلافة والنبوة ، فقد كان سليمان بن داود وأبوه نبيين وملكين وكانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربهما عزوجل ، ومعاوية لم يطلب الملك ولاأبهته للإستكثار من الدنيا ، وانما ساقه أمر العصبية مطبعها لما استولى المسلمون على الدولة كلها ، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك اليه قومهم عندما تستعمل العصبية وتدعو لطبيعة الملك »[115] .

ليس التهافت فيما يقوله ابن خلدون فحسب ، وإنما البطشة الكبرى عندما تكون ذهنية الجبر والنزعة الحتمية متحكمة في سرده الأحداث وتقييمه للوقائع ، نزعة التصويب التي بلغت قمة الإسراف في تاريخ بن خلدون ، إن خبرة طويلة في مزاحمة البلاط ، سفلاً طويلاً في دهاليز التآمر والتزلف ، وفشل قاتل لبلوغ المآرب العليا ، كل ذلك كان مما لصق بذهن ابن خلدون ومن خلاله نظر إلى التاريخ ، فخلط وتاه بدون ضوابط .

إن منطق ابن خلدون في تبرير السلطة والخلافة كما أحصاها عليه دارسوا تاريخه من المستشرقين وغيرهم ، استوعبوا هذه النزعة في تاريخه . . . ونلاحظ ذلك فيما تقدم من كلامه عندما اعتبر « الخلافة بعدي ثلاثون » حديثا لم يصح ، وحجته في ذلك غير منطوقة ، فهي مما يكشف عنه السياق . . . والسياق هنا هو تلك المحاولة الكبيرة في سبك تبرير يشد ظهر خلافة معاوية ، بما يشوه حكم الله ويطعن في خاصرة الشريعة .

---

(١١٤) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٦٢١) .

(١١٥) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٦٢١) .

ولذلك لم يكن يجد حجة مناهضة في تبرير عدم تضارب الملك مع النبوة والخلافة في مثال مُلك معاوية ، بل ارتكز على ضرب متهالك من القياس ، القياس مع الفارق ! « أما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلاينافي الخلافة والنبوة ، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيين وملكين وكلنا على غاية الاستقامة » .

فإبن خلدون كان يجهل أو يتجاهل أن هذا قياس لا أساس ينهض به في مقام الحجية ، لأن ملك داود وسليمان هو مما آتاهم الله اياه من دون غلبة أو عصبية ، وانه لم يكن في مقاومة أناس ربيين ، أو سفك الدماء المؤمنة ، أو سب الرموز الدينية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ممن أجرى أودية من الدماء كان ضحيتها جيل كامل من المسلمين ، وانه أقام ملكه على محاربة رموز الإيمان ومنازلة التراث الديني ، وحسبك أن يعترف ابن خلدون بقيمة أهل البيت في مقام آخر حين اقتضى ذلك منه التبرير ، وقد كان معاوية شديدا عايهم ، يقول ابن خلدون ، متزلفا إلى الدولة الشريفية في المغرب ومُدغدغا لمشاعرها : « على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الايمان ، فالله سبحانه قد اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . ففراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن . ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بإثمه وولج الكفر من بابه » . ولايهمنا هنا إن كان ابن خلدون قال ذلك في لحظة الدفاع عن مآرب أخرى . كأن يركز على طهارة المنسب ورفعته في عصمة بعض الخلفاء من القيام بما ذكره المؤرخون في أحوالهم كالرشيد والمأمون . ان ذلك عندي من باب « صلى وصام لأمر يطلبه ، فلما قضى الأمر فلاصلى ولا صاما » .

ولكنها تبقى شهادة منه تؤكد على عظمة شأن أهل البيت وعصمة القرآن لهم ، وهذا لم يمنعه من أن يبرر ملك معاوية الذي قام على قتال وحصار أهل البيت (ع) . حتى ان ابن خلدون أنهى كلامه في كل تلك الأحداث بمدح معاوية والدعاء قائلا :

« والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالإقتداء بهم » .

لقد أسس ابن خلدون موقفه من معاوية على أساس النسب والشرع ،

فالنسب وهو أس العصبية ومناط الغلبة ، والاستقامة هي ضمان اعتبار الملك خلافة .

اولا : النسب

النسب بالنسبة لابن خلدون من المسائل الأساسية في تاريخه ، بها افتتح كتاب العبر ، وضرب الآراء بعضها ببعض ، مابين ناف ومثبت ، وانتصر لعلم الانساب ، مشيرا الى أهميته قائلا :

« قالوا وتدعو الحاجة اليه في كثير من المسائل الشرعية ، مثل تعصيب الوراثة وولاية النكاح ، والعاقلة في الديات ، والعلم بنسب النبي (ص) ، وانه القرشي الهاشمي الذي كان بمكة ، وهاجر الى المدينة . فان هذا من فروض الايمان ولايعذر الجاهل به . وكذا الخلافة عند من يشترط النصب فيها . فهذا يدعو الى معرفة الانساب ويؤكد فضل هذا العلم وشرفه ، فلاينبغي ان يكون ممنوعا »[116] .

وفي ذلك المبحث تعرض لنسب الامويين وأشار الى معاوية قائلاً :

« وعقب معاوية بين الخلفاء والاسلام بين معروف يذكر عند ذكرهم »[117] .

وركز ابن خلدون على نسب قريش في موضوع السقيفة ، وجعله منطقا وجدالا انتصروا به على الأنصار ، فلايخفى بعد هذا ان ابن خلدون ممن يهتم بالأنساب ويجعل لها أهمية كبرى في تمييز الأشخاص والعشائر .

ونطرح السؤال : هل هناك مايثبت طيب مولد معاوية وطهارته ؟ .

النسابة هشام بن محمد الكلبي ، من المعتمدين عندابن خلدون وممن استشهد بتراجمهم ، يوقفنا في مثالبه الشهيرة عند نسب معاوية قائلاً : كان معاوية لأربعة : لعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، ولمسافر ابن عمرو ، ولأبي سفيان ، ولرجل آخر سمّاه[118] .

وكانت حمامة ، وهي احدى جدات معاوية بن أبي سفيان ، كان لها راية بذي المجاز

---

(١١٦) ـ تاريخ إبن خلدون (٢ / ٦) .

(١١٧) ـ تاريخ ابن خلدون (٢ / ٣٧٧) .

(١١٨) ـ ربيع الأبرار (٣ / ٥٥١) والشرح (١ / ١١١ و ٤ / ٦٨) والتذكرة (١٨٤) .

يعني من ذوات الرايات (في الزنا) ، حتى قال أحدهم لمعاوية « حمامة جدتك وكانت بغية في الجاهلية ، لها رأية تؤتى »[119] .

بهذا النسب . . يستقيم أمر معاوية ، ويستسيغه المخيال الخلدوني ، ويجعل أمره لايخالف النبوة والخلافة .

ثانيا : الشرع .

تقوم شرعية معاوية فيما خاضه من حروب ، في أنه اجتهد ، و هذا رأي ابن خلدون ، على أساس ذلك الاجتهاد تحل اشكالية الموقف المطلوب اتخاذه ازاء معاوية وأعماله ، ولكن لابد من طرح السؤال ، على اي ارضية ايمانية بنى معاوية ملكه ؟ وعلى اي أساس شرعي يسوغ تصويب ابن خلدون لفعاله كلها ، وكان معاوية ـ كما اجمع المؤرخون ـ قد سنّ لعن علي على المنابر والمساجد . . هذا ناهيك عن قتله للمسلمين واحداثه في الدين كما أخبر بذلك الرسول (ص) في الروايات المستفيضة في التنبؤ ببني أمية . . وهو في نفس الوقت تخطيء لعلي (ع) في قتاله لمعاوية ، وفي اعتباره من أهل الفسوق .

---

(١١٩) ـ العقد الفريد (٤ / ١٦) .والغارات (٤٢ و٤٣) .

كربلاء ... نموذجا آخر

لو كانت احداث كربلاء وحدها لكفت في فضح حقيقة الكفر الاموي ، ولأبانت عن طبيعة النفاق الذي بقي ردحا من الزمن يتفاعل داخل نفوس بني أمية ، يترقب لحظة الانتصار ، ليعبر عن قسوته وخشونته ضد البيت العلوي . . ولم يعد بعد واقعة كربلاء مامن شأنه أن يضبب الرؤية ، ويعتم الطريق . . فالدماء التي أهرقت في الطف كافية لإعطاء صورة حقيقية لمن شاء ان يعتبر . . ولم يبق بعد ذلك من شك في الأمر الا عند من طبع الله على قلبه ، وأرداه في غواية النواصب وتجار الخلافة .

وان ابن خلدون لمن حبا على الدرب يؤسس للظلم تاريخاً مزيفاً . . ويضع قواعد لتسويغ تراث الامويين والعباسيين . . ولو كانت كربلاء مما جاء بالنصر الدنيوي للامام الحسين (ع) لما كان ابن خلدون تخلف عن مدحه وملكه ، والتعريض باعداءه . . انها عقلية « التلال » و « الصلاة مع من غلب » أو لم يقلها رجل ليس من ملتنا . . بأنه شخصية وقحة ، لاتعرف الا حقوق القوة ، ولاتدرك غير الطغيان !! اي والله ، انه الصواب ! .

ولأن واقعة كربلاء ، نمت عن مقتل الحسين ، وهزيمة جماعته وزوال آخر منافس من آل البيت (ع) تبنى العنف المقدس في كبح جماح الباطل . . فان ابن خلدون رأى من الحق أن ينتصر ليزيد ، ويخطىء الحسين (ع) بصورة يأباها العقل السليم وتمجها الفطر النقية .

فماذا قال في الحسين ، وماموقفه من يزيد ؟ .

إن الحسين (ع) في تاريخ مكيافيلي العرب . . كان رجلاً مشهوراً . . وان كان عادلاً ومحقاً . . وذلك عندما « ظنها من نفسه بأهليته وشوكته »[120] . . . وان كان ابن خلدون قد اعترف له بالأهلية .

« فأما الأهلية كانت كما ظن وزيادة » الا أنه خطّأه في ظن الشوكة « وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها » .

ودليله على ذلك ، « أن عصبية مضر كانت في قريش ، وعصبية قريش في عبد مناف ، وعصبية عبد مناف انما كانت في بني أمية ، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس »[121] .

وقد أسرف ابن خلدون في نسبة الغلط الى الامام الحسين (ع) اذ قال غير مرة :

١ ـ وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها .

٢ ـ فقد تبين لك غلط الحسين (ع) الا أنه في أمر دنيوي لايضره الغلط فيه .

٣ ـ وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه ، وكان ظنه القدرة على ذلك .

٤ ـ وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله .

٥ ـ فلايجوز قتل الحسين مع يزيد ولا ليزيد .

ابن خلدون الذي أسرف في التصويب في شأن معاوية ويزيد ، هاهو يبالغ في تخطئة الحسين (ع) ، وقد كان أحرى به أن يرد الأمور إلى منطقها الحقيقي ، من دون تعسف ولا افتعال ، ذلك ان الأمور يومها كانت تتحرك في دائرة المسؤولية الدينية ، وأن المُسلّم به يومها أن الخلافة أمر شرعي يتولاها من هو أحق بها ، ولم يكن منطلق الحسين (ع) ظني كما يحلو لابن خلدون ان يسميه ، وان كان الأمر كذلك ، فإن أباه أولى بذلك لحرصه على قتال بني أمية ، فمن قال ان الامام

---

(١٢٠) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢٨) .

(١٢١) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢٨) .

الحسين دفع به الظن بالشوكة ، وهو يعلم أن العدو يملك من أمرها مالايملك ، ولكن خروجه كان اضطراريا ، وحتى لايذل بيعته ، ويجعلها قرينة ـ عبر الأجيال ـ لتصويب خلافة الفساق ، ومن جهة أخرى ، كان الإمام قد استقدم من قبل أهل الكوفة ، الذين أضعفوا شوكته بخذلانهم .

إن ابن خلدون وقع في التباس خطير ، عندما اعتبر الاجتهاد منطلقا لثورة الحسين (ع) ويكفيه ان يرجع الى الخلف ،ليرى أن محاربة الخلافة الظالمة كانت ديدنا للبيت الهاشمي . . فأبوه قاتل معاوية . . وكذلك ابنه الحسن (ع) فأي اجتهاد والحكم بفسق يزيد بن معاوية هو مما أقر به بن خلدون نفسه . . وأهليته في ادراك شرع الله كان مما أقر به ايضاً ، في قوله :

« وقد غلط القاضي ابوبكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سمّاه بالعواصم والقواصم مامعناه ان الحسين قتل بشرع جده ، وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل ، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء »[١٢٢] .

هنا يتبين التناقض المهول الذي تاه فيه ابن خلدون . . أليس جوهر ماينطق به هو أن من شرع جده أن ينهض يزيد لقتله وان يسكت أصحابه على ذلك وعدم الخروج على فسقه .

هل هناك منطق يعترف بهذا النوع من التصويب المبتذل الذي يجعل للحق أكثر من وجه :

« والحسين فيها شهيد مثاب ، وهو على حق واجتهاد ، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق ايضا واجتهاد »[١٢٣] .

ومن هو الذي على باطل ، ومن هو الذي يستحق القتل ؟ .

ان منطق القياس (القياس المبتذل) ، هو حمار المصوبة في كل المناسبات الذي يهدفون فيه الى تبرير فسق الفاسقين وظلمهم . . ألا بئس مايصنعون ! .

(١٢٢) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢٩) .
(١٢٣) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢٩) .

هناك سؤال يفرض نفسه على الباحث : اذا تبين ان يزيد ثبت فسقه في أيام أبيه ، بشهادة ابن خلدون حيث قال : « بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه »[124] .

فإن التهمة ـ اذن ـ توجه في الأساس الى معاوية . .خصوصاً وأن اتفاقية الصلح بين الحسن ومعاوية كانت تقتضي رجوع الخلافة اليه أو الى أخيه الحسين (ع) .

ذكر ابن خلدون أن بيعة يزيد حدثت لإعتبارات كثيرة منها :

١ ـ جلب مصلحة ودرأ مفسدة « والذي دعى معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ »[125] .

وقال :. فالاول منها ماحدث في يزيد من الفسق أيام خلافته ، فاياك أن تظن بمعاوية ، رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد ، فانه أعدل من ذلك وأفضل ، بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه ، وهو أقل من ذلك ،وكانت مذاهبهم فيه مختلفة .

٢ ـ ان بيعته كانت باتفاق كبار الصحابة وما ثبت عن ابن عمر ، هو بسبب تورعه .

قال : « ولا يتهم الإمام في هذا الأمر وان عهد الى أبيه أو ابنه لأنه مأمون على النظر لهم في حياته ، فالأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته ، خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد ، أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد ، فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله ، لاسيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه ، من ايثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأساً ، كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وان كان معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب »[126] .

وقال : « وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب

---

(١٢٤) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢٢) .

(١٢٥) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢١) .

(١٢٦) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢٢) .

فيه ، فليسوا ممن تأخذهم في الحق هوادة ، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق ، فإنهم أجل من ذلك ، وعدالتهم مانعته منه »[127] .

ثم قال في شأن ابن عمر : « وفرار عبدالله بن عمر من ذلك انما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحاً كان أو محظوراً ، كما هو معروف عنه » .

لنتوقف اذن عند حقيقة الوقائع التي عاصرت لحظة العهد ليزيد ، لنتبين اذا ماكانت الأمور تتم من خلال هذا الوازع ووفق هذا التدبير .

ابن خلدون ينقل في مقام آخر كلاما لمعاوية نفسه جاء فيه :

« فلم يمضي إلا قليلاً حتى ازداد به مرضه ، فدعا ابنه يزيد وقال : يابني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأمور ، وأخضعت لك رقاب العرب . وجمعت لك مالم يجمعه أحد »[128] .

تلك هي الكلمة التي قالها معاوية . . وهي تعكس البعد القهري في انتزاع البيعة لابنه . . . فكيف تم اخضاع الرقاب ليزيد ؟ .

يستحسن عندنا بادىء ذي بدء . . ذكر من عارض بيعة يزيد . . لنسخ دعوى اجتماع كبار الصحابة واقرارهم على تلك البيعة . . وسنبدأ بعبد الله بن عمر الذي اعتبر بن خلدون فراره محمولاً على الورع المعروف عنه . . .

يذكر اليعقوبي انه لما حج معاوية وحاول اخذ البيعة من أهل مكة والمدينة ، أبى عبدالله بن عمر ، وقال : نبايع من يلعب بالقرود والكلاب ويشرب الخمر ويظهر الفسوق ، ما حجتنا عند الله ؟ [129] .

وذكر الطبري[130] أن معاوية أرسل الى عبدالله ابن عمر مائة ألف درهم فقبلها فلمّا ذكر البيعة ليزيد ، قال ابن عمر : هذا أراد ؟ إن ديني عندي إذن لرخيص . .

---

(١٢٧) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢٢) .
(١٢٨) ـ تاريخ ابن خلدون (٣ / ٢٢) .
(١٢٩) ـ اليعقوبي (٢ / ٢٢٨) .
(١٣٠) ـ الكامل (٣ / ٥٠٦) .

وفي هذا بيان شافي لما انتحله ابن خلدون من فرار ابن عمر كان ورعاً منه . . فهل ورعه هو الذي جعله يرفض الدخول في مثل هذا الأمر . . أمر أن المسألة قد تكون على جانب من الصواب اذا ابتنيناها على الاساس الدنيوي والمصلحي للخلافة . . كما اعتقد ابن خلدون . . .

لقد اعتمد معاوية أسلوبين في إجبار الناس على البيعة . . الاسلوب الأول يكمن في شراء الأصوات بالمال . . كما ذكر ابن الأثير[١٣١] ، ان المغيرة أوفد مع ابنه موسى عشرة ممن يثق بهم من شيعة بني أمية ، وأعطاهم ثلاثين الف درهم . فقدموا عليه ، وزيّنوا له بيعة يزيد فقال : معاوية : لاتعجلوا بإظهار هذا ، وكونوا على رأيكم ، ثم قال لموسى سرّاً : بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ قال : بثلاثين الفا ، قال : لقد هان عليهم دينهم . .

ومنها أيضاً ما سبق اذ ذكرناه في حق بن عمر عندما بعث إليه معاوية بالمال لقاء البيعة . . وبهذا الاسلوب يكون معاوية قد بنى ملكه على حساب الدين . . ولم يبق أي مصلحة في ما رأه معاوية . . إنه يدرك قبلاً ، أن الدين عائق لبيعة ابنه يجب ان يشتري بالمال .

اما الأسلوب الثاني ، فهو الإكراه والتهديد . . وهذا ما اثبته المؤرخون من ان معاوية كان يهدد من خالف البيعة ويجزل عطاء من بايع[١٣٢] .

يقول ابن الاثير : وكان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه [١٣٣] .

والأن إليك ماجاء في التاريخ من أحداث واكبت أخذ البيعة ليزيد ونترك للقارىء حرية النظر فيها ليرى الى أي مدى كان ادعاء ابن خلدون لإجماع الصحابة وسكوتهم وتحري معاوية للمصلحة العامة . . مجرد ادعاء باطل .

روى ابن الاثير ان معاوية كتب الى مروان في بيعة يزيد ، فقام مروان خطيباً فقال :

---

(١٣١) ـ الكامل (٣ / ٥٠٤) .
(١٣٢) ـ العقد الفريد (٤ / ٣٦٨ ـ ٣٧٢) .
(١٣٣) ـ الكامل (٣ / ٥٠٨) .

ان أمير المؤمنين قد اختار لكم ، فلم يسأل ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده ، فقام عبدالرحمن بن أبي بكر ، فقال : كذبت والله يامروان ! وكذب معاوية ما الخيار اردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل ، فقال مروان : هذا الذي انزل الله فيه ، ﴿ **والذي قال لوالديه أف لكما** ﴾ ، فسمعت عائشة مقالته من وراء الحجاب ، فقامت من وراء الحجاب وقالت : يامروان ! يامروان ! فأنصت الناس ، وأقبل مروان بوجهه ، فقال : أنت القائل لعبدالرحمن أنّه نزل فيه القرآن ، كذبت والله ما هو به ، ولكنّه فلان بن فلان ، ولكنك فضض من لعنة الله .

وذكر ابو هلال العسكري ، أنه لما قالت عائشة ذلك كتب مروان الى معاوية بذلك ، فأقبل ، فلما دنى من المدينة استقبله أهلها ، فيهم عبدالله بن عمر ، وعبدالله ابن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبدالرحمن بن أبي بكر ، فلما رآهم سبهم واحد واحدا ، ودخل المدينة وخرج هؤلاء الرهط ، معتمرين ، ثم خرج معاوية حاجاً ، فاستقبلوه (. .) ثم قال : ألا تعلمون أني كنت قد عودتكم من نفسي عادة أكره أن أمنعكم إياها حتى أبين لكم ؟ إني كنت أتكلم بالكلام فتعرضون فيه ، وتردون علي ، وإياكم أن تعودوا ، وإنّي قائم فقائل مقالاً لا يعارضني فيه أحد منكم إلا ضربت عنقه . . ثم وكل بكل واحد منهم رجلين وقام خطيباً فقال : إن عبدالله بن عمر وابن الزبير والحسين بن علي وعبدالرحمن بن أبي بكر قد بايعوا ، فبايعوا ، فابتدر الناس يبايعون حتى اذا فرغ ركب نجائبه ، ومضى الى الشام ، وأقبل الناس على هؤلاء يلومونهم ، فقالوا : والله ما بايعنا ولكن فعل بنا ما فعل[١٣٤] .

وفي رواية لابن الاثير : فاني قد أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعذر من انذر ، إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فاحمل ذلك وأصفح وإنّي قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه .

---

(١٣٤) ـ الاوائل (١٦١) .

كذلك تمت بيعة يزيد . . بشراء الضمائر وإرهاب المعارضين . . وكيف يوافق ما رأينا من أمر بيعة يزيد ما ذهب إليه ابن خلدون . قائلاً : « والذي دعى معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعات المصلحة في اجتماع الناس ، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ »(١٣٥) .

لقد ادرك معاوية كما أكدنا سابقاً ، فسق إبنه . . وعلم أنه لا يصلح لحمل الناس على حكم الشريعة . . فيزيد هو ممن أشتهر فسقه واستهتاره . . وان العهد إليه بالأمر قد يسبب مفسدة للأمة ، وخراباً لبنيانها الشامخ . . لقد ذكر ابن كثير ان يزيد ، اشتهر بالمعازف وشرب الخمور والغناء والصيد واتخاذ القيان والكلاب والنطاح بين الأكباش والدباب والقرود وما من يوم إلّا ويصبح فيه مخموراً : وكان يشدّ القرد على فرس مسرّجة بحبال ويسوق به ويلبس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان وكان يسابق بين الخيل وكان اذا مات القرد حزن عليه وقيل أن سبب موته انّه حمل قردة وجعل ينقزها فعضّته(١٣٦) .

وذكر البلاذري : كان ليزيد بن معاوية قرد يجعله بين يديه ويكنّيه أبا قيس ، ويقول : هذا شيخ من بني اسرائيل اصاب خطيئة فمسخ وكان يسقيه النبيذ ويضحك مما يصنع وكان يحمله على أتان وحشية ويرسلها مع الخيل فيسبقها ، فحمله يوماً وجعل يقول :

تمسّك ابا قيس بفضل عنانها فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد سبقت به جياد أمير المؤمنين أتان(١٣٧)

وذكر أبو الفرج الأصفهاني ، ان يزيد بن معاوية كان أوّل من سنّ الملاهي في الاسلام من الخلفاء ، وأوى المغنين واظهر الفتك وشرب الخمر ، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه ، والأخطل وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه(١٣٨) .

---

(١٣٥) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢١) .
(١٣٦) ـ تاريخ ابن كثير (٨ / ٤٣٦) .
(١٣٧) ـ الأنساب / (ج ٤) القسم الأول (ص ٢) ، ومروج الذهب (٣ / ٧٧) .
(١٣٨) ـ الأغاني (١٦ / ٦٨) .

ولقد أتى به أبوه يطلب له البيعة ، وهو لايزال سكراناً ، وارسل معاوية يزيد الى الحج وقيل بل أخذه معه فجلس يزيد بالمدينة على شراب فاستأذن عليه عبدالله بن العباس والحسين بن علي فأمر بشرابه فرفع ، وقيل له : انّ ابن عباس ان وجد ريح شرابك عرفه ، فحجبه واذن للحسين ، فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب ، فقال : ما هذا ياابن معاوية ؟ فقال : ياأباعبدالله هذا طيب يصنع لنا بالشام ثم دعا بقدح فشربه ثم دعا بقدح آخر فقال : أسق ابا عبدالله ياغلام . فقال الحسين : عليك شرابك أيها المرء .. فقال يزيد :

ألا ياصاح للعجب دعوتك ثم لم تجب
الى الفتيات والشهوات والصهباء والطرب
وباطية مكلّلة عليها سادة العرب
وفيهن التي تبلت فؤادك ثمّ لم تتب

فوثب الحسين عليه وقال : بل فؤادك ياابن معاوية تبلت[١٣٩] .

فهذا ـ ياعزيزي القارىء ـ هو المصلحة التي توخاها معاوية للاسلام من خلال العهد لابنه .. وذاك هو الغلط الذي ارتكبه الحسين ـ حاشاه ـ في تاريخ ابن خلدون لما ثار ضد يزيد .. يزيد الذي بعثه ابوه سكراناً الى الحسين .. لتختلط عليه الأمور ويدعو حفيذ الانبياء وبحبوحة الطهر والتقوى الى السكر .. فيقول له :

ألا ياصاح للعجب دعوتك ثم لم تجب

ولو كانت « لا » فقط توجب القتل .. لكانت واجبه على هذا الوضع الذي تكثر فيه الجرأة على الاسلام ؟ فهل هذا يدع مجالا للشك في أمر يزيد ، أو التصديق بما انتحله ابن خلدون من أن أباه لم يكن على علم بذلك .

لقد بدل الوسع في تبرير تلك الأحداث .. ولو بأستضعاف الحقيقة الواضحة .. وعُمدَته في كل ذلك القياس مع الفارق ، والتصويب المبتذل ، وتسويغ التناقض .

---

(١٣٩) ـ الأغاني (١٦ / ٥٦٣١) . وابن الأثير (٤ / ١٢٧) .

ثم تعالى لكي نرشف من ذلك الكشكول الذي يبعث على الضحك والبكاء .. على النشوة والعرف .. على التسلي والاشمئزاز .. لنرى كيف يتسربل الكفر ببرد الايمان .. وكيف يرغم انفك الظالمون الذين عاشوا قبلنا .. وكيف تحاسَب على ظلمك ولا يحاسَب من سبقوك .. لقد نسي ابن خلدون ان يسمي ذلك صراعاً طبقياً بين طبقات التاريخ .. يقول(١٤٠) :

« هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين ، فهم خيّار الأمة ، واذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة ، والنبي (ص) يقول : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثاً ثم يفشو الكذب » ، فجعل الخيرة ، وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه . فاياك أن تعوّد نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ، ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم ، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك ؟ وما اختلفوا إلّا عن بينة ، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حقّ ، واعتقد مع ذلك انّ اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ، ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم ، ويجعله إمامه وهاديه ودليله . فانهم ذلك ؟ وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه ، واعلم انّه على كل شيء قدير وإليه الملجأ والمصير . والله تعالى أعلم » .

ان ابن خلدون عندما صادف « حديث الخلافة » « الخلافة بعدي ثلاثين » حكم بعدم صحته .. لأنه فيه تعرض لمعاوية .. وها هو يعطينا تحقيقاً ظالماً « العدالة مختصة بالقرن الأول » وهل قتل الحسين وهو ظلم بواح يدخل في ذلك العدل ؟! أو هل كان ذلك في سبيل جهاد أو أظهار حق كما ذكر .. وهل جهاد من يزيد أو إظهار حق منه لمّا جاء سكراناً الى الحسين .. يدعوه الى البيعة والخمر معاً . وهل إن ذلك الإختلاف الخطير رحمة كما زعم .. إو أن لكل الحروب والمعارك الدامية كانت رحمة لنا ... مثلما جعل الله رحمته ومغفرته لآدم في إراقة دم المسيح ، في العقيدة النصرانية .

هل الحق حق واحد .. ام له وجوه ، وبطون .. لشدّ ما شطح ابن خلدون ! .

(١٤٠) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٣٠) .

شبهات ابن خلدون والرد عليها

في الفصل السابع والعشرين من المقدمة ، خصص ابن خلدون حديثاً طويلاً عن مذاهب الشيعة في حكم الامامة ضمنه تحامل شديد على مذاهبهم التي قسمها حسب ماجرت عليه اهواء أصحاب الملل والنحل والتراجم الى فرق متعددة كان ابن خلدون فيها مجرد مقلد متعصب لمذهبه تبنى الطعون الناصبية على علاتها وقذف بها ذات اليمين وذات الشمال .

والحق أقول ، أن ابن خلدون كان أكثر تعسفاً وتعصباً من المظنون فيه وأكثر سطحية عناداً مما اشتهر به من نفاذ البصيرة وثاقب النظر .

يبدأ بتعريف لغوي للشيعة ويلخص نظرتهم في الامامة في أنها ركن الدين وقاعدة الاسلام ثم يقول بعدها : « وأن عليّا رضى الله عنه هو الذي عيّنه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لايعرفها جهابذة السنة ولانقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة »(*) .

وهنا لابد أن نستفسر ابن خلدون عن هذه النصوص التي ينقلها الشيعة ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، يقول :

وتنقسم هذه النصوص عندهم الى جلي وخفي : فالجلي مثل قوله :

(*) نفس المصدر ج ١ ، ص ٢٠٧ .

« من كنت مولاه فعلي مولاه » .

هذا هو الجلي من نصوصهم وعلى الرغم من ان ابن خلدون ادعى أنها من النصوص التي لاتصح أو تؤول على غير وجهها فإنه لم يتطرق الى سندها ولم يباشر في تأويلها على الوجه المطلوب . كما هو دأبه في الرد على مايقوى عليه ، انه اكتفى بالإدعاء وذلك مما لايغفر على محقق كبير في مستوى ابن خلدون ، فمقتضى قوله ان هذه النصوص المنقولة اما انها لايعرفها جهابذة السنة ونقلة الشريعة موضوعة أو مطعون فيها أو انها مؤولة على نحو فاسد .

وهنا لابد من التركيز على كلمة « جهابذة السنة ونقلة الشريعة » ذلك اننا اذا استنطقنا تراث ابن خلدون عمن هم من تلك المقامات لأجاب على الفور انهم الطبري واليعقوبي والمسعودي من رواة التاريخ وثقاته . وقافلة المحدثين وأصحاب الصحاح الستة من رواة السنة .

ولايخفى على الباحث الى أي حد من الاسراف هو هذا الادعاء . فحديث الولاية المعروف بحديث الغدير . هو من المشهورات عند نقلة الشريعة ، وحسبك ان لم تخلُ منه كتب المشاهير من مؤرخي ورواة الأخبار بمن فيهم ناصبيها الكبار ، كصاحب الصواعق المحرقة ، وابن كثير .

وقبل أن نذكر مختلف الطرق التي روي بها الحديث وتواتر عليها ، لابد من أن نحصي عدد رواته .

ذكر صاحب كتاب الغدير ـ عبد الحسين الأميني ـ ان عدد رواته من العلماء ستون وثلاث مئة (٣٦٠) وان عدد رواته من التابعين أربع وثمانين (٨٤) ومن الصحابة ، مئة وعشر (١١٠)[١٤١] .

وقد ذكره نقلة الأخبار بأسانيد وطرق مختلفة ، فمن المؤرخين ذكره الطبري في مؤلفه الخاص ، وابن كثير في التاريخ وابن الأثير في أسد الغابة وابن عساكر في الاوائل ، كما رواه من أعلام المحدثين أحمد بن حنبل ، النسائي ، الحاكم ، والحافظ بن حجر ، والطبراني .

---

(١٤١) ـ الغدير (١ / ٦٠) و (٧٢ / ١٥١)

ومن المتعصبين الذين اعترفوا بتواتره وصحته ، صاحب الصواعق المحرقة بن حجر الهيثمي والذهبي وابن كثير ، اذ قال : شيخنا ابوعبدالله الذهبي ، وهذا حديث صحيح .

وحسبك ان يكون ابن جرير الطبري كبير الممدوحين والمعتمدين لدى ابن خلدون ،قد أفرد لهذا الحديث كتاباً خاصاً سماه « الولاية » من خمسة وسبعين طريقا .

وهاك بعضاً من تلك الطرق التي روي بها :

ذكر الحاكم في مستدركه عن زيد بن أرقم من طريقين : قال لما رجع رسول الله (ص) من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقمن فقال : كأني دعيت فأجبت وإني قد تركت فيكم الثقلين : أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله تعالى وعترتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ،فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ثم قال :

إن الله عزوجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن ثم أخذ بيد علي فقال من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وذكر الحديث بطوله ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص .

ورواه الامام احمد بن حنبل[١٤٢] :

عن البراء بن عازب من طريقين ايضا ، قال : « كنا مع رسول الله فنزلنا بغدير خم فنودي فينا الصلاة جامعة ،وكسح لرسول الله (ص) تحت شجرتين فصلى الظهر وأخذ بيد علي فقال : ألستم تعلمون اني أولى بالمؤمنين من انفسهم ،قالوا بلى ، قال : ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ،قالوا : بلى قال : فأخذ بيد علي فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه قال فلقيه عمر بعد ذلك فقال له : هنيئا ياابن ابي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة » .

وفي رواية أخرجها الطبراني وصححها ابن حجر عن زيد بن أرقم قال :

---

(١٤٢) ـ مسند أحمد (٤ / ٢٨١) .

خطب رسول الله (ص) بغدير خم تحت شجرات فقال :

« أيها الناس يوشك أن أدعى فأجيب واني مسؤول وانكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيرا فقال : أليس تشهدون أن لاإله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق وأن الموت حق وأن البعث حق بعد الموت وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور قالوا بلى نشهد بذلك قال : اللهم اشهد ثم قال : فمن كنت مولاه فهذا مولاه ـ يعني عليا ـ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .[١٤٣] .

وذكره النسائي عن عائشة بنت سعد قالت سمعت ابي يقول سمعت رسول الله (ص) يوم الجحفة فأخذ بيد علي وخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس اني وليكم قالوا صدقت يارسول الله ثم رفع يد علي فقال هذا وليي ويؤدي عني ديني وأنا موالي من والاه ومعادي من عاداه .

هذه نماذج يسيرة جدا فيما لو قيست بخضم المرويات التي لاطائل من ذكرها هنا ، وقد بلغ التواتر بها حدّاً أضحى كلاما يجرى على ألسن كبار الشعراء وتتلقاه الآذان من دون رد ولا استغراب .

قال ابوتمام :

ويوم الغدير استوضح الحق أهله	بفيحاء مافيها حجاب ولاستر
أقام رسول الله يدعوهم بها	ليقر بهم عرف وينآهم نكر
يمد بضبعيه ويعلم أنه	وليّ ومولاكم فهل لكم خبر
يروح ويغدو بالبيان لمعشر	يروح بهم غمر ويغدو بهم غمر
فكان له جهر بإثبات حقه	وكان لهم في بزّهم حقّه جهر
أثم جعلتم حظه حدّ مرهف	من البيض يوما حظ صاحبه القبر[١٤٤]

وان كان ابن خلدون يعتقد ان بعضا من تلك المرويات خاضعة لفساد تأويل الرافضة لها ، فهب اننا أعفيناه من ادعاء الطعن في صحة اسناد الحديث فماذا يكون الأمر ياترى ، فيما لو حملناه على فساد التأويل ، ان التأويل الفاسد هو ذلك

(١٤٣) ـ الخصائص (ص ٢٥) في باب الترغيب في موالاته والترهيب من معاداته .

(١٤٤) ـ ديوان أبي تمام (١٤٣) والغدير (٢ / ٣٣٠) .

الذي يبتعد كثيرا بالنص عن معناه الواضح والظاهر من دون قرينة تشد ظهره ، وحديث الولاية ، مما تيسر فهمه ،لوضوح منطوقه وامتناع مفهومه عن التعمل والتكلف ، ولم يسع الى تأويل هذا الحديث الا بعض من النواصب المتعصبين من العامة ، وإن الرافضة على عكس ماادعاه ابن خلدون ، لم يؤولوه .

ولو اننا قبلنا الخوض في مثل هذه الترهات التي لاسند من العقل ينهض بدليلتيها . لاختزلناها في كبير النواصب بن حجر الهيثمي ، الذي قبل الحديث وصححه ، وراح وراء تأويله الفاسد .

وهاك مارامه من تأويل لكي نعلم أي الحزبين أكثر تقلبا في فساد التأويل .

يقول ابن حجر في الصواعق المحرقة : « لانسلم ان معنى الولي ماذكروه ،بل معناه الناصر والمحبوب ، وهو حقيقة في كل منها ،وتعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لايعتد به ، وتعميمه في مفاهيمه كلها لايسوغ »(١٤٥) .

ولاأظن أن ابن خلدون ،وابن حجر ، يجهلان معنى المشترك اللفظي .

ان ثمة معايير أتقنها أهل اللغة والحديث . في تأويل ذلك النوع من الألفاظ .

وأنه لمن السخف والعار أن يدعي أن الحقيقة موجودة في كل معانيه ، في مقام حديث الغدير من دون الاشارة الى القرينة كشرط في تخصيص معناه . فابن حجر يريد أن يقول :

١ ـ لانسلم بأن معنى الولي ماذكروه ، بل معناه الناصر والمحبوب .

٢ ـ تعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لايعتد به وتعميمه في مفاهيم كلها لايسوغ .

لو سألنا ابن خلدون عن أفضل من تعاطى مع حديث الغدير بالتأويل الحسن ، لقال ابن حجر لما يدل عليه الحال من ادعاء ابن خلدون فدعنا هنا نعالج ماقاله ابن حجر .

في العبارة الاولى هناك مجازفة تنطوي على جهل وقلة علم ، فقوله :

---

(١٤٥) ـ الصواعق المحرقة (٤٣) .

لانسلم بان معنى الولي ماذكروه ، يخفي موقف التمذهب ، لأن التسليم في هذه المقامات ليس من اختيار الاهواء النفسية والمذهبية ، بقدر ماهو تقرير العلم ، فاختياره الناصر والمحبوب هو ايضا مما يثقل تقبله على العقل ، لأنه لادليل يقتضيه ، وهو من قال : تعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لايعتد به ، كما أن معنى الناصر والمحبوب هي أبعد المعاني عن مفهوم الولي من الامامة نفسها ، والقرائن على ذلك ظاهرة ، يدل عليها الحال من خطبة الرسول (ص) وظروفها النفسية والتاريخية .

فتاريخ الخطبة تزامن مع نهاية وختم الرسالة ، وعلى أثرها نزل الوحي معلنا بإكمال الدين . وجغرافيتها منطقة نائية ،وطقس حار . كل هذا لايدل على أن المقام ، هو مقام حديث عن المحبة والنصرة .

هذا بغض النظر عن عدم وفاء أصحابه بالمحبة والنصرة . بل وإنه حتى على أساس هذا التأويل يبقى ابن خلدون محاصرا بحرج شديد . في أمر الأمويين الذين لم يحبوا ولم ينصروا علياً (ع) .

وهكذا يكون الجلي من نصوص الشيعة جليّا حقيقة . ولامهرب بعد ذلك من إقامة الحد على الادعاء الخلدوني . جزاءً وفاقاً لما رامه من تهريج يمجه طبع الغرير .

وفي مورد آخر يتعرض ابن خلدون لما تدعيه الشيعة من وصية الرسول (ص) للامام علي (ع) قال :

« والأمر الثاني هو شأن العهد من النبي (ص) وماتدعيه الشيعة من وصية لعلي (رض) وهو أمر لم يصح ولانَقَلَهُ أحد من أئمة النقل »[١٤٦] .

وقد تبين في ماذكرنا آنفا تواتر حديث الغدير وبؤس التأويل الذي حملوا عليه لفظه ، وإضافة الى ذلك الحديث ، هناك ماكنا سقناه في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، والتي تعددت حتى فرضت تواترها على رواة الحديث من العامة . وحسبك من ذيوع خبر الوصية أن الشعراء تغنت به في مختلف المعارك التي شهدها

(١٤٦) ـ مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤) .

الامام علي (ع) وان ذلك كان من مختصاته .

حتى قال فيه حسان بن ثابت :

جزى الله عنا والجزاء بكفه أبا حسن عنّا ومن كأبي حسن
حفظت رسول الله فينا وعهده إليك ومن أولى به منك من ومن
ألست أخاه في الهدى ووصيّه وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن(١٤٧)

وحتى قال فيه أحد أعداءه في حرب الجمل وهو من ضبّة :

نحن بنو ضبّة أعداء عليّ ذاك الذي يعرف قُدماً بالوصيّ(١٤٨)

وقول الكميت(١٤٩) :

والوصيّ الذي أمال التجو بي به عرش أمة لانهدام

وقول السيد الحميري(١٥٠) :

والله منّ عليهم بمحمد وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
ثم انبروا لوصيّه و وليّه بالمنكرات فجرعوه العلقما

وقول المتنبي(١٥١) :

وتركت مدحي للوصيّ تعمداً إذ كان نورا مستطيلا شاملا
واذا استقل الشيء قام بذاته وصفات نور الشمس تذهب باطلا

وكذلك اختص الامام بهذا اللقب ، وكان نشيداً على ألسنتهم كما قدمنا . فكيف مع كل هذا يدعي ابن خلدون ان ذلك لم يصح . ويااليته قال ذلك وكفى . بل زاد الطين بلة حين ادعى للهوه أنه « ولانقله أحد من أئمة النقل » .

وقدأثبتنا بقاطع البرهان ، أن المؤرخين المعتمدين عند ابن خلدون ، قد ذكروا روايات عن الوصية ومنهم اليعقوبي في تاريخه ، بل ان مؤرخين كالطبري

---

(١٤٧) ـ اليعقوبي (١٢٨/٢) وشرح النهج (٦ / ٣٥) .
(١٤٨) ـ شرح النهج (١ / ١٤٤) .
(١٤٩) ـ الكامل (٢ / ١٥١) .
(١٥٠) ـ الأغاني (٩ / ٤) .
(١٥١) ـ ديوان المتنبي .

والمسعودي وهما العمدة عنده ، افردوا لحديث الوصية كتابين خاصين ، ابن جرير الطبري سماه « الولاية » كما ذكرنا ، والمسعودي سماه « اثبات الوصية » هذا مع ان الصحاح الستة تطفح بما يخرص الألسن من الروايات المؤكدة لوصيتهم .

لقد أورد ابن خلدون حديث الدواة ، مدعياً ان ذلك دليل على عدم الوصية . وأضاف الى ذلك بعضاً من شطحاته التي انتهت به الى القدح في شخص الامام علي (ع) بإيراد رواية شاذة جداً ، يدل على ضعفها الحال من سلوك الامام علي ومواقفه في قضية الخلافة ، قال : والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه لم يقع ، وكذا قول عمر (رض) حين طعن وسئل في العهد فقال : إن اعهد لقد عهد من هو خير مني يعني أبابكر ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي (ص) لم يعهد ، وكذلك قول علي للعباس (رض) عنهما حين دعاه للدخول الى النبي (ص) يسألانه عن شأنهما في العهد ، فأبى علي من ذلك وقال :

« إنه ان منعنا منها فلانطمع فيها آخر الدهر ؟ وهذا دليل على أن عليا علم أنه لم يوصِ ولاعهد الى أحد »[١٥٢] .

وقد سبق أن تعرضنا الى تفاصيل الحدث الذي سماه ابن عباس بالرزية .

وابن خلدون طوى كشحاً عن تسمية الحديث بما يشير الى ملابساته وخطورة معناه .

وكأن ابن خلدون هو أدرى من ابن عباس بالمغزى من حديث الدواة . لذا استسهل وهوّن لما استفضعه ابن عباس ، ولم يتعرض ايضاً لقول الرسول (ص) وكيف ردّ عليه عمر ، وكيف أن الرسول (ص) غضب لذلك وطلب منهم الخروج ، والحال كان يجسد قرينة على امتناع عمر عن الاستجابة لطلب الرسول (ص) وليس قرينة على أنه لم يدل على الوصية لعدم وقوعه ، فعدم وقوع الوصية يوم الخميس هو قرينة على حقيقة الاغتصاب ، لاعلى عدم الوصية ، وقد سبق أن حللنا المسألة .

---

(١٥٢) ـ مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤) .

وبعدها لم يجد ابن خلدون في نفسه حرجا مما أقدم عليه من اتهام لشخص الامام علي (ع) في أنه امتنع عن الاستجابة للعباس حرصاً على طلب الخلافة وهو أمر يكفي رده بما سبق أن ذكرناه ، ولا أدلّ على ذلك من موقف الامام علي (ع) فلو كان الأمر كذلك ، اذن لما جرى له من صراع مع الخلفاء ولما حارب من أجل استرداد مارآه حقاً مغتصباً .

وهذا لعمري ، هو عين التحريف ، وقلب الحقائق على خياشيمها .

يزيد ابن خلدون كلامه ، بهذه العبارة التي تلخص نظريته المتداعية حول الامامة :

« وشبهة الامامية في ذلك إنما في كون الإمامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك ، وإنما هي من المصالح العامة المفوّضة الى نظر الخلق .

ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ، ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبابكر في الصلاة ، ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة »[١٥٣] .

ولعل الشبهة التي دفعت ابن خلدون الى جمع ماشذّ من أخبار في تصويب تيار الغلبة هو اعتبار الامامة أمراً ثانوياً متروكاً للمصلحة وحتمية الغلبة ، وهي الشبهة ايضا التي أكبت ابن خلدون على وجهه ليلعق طرق التدليس والتلبيس على صحون التصويب والأقيسة الرديئة ! .

لقد قاس الامامة على الصلاة ، واعتبر الاولى أقل شأناً من الثانية ، متناسياً أن لاقيمة للصلاة اذا لم تكن على أساس من الولاية ، مما يقيم صرح كل العبادات ، وأي دين بقي لهم عندما زحزحوا الولاية الشرعية عن أهلها .

واعتبر عدم شهرة الوصية مقابل شهرة الصلاة ، كدليل على عدم وقوع الاولى ، وشبهته في ذلك واضحة ، ذلك أن الشهرة لاتجبر الضعيف ، وربّ حديث تواتر نقله على ألسن الغوغاء وهو في أصله من مرفوعات الوضاعين ، ورب حديث صحيح صريح ، استضعفته يد السلطان ، فصار في دهاليز الآحاد ، وهبنا قبلنا طريقة برهانه ، فإن أحاديث الوصية كما ذكرنا هي مما اشتهر وتواتر ، وان

---

(١٥٣) ـ مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤) .

حديث الصلاة رغم انه لايفيد في هذا المقام هو مما شذّ وضعف فأي شهرة باتت لحديث الصلاة ، وبأي حديث انتم مؤمنون ! .

ويشط النصب بابن خلدون فيقرر :

ويدل ذلك ايضا على أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم(١٥٤) .

ويقول :

« فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي (ص) غير مهمة ، فلم يعهد فيها . ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء »(١٥٥) .

اي ان الإمامة لم تكن ذات أهمية الا مع تدهور الوازع الديني وذهاب الوصي وغياب المعجزة ، وحلول العصبية محل ذلك ، وهذا لعمري تناقض كبير ، فها هو يعتبر أن الإمامة لم تكن تقوم على العصبية ، ويعترف فيما سبق من كلام بما جرى من جدال داخل السقيفة على أساس أن الفريقين كانا يجادلان بالانتساب الى العشيرة ، كانتساب ابي بكر لقريش وردّ عمر على الانصار بنفس المنطق .

وليتني عرفت أي طريق يسلك ابن خلدون لأقتفي آثاره ، ومن أي معين يغترف تبريره لكي أضبط قصده ، اذ كيف تكون الإمامة غير مهمة في تلك الفترة ، وهي مما أثار أشد الخلافات بعد رسول الله (ص) وفيها يقول الشهرستاني : « أذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان »(١٥٦) .

ولو لم تكن مهمة لما قاتل عليها الصحابة وجادلوا فيها بعضهم بعضا ، ان ابن خلدون لم يكن ـ حقيقة ـ يفهم شيئا غير منطق الغلبة والقوة ، فأصبح الشرع عنده لايدرك الا من هذه الزاوية البشعة .

وهكذا يتوضح لك ـ عزيزي القارىء ـ أن ابن خلدون لم يكن محققا ولا موضوعيا فيما ذهب اليه في هذا الأمر . لقد رقع غير مرة حتى اتسعت الرقعة على

---

(١٥٤) ـ مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤) .

(١٥٥) ـ مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٥) .

(١٥٦) ـ الملل والنحل : ٦ .

راقعها ، وزيف الأحداث بنوع من السخف يثير على القرف والغثيان .

وانه مافعل ذلك اذ فعله الا دفاعاً عن مذهبه ، لا دفاعاً عن الحقيقة المقدسة ، وهو الذي قال بعد سلسلة من التحريفات ، فلايقعنّ عندك ريب في عدالة أحد منهم ، ولاقدح في شيء من ذلك ، فهم من علمت ، وأقوالهم وأفعالهم إنما هي عن المستندات ، وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة ، الا قولا للمعتزلة فيمن قاتل عليّا لم يلتفت اليه أحد من أهل الحق ولاعرّج عليه[١٥٧] .

فالحق عنده هو مااستقر عليه مذهبه ، وأهل الحق هم من انتسب لفريقه ، فأهل الحق على أساس إدعائه هم وحدهم أهل السنة ، وهذا بهتان عظيم .

وقد كان كلامنا عن ابن خلدون ، لأنه من أشهر المؤرخين الذين حاولوا أن يفلسفوا الإمامة عند أهل السنة ، وحاولوا تأسيسها نظريا ، انطلاقا من مجريات واقع الخلافة وواقع تداعياتها بكثير من التحريف والتزوير .

كان ابن خلدون بلاشك ، أشبه بميكيافيلي في موقفه من الأمير .

(١٥٧) ـ تاريخ ابن خلدون (١ / ٢٢٦) .



الباب الثالث

عبقريات في الميزان



أوهام .. مقدمة

لاأقصد من خلال هذا المبحث ، النيل من أصحاب القداسة ، حُباً في التجري على المقدس ، ونزوعا الى الثورة على الأوضاع ، ورغبة في التغيير الفوضوي للمفاهيم والقناعات ، إنها نتيجة موضوعية لنظر دقيق في التاريخ ، بنوع من الاستقلال ونحو من التجرد . . وغاية نبيلة من وراء ذلك ، وهو انقاذ العقول من تقديس البطل الوهمي ، وعبادته ، وهؤلاء العباقرة الذين نتوخى دراسة أخبارهم ، ليسوا وهميين في اشخاصهم ، فأبوبكر الذي هو من تيم والذي مات من أثر السم ، وعمر من عدي ، الذي قتل في المسجد ، وعثمان من بني أمية المقتول يوم الدار ، ليسوا وهميين من ناحية تشخيصية ، فكل ذلك واقعي وحقيقي ، انما الاشخاص الوهميين عندنا ، هو عندما تسود النظرة الاسطورية لهؤلاء الاشخاص ، وتتعاظم صورتهم بشكل تكثر فيه المبالغة ، عظمة تفوق أحيانا ، عظمة الأنبياء والمرسلين .

ولمن رام ذلك عذره ، فقد حاولوا ذلك حتى يرمموا مافسد ، ويضمدوا جرح التاريخ ويلموا شعثه ، ولكن مالنا وتلك الأعذار ، نحن طلاب حقيقة ولسنا طلاب تبرير .

وهكذا استنجد ربي على من غلط في حقنا ، وأساء الظن في قصدنا ، ورمى الحقيقة من وراء ظهره ، ألّا يكون علينا ان شاء الله شديداً .

ومادام بحثنا يصب في قالب الخلافة والتحريف ، ارتأينا اختيار نموذج لتلك

الكتابات التي تمت فيها المبالغة الزائدة في تصوير الخلفاء ، بناء على معطيات مهزوزة ، فوجدنا كتابات العقاد نموذجا لذلك ، فهي تحبك أرقى العبارات الأدبية حول تلك الشخصيات ، رُويت استجابة لتلك الأعذار التي ذكرناها .

العبقرية

أتساءل أحيانا عمن هو العبقري ؟ أهو العقاد ـ نفسه ـ عندما جعل من الاسطورة ، حقيقة . بأدبه الراقي وشاعريته المرهفة . أم أشخاصه الذين تعرض لهم وسماهم عباقرة .

وليعذرني الأديب العربي القدير . على هذه الجرأة التي لاتحجب مقدرة الرجل وعظمة إبداعه . ولقد كان أجاد رحمه الله وصف علي (ع) في عبقريته ، والحسين (ع) في أبي الشهداء والزهراء في فاطمة والفاطميون . ولمن أوتي ملكة التمييز وذائقة القراءة الحرة . يمكن أن يكتشف مدى مغالاة العقاد في الشيخين ، وكأن العياء بدا يصيب أديبنا في نهاية المطاف .

وليعذرني الأديب العربي الذي قدرنا عظمة ابداعه ، واغترفنا من معين أدبه ، أن لايؤاخذنا ونحن ننسف الاسس التي أقام عليها مباني عبقريته ، وصروح أبطاله ، فرحمة الله عليه لم يكن يعلم أن التصوير الفني الزائد لمثل هؤلاء الاشخاص قد يتحول الى دين . فلنضح هذه المرة ، بالأدب في سبيل اعلاء راية التحقيق فان ثمرة ذلك أعم نفعاً وذات ايجابية على أمتنا .

فما هي العبقرية . . . ومن هو العبقري ؟ .

العبقرية مفهوم معقد . لأنه ينطبق على اشخاص معقدين . ليس معنى ذلك على نحو ماتعارف عليه أطباء النفس الانسانية . وإنما العقدة هنا منظور اليها من

ناحية تظافر معاني العبقرية واشتباك دلالاتها .

العبقري هو ذلك الذي شحذ ملكاته كلها بموهبة خارقة ، وجعلها بحيث تكون حالة من حالاته الدائمة ، وحالة من حالاته الشمولية ، فهو عبقري ، لأنه دائم السمو والابداع والخلق ، ولأنه شامل في كل هذا ، فهو سامٍ بكل ماتعني كلمة سمو ، في الروح والعقل والبدن ، وبهذا الاعتبار كان عدد العباقرة معدودا على الأصابع ، ونادرا كندرة الكبريت الأحمر ! .

والعبقرية أيضا ينظر اليها في محيطها الجغرافي وبيئتها الاجتماعية ، وطورها التاريخي فهي لها مايميزها عن العبقرية في بلاد الاغريق ، أو في بلاد فارس ، ذلك أن أجواء الصحراء العربية ومايميز ساكنتها من خشونة في الطباع ،وانقسام في الاجتماع ، وتنقل عبر الكثبان الرملية البعيدة والمرهقة بخيامها المنتصبة وإبلها المتسيبة وأشعارها وأرجازها . ليست هي إغريقيا أو أثينا أورقورينا . بتماثيلها ومسارحها وحكمها . وينقلنا الى تلك المفارقة ماجرى بين الطبيب اليوناني والامام علي (ع)[1] .

فهذا الطبيب اليوناني ، بالاضافة الى شركه وجهله المسبق بحقائق هذه الشخصيات ، لم يكن مستهزئا ولاحاقداً ، انه عالم من علماء الطب الحكمي . جاء متشبعاً بنظرة الاغارقة للجمال كما تمثله ايقوناتهم وكما برز في نحوتهم . الساق العامرة الممتلئة ، والانسجام العضلي الدقيق كما تبدعه أنامل النحاة في بلاد الاغريق ، وكان ذلك الطبيب يرى ان ماينقص عظمة الامام علي (ع) هو هذه الساق الدقيقة النحيلة وعدم الانسجام بين بطنه وساقه ، كانت هذه النظرة تختلف عن نظرة عبقري آخر ، ابن الجزيرة العربية ، متشبعاً بقيم سماوية تبعث في سمو الروح وقوة الباطن وجمال الخلق الاجتماعي ، وتجد بديلا عن حسن المراسم والقسمات ومضة النور التي تخرج الذات من ظلمتها وتكسبها جمالا أخاذاً ، يخاطب النظر والروح معاً ، انها مفارقة ، تجعل من معاني العبقرية أمراً معقداً للغاية ، والعقاد وهو يأخذ على نفسه العمل على ابراز جانب العبقرية من الخلفاء ، كان بلاشك يحاول استغلال جمال التصوير الأدبي لشخصيات وهمية

---

(١) ـ الاحتجاج / الطبرسي (ص ٣٥) .

لاتنطبق على واقعها التاريخي وكأنه امام اسطورة من أساطير اليونان ، يحاول إعادة رسم صورتها الأدبية ، فجعل من أبي بكر وعمر وعثمان عباقرة لاتدركهم الألباب ولاتحيط بهم العقول ، ودأب مؤرخون وأدباء مشغوفون بالتصوير الفني للشخصية التاريخية ،ان يجعلوا لهذه الجماعة مميزات وخصائص ترقى بهم الى مصاف أولي الشأن ممن يندر لهم نظير من بين جحافل العامة .

وكان العقاد في عبقرياته ممن سافر تبعيدا في حبك تلك الصور ، وممن اتقن بفعل نبوغه وثقافته النوعية رسم صورة فنية وضبط مفاتيح لشخصياته .

ومما لاشك فيه أن القارىء يمكنه الخروج بمجموعة أوصاف ومميزات تكرست في مؤلفات العقاد حول الشيخين وعثمان ، وسوف نبينها في المخطط التالي :

ابوبكر :

صدقه (الصديق) ـ التقوى والورع ـ التفقه في الدين والعلم الغزير .

عمر :

التمسك الشديد بأحكام الدين .

العدل . شجاعته في دحر الباطل .

عثمان :

سخاءه وعطاءه ـ تقواه وزهده ـ حياءه المتميز .

هذه باختصار مميزات عبقريات العقاد . وهي مما كرسته المدرسة الأموية في سبيل تكثيف مميزاتهم لحجب قيمة الامام علي (ع) وأهل البيت (ع) ، ولاشك ونحن نعالج موضوعنا ، ان مميزات عباقرة العقاد ، تتجاوز في سموها وعظمتها تلك المميزات التي اعترفوا بها للرسول الأعظم (ص) .

وسوف يكون منهجنا في كسر هذه الاصنام الوهمية ، هو التركيز على الأساس الذي انبنت عليه عبقرياتهم الموهومة ، لإعادتهم الى اشكالهم الحقيقية .

فالقصد عندنا هو احقاق وتطهير التاريخ من تزوير المؤرخين ومبالغة الأدباء ، والله مالك أمره .

الذاكرة ..أساس الشخصية !

تكمن عدالة الاسلام في رفع التكليف عما يتعلق بالذاكرة ، اذا صمم المسلم على تجاوزها في حالة مخالفتها لصريح الاحكام الشرعية ، وذلك مرجعه الى واقعية التقدير الذي يكنه الاسلام للانسان ، فهو ينظر اليه مجردا من ماضيه الشركي مثلا ، وفي كلامنا عن الخلفاء نضطر الى استحضار بعض من تاريخهم ليس من أجل تحميلهم اياه ومحاكمتهم من خلال ذاكرتهم الجاهلية . انما لسببين ضروريين :

أولا : من أجل معرفة مدى عزوفهم عنها ، اذ أن الحفاظ على بعض من تلك القيم الجاهلية يجعل من الحق التعرض لهم والحكم عليهم من خلال ماضيهم ، لأنه ـ اذ ذاك ـ يشكل رافداً حقيقياً لسلوكهم .

ثانيا : لأنه مهما كان الأمر ، فان التاريخ ضروري لضبط معايير الشخصية واحراز العلم بمفاتيحها الحقيقية ولأنه اذا لم يخلُ من تلوث ، فانه يتحول الى رافد لاشعوري لسلوك الانسان .

ولنبدأ قبل كل شيء بقضية أساسية ، لها علاقة مهمة بالتوازن الشخصي وهي قضية الخمر في الجاهلية ، فكما سبق أن أكدنا ، فان الخمر لم تكن من عادة سادة العرب ، كشأن بني هاشم مثلا ، بقدر ماهي عادة لأذل أحياءها .

ولنرَ كيف ان الخمر تمكنت من الشيخين . وكيف انهم ابوا الانتهاء عنها حتى

اصبحت حرمتها واضحة للجميع . بل كما سنرى انها ظلت متمكنة من بعضهم الى آخر أيامه . كل ذلك لنزعزع الأساس الذي قامت عليه عبقريتهم . أساس الورع ومايترتب عليه من قيم وسجايا .

لقد ثبت أن أبا بكر كان مدمنا على الخمر والقمار في أيام الجاهلية ، وهذا يخالف ادعاء بعض المؤرخين ، من أنه كان سيدا وقورا في قومه قبل الاسلام ، ومن انه كان متورعا عن كثير من الصفات والأخلاق الجاهلية .

وهناك أحاديث كثيرة تثبت ذلك وعلى رأسها حديث أبي القموص الذي أخرجه الطبري في تفسيره عن ابي بشار ، قال : « عن أبي بشار عن عبدالوهاب عن عوف عن أبي القموص زيد بن علي قال :[٢] أنزل الله عزوجل في الخمر ثلاث مرات ، فأول ماأنزل قال الله : ﴿ **يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ قال : فشربها من المسلمين من شاء الله منهم على ذلك حتى شرب رجلان فدخلا في الصلاة فجعلا يهجران كلاماً لايدري عوف ماهو أنزل الله عزوجل فيها : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون** ﴾ فشربها منهم وجعلوا يتقونها عند الصلاة حتى شربها فيها زعم أبوالقموص ان رجلاً ينوح على قتلى بدر :

تحيى بالسلامة ام عمرو	وهل لك بعد رهط من سلام ؟
ذريني اصطبح بكراً فاني	رأيت الموت نقب عن هشام
وود بنو المغيرة لو فدوه	بألف من رجال أو سوام
كأني بالطوى بدر	من الشيزى يكلل بالسنام
كأني بالطوى طوي بدر	من الفتيان والحلل الكرام

قال : فبلغ ذلك رسول الله (ص) فجاء فزعاً يجر رداءه من الفزع حتى انتهى اليه لما عاينه الرجل فرفع رسول الله (ص) شيئاً كان بيده ليضربه قال : أعوذ بالله من غضب الله ورسوله والله لاأطعمها أبداً فأنزل الله تحريمها » .

في هذه الرواية ، كلام عن رجل مجهول ، شرب الخمر فراح يرثي قتلى بدر من الكفار والمشركين .

---

(٢) ـ تفسير الطبري (ج ٢ ص ٢٠٣) .

وفي إخفاء اسم هذا الرجل تكمن دلالة كبيرة ، هي ان ثمة محاولات عدة لإخفاء فضائح الشيخين والكثير ممن حسبوهم من الصحابة ، وتدل قرينة الحال على أن أبابكر هو ذلك الرجل المجهول ، على طريقة الطبري الذي أخفى أكثر من مرة أسماء هم على غرار حديث الدار . وسوف نعرض لبعض من تلك الروايات التي ذكر اسمه فيها ليكون حكمنا على علم ويقين .

لقد جاء في رواية البزّاز عن انس بن مالك قال : كنت ساقي القوم تيناً وزبيباً خلطناهما جميعا وكان في القوم رجل يقال له : أبوبكر فلما شرب قال :

أحيي أم بكر بالسلام وهل لك بعد قومك من سلام ؟
يحدثنا الرسول بأن سحتا وكيف حياة أصل أو هشام[٣]

وهذا خلاف لما ادّعاه البعض ، من أنه حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية والاسلام .

لقد اردت من هذا كله ، ايجاد مفتاح لفهم حقيقة شخصية ابي بكر قبل الولوج في زعزعة الصورة الاسطورية التي أهدتها اياه اقلام المحرفين . ذلك لما يمثله الادمان على الخمر في النفوس . فلقد كانت هذه من أقبح سلوكيات البشر على مر السنين وأخسها ، وقد ذُمّ الخمر حتى في أساطير الاولين ، وكانت تمثل رمزاً للانحطاط والخسة والمهانة .

ثم ماذا عن تلك الاسس التي اقام صرحها المؤرخون والادباء في حق ابي بكر وعلى رأسهم صاحب عبقرية الصديق ؟ .

كان أهم مفتاح من مفاتيح العبقرية البكرية ، هو الصدق . . ومن ذلك سماها العقاد ـ عبقرية الصديق ـ فلنلقِ نظرة سريعة عن واقع هذا المفتاح للوقوف على مصداقيته .

الصدق والصديق . . أية علاقة .

في بداية كلامنا نطرح اعتقادنا حول تعسف هذه الأوصاف . . فإسم الصديق

(٣) ـ مجمع الزوائد (٥ / ٥١) .

لم يتحول الى كنية لأبي بكر الا في العهود المتأخرة والاسم الذي كثر تداوله في زمن الرسول (ص) هو « ابوبكر » وابن ابي قحافة ، ولم تكن تلك سوى من ابداع البكرية وأنصار مدرسة الرأي ، لكي يجعلوها شعارا معززا للخلافة المغتصبة .

وقد جعلوا صفته تلك كناية عن إسلامه المبكر وتصديقه للرسول (ص) وللعاقل أن يتأمل في ثنايا هذه الحبكة التعسفية ، فليس أبوبكر هو أول وآخر من آمن وصدق بالرسول (ص) ، فكثير من أصحابه آمنوا به وصدقوه بل وبعضهم سبقه بالصدق والايمان .

والامام علي (ع) كان ـ على صغر سنه ـ أول من أعلن اسلامه بعد بعثة الرسول (ص) وهو أول من صدقه . . وهو المدعو صديقا ، وقد ادعاها لنفسه وأنكرها على غيره .

وكأنه بذلك يروم فضح سياسة خلق الشعارات واطلاقها بلامبررات .

يقول : « أنا الصديق الأكبر ، لايقولها بعدي الا كاذب آمنت قبل أن يؤمن الناس سبع سنين »[٤] .

ومن صدقه ، رأينا كيف نازع أهل البيت (ع) بحديث مزعوم في شأن ارثهم .

ومنعهم حقا لهم منّ الله به عليهم . وسوف أعطيكم هنا بعضا من القرائن التي لاتجعل لشعار الصدق مصداقية في سلوك ومواقف الخليفة .

١ ـ الصدق في المواطن .

إن أولى التعاريف التي جعلت للصدق في الاسلام ، هو الصدق في المواطن وعدم الفرار عند الزحف ، وهو مارأيناه عند الخلفاء الثلاثة عندما فروا يوم أحد ، وخذلوا الاسلام ، وتركوا الرسول (ص) منفرداً في مواجهة الموقف ، وانه لعمري عين الخذلان ، ودليل عدم الصدق ، وكذلك يوم رجع فاراً من خيبر .

فقد كان من الواجب على الصديق أن يكون مثالا بارعا في الصدق والتي من مصاديقها الصدق في المواطن وقد كان يلتمس الراحة في العريش ، مترسا

---

(٤) ـ خصائص الإمام النسائي (٢٩) .

بالرسول (ص) ، ويتركه وحيدا في الميدان وينجو بالجلد عند استفحال الخطب .

ولاداعي لكي أقارن بين موقفه وموقف الامام علي (ع) في هذا المجال لأن ذلك مما سارت به الركبان وتغنت به الشعراء .

ولو كان الاسلام متوقفا على شجاعة الصديق اذن لما بقيت له باقية وهو مايضرب عرض الحائط بقولتهم ، ان رسول الله (ص) قال : « لولا ابوبكر الصديق لذهب الاسلام » كما في « نور الابصار » للشبلنجي .

٢ ـ الشك في أمر الرسول (ص) .

الايمان بالرسول (ص) هو الاعتقاد بمرسوليته ، والانقياد لأوامره على أساس انها أحكام تكليفية . . والتصديق هو الاستجابة لأمر الرسول (ص) وعدم التردد في قبول قوله وعندنا في السيرة مايدمي القلوب ، ويقصم الظهور وهو مايعرف بحادثة ذي الثديية ، فقد جاء عن انس بن مالك قال : « كان في عهد رسول الله (ص) رجل يعجبنا تعبده واجتهاده وقد ذكرنا ذلك لرسول الله (ص) باسمه فلم يعرفه فوصفناه بصفته فلم يعرفه فبينا نحن نذكره اذ طلع الرجل قلنا هو ذا قال : انكم لتخبروني عن رجل ان في وجهه لسفعة من الشيطان فأقبل حتى وقف عليهم ولم يسلم فقال له رسول الله (ص) انشدك الله هل قلت حين وقفت على المجلس : مافي القوم أحد أفضل مني أو خير مني ؟ قال : اللهم نعم ، ثم دخل يصلي فقال رسول الله : من يقتل الرجل ؟ فقال أبوبكر أنا ، فدخل عليه فوجده يصلي فقال : سبحان الله أقتل رجلا يصلي ، وقد نهى رسول الله عن قتل المصلين ، فخرج ، فقال رسول الله (ص) مافعلت ؟ قال : كرهت أن أقتله وهو يصلي وأنت قد نهيت عن قتل المصلين ، قال : من يقتل الرجل ؟(حتى قال) لو قتل مااختلف من أمتي رجلان كان أولهم وآخرهم[٥] .

فهل بعد هذا يصح أن يشتهر الخليفة الاول بالصدق وينفرد به ، وهو لم يصدق رسول الله (ص) في شأن رجل صار فيما بعد رأس الفتنة يوم النهروان كما جاء في صحيح مسلم وغيره .

(٥) ـ تاريخ ابن كثير (٧ / ٢٩٧) والإصابة (١ / ٤٩٤) .

التقوى والورع .

يظهر من خلال كلام المؤرخين وأهل السير المحرفة ، أن أبابكر كان اتقى صحابة الرسول (ص) وأورعهم . وأعبدهم لله وأخشاهم له ، وبالغوا في ذلك ايما مبالغة واختلقوا من الروايات المتداعية الأسانيد ، مايقطع أوصال الفؤاد .

وطبيعي ، أن أهم صفة للورع والتقوى هي تقديس ماقدسه الله ، وتحريم ماحرمه والاحتياط الكبير وكثرة التهجد والعبادة .

فأما من جهة العبادة ، فان ابابكر لم يرد عنه أنه كان آية في ذلك .

وعندما راح عمر بن الخطاب ليسأل عن سلوك أبي بكر في بيته ، إمعانا منه في التأسي برفيقه الذي اتحفه بأعلى منصب ، ليسوس فيه الناس بدرته .

فقالت له احدى بناته : « مارأينا له كثير صلاة بالليل ولا قيام »[٦] .

ولهذا حاولوا أن يجدوا له بديلا عن القيام والصلاة ، وهو ماذهب اليه الترمذي الحكيم في نوادر الاصول عن بكر بن عبدالله المزني ، انه قال : لم يفضل أبوبكر (رض) الناس بكثرة صوم ولاصلاة انما فضلهم بشيء كان في قلبه .

واذا اردنا الإطناب في البحث عن هذا الشيء الذي يوجد في قلب أبي بكر ولم يوجد في القلوب الاخرى التي يفضلها لوجدنا مايضحك الثكلى ذلك مايرويه لنا المحب الطبري[٧] من أن عمر بن الخطاب أتى الى زوجة أبي بكر بعد موته فسألها عن أعمال أبي بكر في بيته فقالت : الا انه كان في كل ليلة جمعة يتوضأ ويصلي ثم يجلس مستقبل القبلة رأسه على ركبته فاذا كان وقت السحر رفع رأسه وتنفس الصعداء فيشم في البيت روائح كبد مشوي فبكا عمر وقال : أتى لابن الخطاب بكبد مشوي .

وفي رواية العبيدي المالكي (السالفة الذكر) انه بعد أن يقيم على تلك الحالة يرفع رأسه الى السماء ويتنفس الصعداء ويقول : أخ فيطلع الدخان من فيه فيبكي عمر ويقول :

---

(٦) ـ عمدة التحقيق للعبيدي المالكي .

(٧) ـ الرياض النضرة (ص ١٣٣) .

كل شيء يقدر عليه عمر الا الدخان .

فذلك باختصار هو الشيء الذي انفرد به ابوبكر عن غيره ، هو سر ذلك الكبد المشوي والدخان الذي أعجز عمر بن الخطاب ، وللعاقل أن يتأمل .

وحتى يتبين لنا ماذا كان الورع والتقوى شيمة في أبي بكر ، لنقف على حقيقة استخلصها فقهاء الامة واجمعوا على قاعدتها ، وهي قضية الاحتياط في الدماء والفروج ، وبقدر مايقل الاحتياط في هاتين المسألتين ، فان ذلك مؤشرا على تدني الوازع الديني وقلة التقوى والورع ، وحسبنا من أبن أبي قحافة مافعله بالفجاءة ،حيث حرقه بعد أن جمعت يداه الى قفاه وألقى في النار مقموطا .

في حين يرفض على عمر تقديم خالد للمحاكمة الشرعية لقتله مالك بن نويرة والزنا بزوجته كما هو مشهور في كتب التاريخ الكبرى .

التفقه في الدين .

ذكروا في شأن ابي بكر اقوالاً للرسول (ص) ولغيره تدل على علمه الغزير والمامه بالأحكام ومن ذلك قول صاحب الصواعق المحرقة : « ان ابابكر من أكابر المجتهدين بل هو أعلم الصحابة على الاطلاق ؟ »[8] .

ولاداعي للرد على هذا الكلام الذي لايجد مصداقيته في سيرة ابي بكر اذ كيف يهضم ذلك مع ان ابابكر اشتهر عنه جهله في أبسط امور الشريعة . والمتتبع لسيرة الصحابة يدرك أن اطلاق هذا الحكم ليس الا مجازفة عمياء ، ولاحاجة لمقارنته بعلي (ع) في هذا المقام ، ولكن يجوز القول ،اين كان أمثال ابن عباس وابن مسعود وأمثالهم .

ولكي ندرك فقر هذا الادعاء ،يكفينا أن نستعرض بعض الأمثلة والنماذج من علم ابي بكر ،ونترك للقارىء حرية اصدار الحكم عليها :

سئل ابوبكر عن الكلالة ؟ فقال : إني سأقول فيها برأيي فان يك صوابا فمن الله وان يك خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ،أراه ماخلا الولد

(٨) ـ الصواعق المحرقة (ص ١٩) .

والوالد ، فلمّا استخلف عمر قال : إني لأستحيي الله ان اردّ شيئا قاله ابوبكر[٩] .

والمقصود هنا من الكلالة ،ماجاء في قوله تعالى :

﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ماترك ﴾[١٠] .

عن قبيصة بن ذؤيب قال : جاءت الجدة الى ابي بكر الصديق ، تسأله عن ميراثها فقال لها ابوبكر : مالك في كتاب اللهشيء ، وماعلمت لك في سنة رسول الله (ص) شيئا فارجعي حتى اسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة ،حضرت رسول الله (ص) أعطاها السدس ، فقال ابوبكر : هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسملة الانصاري فقال مثل ماقال المغيرة فأنفذه لها ابوبكر[١١] .

عن صفية بنت ابي عبيد : « ان رجلاً سرق على عهد أبي بكر ، مقطوعة يده ورجله ، فأراد أبوبكر أن يقطع رجله ويدع يده يستطيب بها ويتطهر بها ،وينتفع بها ، فقال عمر : لا والذي نفسي بيده لتقطعن يده الاخرى فأمر به ابوبكر »[١٢] .

أتا أبابكر جدتان أمّ الأم وأمّ الأب فأعطى الميراث أمّ الأم دون أمّ الأب ، فقال له عبدالرحمن بن سهيل أخو بني حارثة : ياخليفة رسول الله ! لقد أعطيت التي لو أنها ماتت لم يرثها ، فجعله ابوبكر بينهما « يعني السدس »[١٣] .

هذه النماذج تظهر الى اي مستوى بلغ الدّجل باولئك المحرفين الذين أضلوا الأمة بأشخاص وهميين لارصيد لهم من أي ادعاء اختلقه لهم انصارهم .

وأود لو اختم كلامي عن أبي بكر ، بما رواه عنه اتباعه ، من أساطير تخالف منطق القرآن ، وتناقض حجمه الحقيقي في واقعه .

* ـ روى انس بن مالك قال : « جاءت امرأة من الأنصار فقالت : يارسول الله ! رأيت في المنام كأن النخلة التي في داري وقعت وزوجي في السفر فقال :

---

(٩) ـ الطبري في التفسير (ج ٨ ص ٣٠) .البيهقي في السنن (٦ / ٢٢٣) .

(١٠) ـ سورة النساء (آية ١٧٦) .

(١١) ـ موطأ مالك : (ص ٣٣٥) . وسنن أبي داود (٢ / ١٧) . بداية المجتهد (٢ / ٣٤٤) .

(١٢) ـ سنن البيهقي (٨ / ٢٧٣ ـ ٢٧٤) .

(١٣) ـ الموطأ (ص ٣٣٥) . وبداية المجتهد (٢ / ٣٤٤) .

يجب عليك الصبر فلن تجتمعي به ابدا ، فخرجت المرأة باكية فرأت أبابكر فأخبرته بمنامها ولم تذكر له قول النبي (ص) فقال : اذهبي فانك تجتمعين به في هذه الليلة . فدخلت الى منزلها وهي متفكرة في قول النبي (ص) » .

وقول أبي بكر ، « فلمّا كان الليل واذا بزوجها قد أتى فذهبت الى النبي (ص) وأخبرته بزوجها ، فنظر اليها طويلا فجاءه جبريل وقال : يامحمد : الذي قلته هو الحق ، ولكن لمّا قال الصديق انك تجتمعين به في هذه الليلة استحيا الله منه أن يجري على لسانه الكذب ، لأنه صديق فأحياه كرامة له »[14] .

ليس الغلو فيما ذكر من أن الله استحيا من أبي بكر ، وكأن الحياء ـ أعوذ بالله ـ من شأنه تعالى . . علا عن ذلك علواً كبيرا . وإنما يكمن ذلك في نزعة خفية تجعل الأفضلية لأبي بكر على رسول الله (ص) ، فأبوبكر له شخصية أقوى من النبي (ص) مما جعله تعالى ، يستحيي من أبي بكر ولايستحي من النبي (ص) .

ويفضل تعزيز موقف أبي بكر ولايبالي بالنبي (ص) وكأن أبابكر أصدق من رسول الله (ص) وفي ذلك غلو لمن القى السمع وهو بصير .

ـ ذكر النسفي « ان رجلا مات بالمدينة فأراد النبي (ص) أن يصلي عليه فنزل جبريل وقال :

يامحمد لاتصلّ عليه ، فامتنع فجاء أبوبكر فقال : يانبي الله صلّ عليه فما علمت منه الا خيرا ، فنزل جبريل وقال : يامحمد صلّ عليه ،فان شهادة ابي بكر مقدمة على شهادتي[15] .

ولايلاحظ القارىء من هذا الحديث سوى اسلوباً آخر أكثر تعفنا من الأول ، اذ أن جبرائيل وهو الذي وكله الله لتبليغ رسالات السماء ، كيف أنه يأتي بمايخالف المضمون به ، فيكون أقرب شهادة من جبرائيل ، فأي عبث هذا وأي مروق ! .

اخرج ابن عساكر في تاريخه قال : « روي ان ابابكر لمّا حضرته الوفاة قال لمن حضره : اذا أنا مت وفرغتم من جهازي فاحملوني حتى تقفوا بباب البيت الذي فيه

---

(١٤) ـ نزهة المجالس (٢ / ١٨٤).

(١٥) ـ نزهة المجالس (٢ / ١٨٤) .

قبر النبي (ص) فقفوا بالباب وقولا : السلام عليك يارسول الله هذا ابوبكر يستأذن . فإن اذن لكم بأن فتح الباب وكان الباب مغلقا بقفل فادخلوني وادفنوني ، وان لم يفتح الباب فاخرجوني الى البقيع وادفنوني به ، فلمّا وقفوا على الباب وقالوا ماذكر سقط القفل وانفتح الباب واذا بهاتف يهتف من القبر :

ادخلوا الحبيب الى الحبيب فان الحبيب الى الحبيب مشتاق[16] .

باختصار : لم تكن هذه المغالات سوى محاولة لاعادة صياغة ابي بكر بشكل يُبرر من خلاله ماقام به بعد رسول الله (ص) من سطو على الامامة وعبث بالشريعة .

فكيف يكون حبيباً للنبي (ص) من أغضب واغتصب مال فاطمة بضعته التي قال عنها : « يغضبني ماأغضبها » ، ان هذه المفارقات لم تكن سوى من اختراع المؤرخ المأجور ، وأنصار الخلافة المغتصبة .

(١٦) ـ الرازي في التفسير (٥ / ٣٧٨) ونزهة المجالس (٢ / ١٩٨) .

الخليفة الثاني : عمر بن الخطاب

كثيرة هي الصفات الخشنة التي تأثر بها قطاع كبير من أبناء الاسلام من شخصية عمر بن الخطاب ، حتى وان كانت تخالف سماحة الاسلام وانسانية الرسول (ص) ، ذلك بان هذا القطاع الكبير من أبناء الاسلام ، يعتقد أن شخصية عمر بن الخطاب ، هي الأنموذج الأمثل للاسلام .

ومن الجدير أن نذكر أسباب ذلك فكتب العامة جعلت من هذا الأخير اسطورة الاسلام الخالدة ، وجعلت منه بحيث يترسخ في ذهن المسلمين وبحيث تشكل سيرته وجدانهم الديني ، وذلك هو أكبر جريمة تاريخية ارتكبت في حق الاسلام والمسلمين .

ولنعد الى سؤالنا ، هل عمر بن الخطاب كان يستحق كل ذلك التبجيل الزائد ، وتلك الصورة الاسطورية الرهيبة لشخصه ؟ .

لنبدأ من حيث بدأنا عند الحديث عن صاحبه ، عن احدى أهم الهويات التي برع فيها عمر بن الخطاب ، وهي هواية السكر ، والادمان على الخمرة والنبيذ ، وقد سبق أن ذكرنا قولة لإبن خلدون في شأن من كان يتعاطاها من العرب ، كما انه معلوم لدى جميع المفسرين ، أن عمر بن الخطاب كان آخر من ارتدع عنها قائلا : انتهينا ، انتهينا ! .

ولكن لابد من إعادة طرح السؤال : هل انتهى عمر بن الخطاب عن شرب الخمر ؟ .

تواجهنا في سيرة عمر بن الخطاب محطات أساسية تبين مدى تعلق الخليفة الثاني بالخمرة ، وتمسكه بها سراً وتغطية ذلك بهالة من التخريجات التي ماأنزل الله بها من سلطان ، وفي ظني أن كثيرا من تلك الصور من الخشونة التي أحصاها التاريخ على عمر وعلى ذرته التي لاتبقى ولاتذر ، كانت في لحظات السكر .

في احدى الروايات ، أراد عمر بن الخطاب أن يحلل الخمر لأهل الشام .

فقد روى محمود بن لبيد الانصاري : « ان عمر بن الخطاب حين قدم الشام شكا اليه أهل الشام وباء الأرض وثقلها ، وقالوا : لايصلحنا الا هذا الشراب فقال عمر : اشربوا هذا العسل .

قالوا : لايصلحنا العسل : فقال رجل من أهل الأرض : هل لك أن تجعل لك من هذا الشراب شيئا لايسكر ؟ قال : نعم ، فاطبخوه حتى ذهب منه الثلثان وبقي الثلثِ فأتوا به عمر فادخل فيه عمر اصبعه ثمّ رفع يده فتبعها يتمطط ، فقال :

هذا الطلاء مثل طلاء الابل فأمرهم عمر أن يشربوه ، فقال له عبادة بن الصامت :

أحللتها والله ، فقال عمر : كلّا والله ، اللهمّ ! إني لاأحل لهم شيئا حرّمته عليهم ، ولاأحرم عليهم شيئا أحللته لهم »[١٧] .

وقد عرف عنه انه كان يشرب النبيذ الشديد ، وكان يقول : « إنا نشرب هذا الشراب الشديد لنقطع به لحوم الابل في بطوننا ان تؤذينا فمن رابه من شرابه شيء فليمزجه بالماء »[١٨] .

والغريب أن العامة تروي عنه ، أنه لم يكن يكثر من أكل اللحم وربما بالغت في ذلك ،فجعلته لايأكلها الا نادرا من كثرة زهده . فكيف هو هنا يدعي أن تكريعه لخمرته حدث بداعي الخوف من أذى لحوم الابل في بطنه .

ثم تعالَ لترى هل هي مسكرة خمرته أم انها ليست كذلك . يقول الشعبي :

---

(١٧) ـ الموطأ (٢ / ١٨٠) .

(١٨) ـ سنن البيهقي (٨ / ٢٩٩) .

« شرب أعرابي من أداوة عمر فأغشي فحده عمر ، ثم قال : وإنما : حده للسكر لا للشراب »[١٩] .

لقد استمر عمر في شربه للخمر حتى وفاته ، ورخص لأهل الشام في ذلك ، حتى كان من الحق أن تعتبره عائشة خمراً حراماً لامجال للتخريج فيه .

لقد حج أبومسلم الخولاني ودخل على عائشة زوج النبي (ص) فجعلت تسأله عن الشام وعن بردها ، فجعل يخبرها ، فقالت كيف تصبرون على بردها ؟ فقال : يأم المؤمنين انهم يشربون شرابا لهم يقال له : الطلاء ، فقالت : صدق اللهوبلغ حبيبي سمعت حبيبي رسول الله (ص) يقول :

« إن اناسا من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها »[٢٠] .

فكيف بالله عليك أن يكون فاروق الامة ممن يعبث بأحكام الله ويصعد منبر رسول الله (ص) ، بعد أن يكرع ماشاء له شيطانه ، علما أن الرسول (ص) قال : « ماأسكر كثيره فقليله حرام »[٢١] .

ولاداعي للأطناب في ذلك اذ ان غايتنا مما ذكر هو ايجاد مفتاح لشخصية عمر ولعبقريته التي نسجها عنه أُدباؤنا ومؤرخونا ، وكيف لايكون عبقريا وهو الذي رخص في شرب الخمر وجعلها دواءا له يساعده على الهضم ويسهل بطنه حين قال :

« اني رجل معجاز البطن أو مسعار البطن وأشرب هذا النبيذ الشديد فيسهل بطني »[٢٢] .

ومن خلال هذا يمكننا القول ان ماعرف به عمر من التزام ديني قوي رفعه الى مستوى الفاروق . لن يكون الا حبكة مفتعلة ، فالالتزام الديني لايظهر من خلال سلوكه ، ولايستقيم دين مع الادمان ، لأن هذا الأخير مفتاح لكل الشرور .

---

(١٩) ـ العقد الفريد (٣ / ٤١٦) .

(٢٠) ـ الاصابة (٣ / ٥٤٦) .

(٢١) ـ الترمذي (ص ٣٤٢) والبيهقي في السنن (٨ / ٣٩٦) .

(٢٢) ـ ابن ابي شيبة وكنز العمال (٣ / ١٠٩) .

ولعل ماأحدثته ذرته من أذى وشرور هو من ذلك المفتاح .

ان الالتزام الديني يعني الطاعة والامتثال ، وفي سيرة عمر مايناقض كل ذلك من الاساس .

بدأ من رفضه صلح الحديبية ،والامتناع عن قتل ذي الخويصرة رغم قرار الرسول (ص)بذلك ، ومرورا بامتناعه السير مع اسامة ، وأشياء اخرى .

وقد جعلوا للفاروق ميزة ، انفرد بها ، وكانت خاصية من خاصياته ، وهي العدالة .

ويااليتني أفهم الى أي درجة من الامية التاريخية وصل الحال بالمؤرخين والادباء حتى يجعلوها من بديهيات التاريخ والسيرة .

ونظراً لمنهجنا في هذا الباب نتوخى عرض نماذج من تلك المرويات التي تناقض صفة العدالة عن عمر بن الخطاب . ذلك بأن موضوع ازاحة الستار عن الوجه الحقيقي للمقدس ، يعرف حساسية صعبة ، لذلك سوف نتمسك بالنص ، وبالروايات التي أوردها علماء العامة في شأنه .

* سبق أن ذكرنا حادثة جلد عمر للأعرابي الذي شرب من عسه فسكر ، مع أنه لم يفعل شيئا حراما ، ولو كان عمر عادلا كما يقولون ، اذن لأقام الحد على نفسه أو ليترك الأعرابي لحال سبيله ، أو لاأقل ليتأمل الموضوع قبل اصدار الأحكام .

فالأعرابي يشرب من عس عمر بن الخطاب ـ الخليفة ـ وتلك قرينة كاملة على رفع الحد عنه لأن المظنون من عس ـ أميرالمؤمنين ـ ألا يكون فيه مايسكر . فتأمل .

* ـ مرّ عليّ بمجنونة قد زنت وهي تُرجَم فقال علي لعمر : « ياأمير المؤمنين ! أمرت برجم فلانة ؟ قال : نعم ،قال : أما تذكر قول رسول الله (ص) رفع القلم

عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق ؟ قال : نعم : فأمر بها فخلّى عنها »[٢٣] .

* ـ روى مالك انه سمع سعيد بن المسيب يقول : « أبى عمر بن الخطاب أن يورث أحدا من الأعاجم الاّ أحداً ولد في العرب »[٢٤] .

روى ابن الجوزي ،قال : « ان عمراً كان قاعداً والدرة معه والناس حوله اذ أقبل الجارود فلما دنى منه خفقه بالدرة فقال : مالي ولك ياأمير المؤمنين ؟! قال مالي ولك لقد سمعتها . قال : وسمعتها ، فمه ؟ قال خشيت أن تخالط القوم ويقال ، هذا أمير . فأحببت أن أطأطىء منك »[٢٥] .

هذا كله ، إضافة الى مافعله بحق فاطمة الزهراء ، عند همه بحرق دارها ، واغتصاب فدك منها ، ومكان الامثلة على خرافة العدل العمري .

أما شجاعة عمر التي سمع دَويُّها عبر الخافقين فحدث ولاحرج فهو كرفيقه صاحب العريش لم يكن له ذكر في المعارك الاسلامية ، ولم يسمع له في مواقف الرجولة ركزا .

ولعل أول وآخر معركة يقودها عمر ، كانت ضد يهود خيبر ، حيث يحدثنا الخبر ، بأنه رجع يجبن أصحابه ويجبنونه لفراره ولقد امتنع عمر عن السير مع جيش أسامة لأسباب عدة . ومنها خوفه من الروم . وقد رجع دون أن يمتثل أمر الرسول (ص) في شأن ذي الخويصرة بعد أن أرهبه الرجل وأخافه .

بالإضافة الى فراره يوم أُحد . وسكوته يوم الخندق أمام دعوى مبارزة عمر بن عبد ود وخوفه من الذهاب الى القادسية .

فعمر بن الخطاب بهذا الحجم الصغير . وبتلك المحدودية . جعلوا منه اسطورة التاريخ الاسلامي وأوردوا حوله من الأخبار ماجعل من عمر صنماً خرافياً يعبد من دون الله .

---

(٢٣) ـ السنن الكبرى (٨ / ٢٦٤) .

(٢٤) ـ الموطأ (٢ / ١٢) .

(٢٥) ـ شرح النهج (٣ / ١١٢) .

لقد قالوا فيه الكثير وغالوا الى حد الشطط ومن قولهم فيه :

« عن بريدة : خرج رسول الله (ص) في بعض مغازيه ، فلمّا انصرف جاءت جارية سوداء فقالت : يارسول الله ! اني كنت نذرت إن ردك الله صالحاً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى ، فقال رسول الله (ص) : ان كنت نذرت فاضربي والا فلا ، فجعلت تضرب فدخل ابوبكر وهي تضرب ، ثم دخل علي وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، ثم دخل عمر فألقت الدف تحت استها ثم قعدت عليها ، فقال رسول الله : ان الشيطان ليخاف منك ياعمر ! »[٢٦] .

* ـ ذكر الرازي في تفسيره : « وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرة على الأرض وقال : اسكنيها باذن الله ، فسكنت وماحدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك »[٢٧] .

---

(٢٦) ـ أحمد في المسند (٥ / ٣٥٣) قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب (٥ / ٦٢١) .

(٢٧) ـ تفسير الرازي (ص ٤٧٨) .

عثمان بن عفان

عندما يكون الحديث عن عثمان والفتن التي احدثها بسياسته العشائرية ، نلمح عند المؤرخين اسلوباً يكاد يكون موحداً ،في قلب الحقائق بعد ثبوتها وتضبيبها بعد جلاءها ، وهكذا يكون عثمان رجلا زاهدا ، وتقيا ، تصوره ريشة المؤرخ الفنان على لوحة التحريف ، كصحابي جليل استشهد وهو يقرأ القرآن وفي المقابل ، تكون الامة التي قتلته كلها فاسقة ، وكلها مارقة ، حتى لو كان كبار الصحابة شاركوا في قتله . وحتى لو أن الامة أجمعت على انحرافه عن السنة التي ضيعها والقرآن الذي أحرقه ، ولم يلتزم به ، بل إن أعظمهم أوردوا صوراً وَمَشاهدَ تفصيلية عن حادثة القتل لعثمان ، يظهرون فيها الطبيعة الهمجية لمقتل عثمان ، وقساوة الثوار .

وليس يعنيني هنا الاكثار من ذكر ماقيل عن عثمان ، ومايمكن أن يقال في مقابل ذلك غير اني أحب التركيز هنا على احدى المسائل الأساسية التي تميز بها عثمان ، حسب ماجاء في السيرة ، فكما انهم خلقوا أحاديث عن حياء عثمان ، ليغطوا بها ابتذال اسلوبه مع كل من الامام علي (ع) ، وعمار (رض) وابن مسعود (رض) وابي ذر الغفاري (رض) .

وابدعوا ذلك المشهد ، الذي رؤي فيه عثمان مستشهداً ، وبين يديه كتاب الله ليغطوا ، على جريمته في تتبع القراء ،وحرق المصاحف ، وعدم تنفيذ أحكامه .

فإنهم اختلقوا اكذوبة السخاء الذي صدر منه إبان العهد الاول للإسلام ،

وعطاياه الكثيرة ، ودعمه للجماعة الاسلامية ، ليغطوا عبثه بالأموال الاسلامية ، ونهبه أموال الرعية وإقطاعها بني جلدته .

لقد كان صادقاً من قال : ان عثمان أخذ اضعاف ماأعطاه لرسول الله (ص) ، ذلك ان عثمان لم يكن يتورع في نهبها ، وقد أصبحت تدعى في عصره بأموال الله ، حتى لايبقى للمسلمين أدنى مبرر للتدخل فيما مايجري داخل العشيرة الاموية ، وقد كان ابوذر (رض) على رأس اولئك المتدخلين والمنتقدين للسياسة المالية لعثمان وبطانته الاموية ، فناله ماناله من الأذى من قبل عثمان بن عفان .

ولنبدأ رحلتنا من « فدك » التي اغتصبها عثمان من فاطمة الزهراء (ع) وهي مما اورثته عن الرسول (ص) وياليته اغتصبها وأودعها بيت المال حتى يقال انه تأسى بصاحبيه ، بل اقطعها مروان ، يقول ابن عبد ربه : « انه اقطع فدك مروان وهي صدقة لرسول الله (ص) وافتتح افريقيا وأخذ خمسه فوهبه لمروان »[٢٨] .

فأين زهد الخليفة الثالث ، وورعه ولو كان قارئاً للقرآن كما جاء في أخبار المؤرخين ، لكان أجدر به أن يعرف مدى بغض النبي (ص) للشجرة الملعونة في القرآن . ولم يمنعه ورعه من اغتصاب حق فاطمة (ع) بضعة الرسول (ص) وخير نساء العالمين ، ليقطعها واحدا من أبناء الطلقاء أبن طريد الرسول (ص) وأحد أغصان تلك الشجرة الملعونة في القرآن ، ذكر الطبري : « انه لما وجّه عثمان عبدالله بن سعد الى افريقيا كان الذي صالحهم عليه بطريق افريقيا (جرجير) الفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، فبعث ملك الروم رسولاً وأمره أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار كما أخذ منهم عبدالله بن سعد وكان الذي صالحهم عليه عبدالله بن سعد ثلثمائة قنطار ذهب ، فأمر بها عثمان لآل الحكم . قلت : أو لمروان ؟ قال : لاأدري »[٢٩] .

ثم يروى « انه أعطى الحارث بن الحكم بن ابي العاص أخا مروان ، ثلاثمائة ألف درهم »[٣٠] .

---

(٢٨) ـ العقد الفريد (٢ / ٢٦١) .
(٢٩) ـ تاريخ الطبري (٥ / ٥٠) .
(٣٠) ـ البلاذري (٥ / ٥٢) .

وعن عبدالله بن سنان قال : « خرج علينا ابن مسعود ونحن في المسجد وكان على بيت مال الكوفة وفي الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال : ياأهل الكوفة ! فقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف لم يأتني بها كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب لي بها برائة ، قال فكتب الوليد بن عقبة الى عثمان في ذلك فنزعه عن بيت المال »[٣١] .

كما أعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال[٣٢] .

هذا جزء من ذلك السيناريو الذي اتحفت به سياسة عثمان الرعية الاسلامية . ناهيك عما اختزنه قصره ،وحاشيته من المتزلفين له من دون عشيرته .

فاذا عرفت ذلك ـ عزيزي القارىء ـ فلايأخذك العجب من قول الامام علي (ع) بعد ذلك في عثمان : قام نافجا حضينه بين نثيله ومعتلفه ،وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع .

ذلك باختصار شديد .. هو أهم مشروع قدمه عثمان لأمته ، فأين الزهد ،وأين الورع ، وأين عشرات المحامد التي حيكت حوله .

---

(٣١) ـ العقد الفريد (٢ / ٢٧٢) .

(٣٢) ـ شرح النهج (١ / ٦٧) .

غاية الكلام في الثلاثة

الغاية من هذه الاطلالة الموجزة والسريعة في أحوال الثلاثة : أبوبكر وعمر وعثمان ، هو أن نعيد تشكيل المنظار الذي من خلاله نظرت العامة اليهم وهو ماعنينا به قبلاً ، ـ الاصنام ـ وليس الصنم سوى تقديس الوهم ، وأسطرت التاريخ ، وتضبيب الغاية من نزول الرسالة ، وأذكر يوم كنت من المعجبين بعمر ابن الخطاب ، حيث ابهرني مااشتهر به من عدل واستقامة ، حتى ظننت انني أمام نموذج من الكمال لايدانيه سوى الخيال ، ووقعت تحت تأثيره لمدة طويلة ، ويالها من خشونة تلك التي كنت أحسب أنها سلوك الاسلام ، ويالها من علاقة قاسية كانت تقوم بيني وبين المحيط من حولي ، لقد اكتشفت عمر بن الخطاب شيئا فشيئا .

وانتهيت كافرا به ، وما أن كفرت بعمر ، حتى تغير سلوكي وأمستُ أكثر استجابة لهمسة التعاليم الاسلامية وتحررت مشاعري من عمر ،وكانت كبرى الانتصارات التي جاهدت من اجل تحقيقها ، هي أن اخرج من كهوف عمر بن الخطاب الى روضة الامام علي (ع) والى عالم البيت الهاشمي . . وهكذا . لن يكون لهذه الامة من شأن حتى تعيد النظر في رؤيتها التاريخية ، وتتحرر من عقدة الصنمية وتسافر في رحاب الرسالة الاسلامية بعقل جديد . . وذهنية جديدة .





خاتمة



هناك سؤال لابدّ من طرحه في هذا السياق الحساس . . هل ثمة أزمة تاريخية أو أزمة مؤرخين ، في ثقافتنا الاسلامية ؟ .

لاشك في أن المتجول عبر الفجاج المختلفة في هذا التاريخ . . سيدرك لامحالة ، ان الازمة ، هي ازمة الاثنين معا ! وذلك لسبب بسيط : هو ان المؤرخ الذي لايزال حتى اليوم ، ابن بيئته التاريخية وابن الخطاب التاريخي السائد إما أنه يوجد ضمن واقع تاريخي متخلف ، ويتحرك في خط التعميق والتكريس لذلك الواقع ، أم أنه يوجد ضمن اجواء بيئة تاريخية هي في حد ذاتها امتداد لواقعنا التاريخي القديم ، وفي كلتا الحالتين ، يكون المؤرخ ضحية لواقعه أو خطابه التاريخي السائد .

واذا ماأردنا توسيع دائرة النقاش حول هذا الموضوع ، ليشمل بذلك كل أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لقلنا بأن المؤرخ اليوم يؤدي دوراً خطيرا ، ويمارس مهمة صعبة ، من حيث أن المؤرخ يملك امكانية لتغيير الأفكار والرؤى في مجتمعه ، تلك الأفكار والرؤى التي لاتزال تجد امتداداتها في كل واحة من واحات وجودنا الحضاري .

غير أن المشكلة ماتزال قائمة ، فعزوف المؤرخ عن استيعاب مادته أو التآمر على طرح الحقيقة ، والعمل على طمسها بأسلوب التحريف والتزوير ، هو أقرب الطرق إليه . لابد اذن من أن نعى جميعا هذا الواقع المتخشب في موقفه ، ولِنَدعُ

الى نهضة حقيقية تبدأ من الأسس ، الى ثورة تراثية كفيلة بإعادة تشكيل منظوماتنا الثقافية .

كمقدمة لإحداث نهضة سليمة في حاضرنا ، ذلك أن علاقة شعوبنا الاسلامية بتراثها علاقة متينة ، وحياتها كلها تتلون بذاك اللون التراثي ، مهما ظهر من تنكر ومهما بدا من شرود ، فخطوط العودة الى التراث لّما تنقطع بعد ، ومن هنا تكمن ضرورة إعادة النظر في تراثنا الذي يشكل ذاكرتنا الجماعية .

لقد كان ومايزال أغلب المؤرخين والناقدين للتراث ، يسبحون في بحر التكرار ، ويبنون ابداعاتهم النقدية على عناصر وهمية ، ومعطيات جاءت بها رغبة الخلفاء وطمع المؤرخين ، واذا ماانتبهنا الى الماضي والتفتنا الى مجريات احداثه ، سوف يتبين لنا الأمر على درجة كاملة من الوضوح ، فالسياق التاريخي الذي ظهر فيه التدوين والتأريخ ، هو نهاية العصر الاموي والعصر العباسي ، وهو سياق ، شهد نموا خطيرا ومنظما لتيارات مختلفة الاتجاه وشهد ـ ايضا ـ صراعا سياسيا حادا تفتق عن صراعات ايديولوجية . . ولما كانت السلطة طرفا في هذا الصراع . . كان من الطبيعي أن تستثمر امكانياتها وموقعها كسلطة صاحبة القرار في سبيل تدمير الاطراف الاخرى ، وتشكيل ايديولوجية الدولة . وكان الدين دائما هو الضحية الاساس ، لأن تشكيل الايديولوجية هذه لايستقيم الا بإجراء سلسلة من التحريفات ليكتمل التناغم والانسجام بين الاثنين .

وعلى هذا الضوء . . يمكننا القول . . أن الامة الاسلامية خضعت ـ على مستوى السلطة ـ الى توجيه ديانات اسلامية ، أو صور مختلفة ومتناقضة للاسلام . . وقد ادرك الامام علي (ع) هذه الوضعية الخطيرة عندما قال : « ولبس الاسلام لبس الفرو مقلوبا » .

كان هذا الزوج (السلطة ـ الدين) ترجمة ظاهرة لواقع مبطن للزوج (سلطة ـ لادين) اذ القضاء على الدين يومها لايمكن أن يتم بهوى سلطان ، وانما كان يقتضي اجراءات تكتيكية . . . تبدأ بسلب محتواه ثم الانتهاء بإزاحته ليعود الأمر الى حالة السلطة المنفردة التي تقوم على الهوى .

ولاأحد يجهل ماكان عليه واقع جل مؤرخينا . فإما منحازين ومنتمين ، وإما

متزلفين .

أي اما انهم يؤمنون بمدرسة من تلكم المدارس الكثيرة ، ومتبنين لاتجاه معين . . أو مرتزقة يكتسبون معاشهم عبر التزلف والمدح . . والتحريف والتزوير ، وكانت التقية هي السبيل الوحيد للكثير من المؤرخين المنصفين . . لذلك أدرجوا الكثير من الأحداث في أسفارهم تناقض بعضها بعضا ، وهي مع ذلك قابلة للتأويل .

ان التأويل هو المنهج الوحيد للعثور على الحقيقة في هذه المنعرجات المختلفة ، تأويل الاحداث والاشخاص ، وتأويل المؤرخ نفسه ، والنظر اليه ضمن سياقه الاجتماعي الخاص .

وتاريخنا الى اليوم لايزال بكرا ، ولاتزال رياضه عذراء من أي محاولة جادة للتأويل لأن مؤرخينا الاعزاء . وأحفادهم اليوم . . لم يفعلواسوى إعادة انتاج ذلك الماضي وهم بذلك يعيدون انتاج أزمته .

ويؤسفني جدا ، أن تكون الحياة لاتزال تدب في بعض الاوصال الميتة ، التي أخرقتها الاحداث .

وطوى التاريخ عنها كشحاً ، لتعيدنا الى الظلام بواسطة الجهل المركب انها حرب حقيقية بين ظلمة التراث ونوره ، بين رجعيته وتقدميته ، ولست متحاملاً اذا ماأشرت الى ماتقوم به اليوم عصابة ـ نجد ـ من محاولات جادة لتشويه سمعة الاسلام . . بتبنيها نشاطات ترمي من خلالها الى تشويه مدرسة أهل البيت (ع) في سبيل الانتصار لبداوتها التي لم يعد قادرا على استيعابها سوى مذهب الوهابية القاحل من روحية الاسلام ونضجه . . وقد صادفت ـ وأنا اختم هذا الكتاب ـ كتابا لمؤلف سعودي . . واقعاً في ثلاثة اجزاء . . وهو في الاصل رسالة لنيل دبلوم دكتوراه من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة . . وهو تحت عنوان ـ اصول مذهب الشيعة الامامية الاثني عشرية عرض ونقد ـ وقع اختيار المؤلف على هذا المبحث كما يريد أن يقول . . وبعد الاستشارة والاستخارة عقدت العزم على أن أدرس العقائد الاساسية للمذهب الاثني عشري ـ (ص ٨ ج ١) .

لقد صدمني ـ قبل كل شيء ـ ذلك المستوى الذي تطمح ان تظهر عليه جامعة

محمد بن سعود وهي تستقبل وتشرف على رسالة هي أقرب الى وعظيات أهالي نجد ، وخشونتهم .

وانني لأول مرة ، أرى اطروحة تسب ،وتشتم ،وتلعن ، ولكن لاعليك ، اذا كانت اللجنة المشرفة هي من تلك الطينة . ان الشهادة في عرف العقيدة النجدية تعطى لمن يسب أكثر ويفرق أكثر ، يقول كاتبها كما قال غيره من قبل ـ اذ رسالته كلها اجترار وتجميع لما سبق تناوله جهلا وتخريفا ـ وقد تشيع بسبب الجهود التي يبذلها شيوخ الاثني عشرية الكثير من شباب المسلمين (ص ٩ ج ١) .

ولست ادري الى أي معنى يريد صاحب الرسالة الوصول ؟ أيعني بهذا ، التنبيه الى خطورة الموقف ؟ .

ان هؤلاء الذين تشيعوا لم يفعلوا سوى ان دخلوا في فعالية جديدة داخل تكوينهم الاسلامي ، والتشيع أعرق بكثير من خطاب الوهابية المستحدث والذين تشيعوا ايضا ، لم يكونوا مغفلين . .ومجتمعاتهم تزخر بتلك الفعاليات الاخرى . . انهم أحرار وواعون ومنطقيون مع انفسهم . .ولعلهم أذكى وأورع من غيرهم .

هؤلاء شكلوا برهانا ساطعا على بؤس مذاهبهم السابقة . .ولم يجدوا ملاذهم الّا في رحاب البيت النبوي وليس ذلك مردّه الى اشتغال ودؤوب علمائهم على الاستقطاب ، فعصابة نجد كانت أسبق الى هذا المسعى ، وهي التي أهرقت آبارها النفطية على درب الصراع المذهبي . .وهي التي أقامت في كل قرية من العالم خيمة وعقالا .

يجب من الآن أن نعامل شعوبنا باحترام . . وان لانعاملها بأسلوب النخبة الدينية وذهنية الأقنوم المقدس . ان شعوبنا أصبحت ـ بفضل الله ـ على درجة من الوعي قادر أن يجعلها في مستوى استيعاب الفكرة ولاداعي لأن نكثر من شرح المعتقد .

ان ماتقوم به اللوثة الوهابية ـ مع تقديري واحترامي للطموح ـ لن يعدو سوى محاولة يائسة لترقيع ذلك الجلباب الخرق كشأن العطار الذي رام اصلاح ماأفسده الدهر .

لتعلم ان شعوبنا قد تجاوزتها نضجا وثقافة لذلك يفضل اعطاءها الخيار الكامل في اختيار سبلها بكل حرية وثقة في النفس .

ومن أجل ذلك لابد أن نقدم فهرسة كاملة لما هو مفيد في الاطلاع على كتب مدرسة أهل البيت (ع) .

وان تكون اقرب الى ببليوغرافيا شاملة في العقائد والتاريخ وفق ذلك الاتجاه ، لنعرف أبناء الامة بمصادر الاطلاع الحر ، ولها الخيرة في موقفها .

ووعيا مني ايضا بأن تعريف أعداء هذه المدرسة بأمهات الكتب العقائدية والتاريخية المهمة قد يمنحهم معلومات ببليوغرافية هامة ، تساعدهم على ضبط الكتاب ومنعه ، ولكن هذا لايخيف أبدا من منع الكتاب ، لأن علاقة الانسان بالكتاب ، هي علاقة حيوية لايقوى على منعها الاّ متهافت ! .

مصادر الكتاب

١ - إبن خلدون .

(ايف لاكسون ، ترجمة : ميشال سليمان .

٢ - الاحتجاج على أهل اللجاج .

أبو منصور أحمد الطبرسي ، النجف ١٣٨٦ هـ .

(٣) - الأربعين .

الرازي .

٤ - أسباب النزول (بهامشه الناسخ والمنسوخ لأبن سلامه) .

ابو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري .

بيروت ـ دار المعرفة .

٥ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب .

يوسف بن عبدالله بن عبد البر .

تحقيق محمد علي البجاوي ، ط ١ القاهرة ـ نهضة مصر .

٦ - أسد الغابة في معرفة الصحابة .

عزالدين علي بن الأثير .

بيروت ـ دار أحياء التراث العربي ، وبيروت ـ دار الفكر ١٩٨٩ .

٧ ـ اسلاميات .

طه حسين .

ط ١ ، بيروت ـ دار الأدب ، ١٩٦٧ .

٨ ـ الاصابة في تمييز الصحابة .

ابن حجر العسقلاني .

حقق أصوله ووضع فهارسه علي محمد البجاوي ، ط ١ بيروت ـ دار الجيل ، ١٩٩٢ .

٩ ـ الإمامة والسياسة (تاريخ الخلفاء) .

ابو محمد عبد الله بن قتيبة (الدنيوري ت ٢٧٦ هـ) .

تحقيق الأستاذ علي شيري ، ط ١ قم ـ منشورات الشريف الرضي ١٤١٣ ، وبيروت ـ مؤسسة الوفاء .

١٠ ـ الانتقال الصعب .

أدريس الحسيني (المؤلف) .

ط ١ بيروت ـ دار النخيل ، ١٩٩٤ .

١١ ـ أنساب الأشراف (الجزء الأول) (سلسلة ذخائر العرب رقم ٢٧) .

أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري .

تحقيق د : محمد حميد الله ط ١ القاهرة ـ دار المعارف ومعهد المخطوطات ١٩٥٩ .

١٢ ـ الأوائل .

أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري .

ط ١ بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٧ .

١٣ ـ بداية المجتهد .

القرطبي .
١٤ ـ البداية والنهاية .
عماد الدين أبو الفداء أسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤ هـ .
بيروت ـ دار الكتب العلمية ، وبيروت ـ دار الفكر العربي ، عن طبعة دار نهر النيل بالجيزة .
١٥ ـ بصائر الدرجات (فضائل أهل البيت) .
أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار .
ط ٢ (مصححة منقحة) بيروت ـ مؤسسة النعمان ، ١٩٩٢ .
١٦ ـ تاريخ العروس من جواهر القاموس .
محمد مرتضى الزبيدي .
بيروت ـ دار مكتبة الحياة ، عن ط ١ القاهرة ـ المطبعة الخيرية ١٣٠٦ هـ .
١٧ ـ تاريخ ابن خلدون .
١٨ ـ التاريخ الإسلامي .
محمود شاكر .
ط ٤ بيروت ـ المكتب الاسلامي ، ١٩٨٥ .
١٩ ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام .
أحمد بن علي الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ .
بيروت ـ دار الفكر .
٢٠ ـ تاريخ الخلفاء .
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ت ٩١١ هـ .
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد بيروت والقاهرة مطبعة السعادة ١٣٧١ هـ .

٢١ ـ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) .
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ .
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٤ القاهرة ـ دار المعارف .
٢٢ ـ تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام علي بن أبي طالب) .
الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الشافعي ت ٥٧١ هـ .
تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، ط ٢ بيروت ـ مؤسسة المحمودي ١٩٧٨ .
وترجمة عثمان بن عفان ، تحقيق سكينة الشهابي ، ط ١ دمشق ـ دار الفكر ، ١٩٨٤ .
٢٣ ـ تاريخ اليعقوبي .
أحمد بن أبي يعقوب العباسي اليعقوبي .
بيروت ـ دار صادر .
٢٤ ـ تجارب الأمم .
أبو علي مسكويه الرازي ت ٤٢١ هـ .
حققه وقدم له د . أبو القاسم أمامي ، ط ١ طهران ـ دار سروش ١٩٨٧ .
تذكرة الخواص .
شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط بن الجوزي ت ٦٥٤ هـ .
قدم له السيد محمد صادق بحر العلوم ، بيروت ـ مؤسسةأهل البيت ١٩٨١ .
٢٦ ـ تفسير ابن كثير .
ابن كثير الدمشقي .
بيروت ـ دار العلم .
٢٧ ـ تفسير الجلالين .

٢٨ ـ تفسير الرازي (التفسير الكبير) .

فخرالدين أبو عبدالله محمد القرشي الشافعي الرازي .

ط ٢ طهران ـ دار الكتب العلمية .

٢٩ ـ تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آية القرآن) .

ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ .

بيروت ـ دار الفكر ، ١٩٨٤ .

٣٠ ـ تهذيب التهذيب .

ابن حجر العسقلاني .

بيروت ـ دار صادر ، عن ط ١ حيدر آباد الركن ١٣٢٦ هـ .

٣١ ـ التوسل والوسيلة .

ابن تيمية .

الطبعة الثانية .

٣٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء .

الحافظ ابو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ت ٤٣٠ هـ .

بيروت ـ دار الكتب العلمية .

٣٣ ـ جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد .

محمد بن محمد بن سليمان المغربي ت ١٠٩٤ هـ .

ط ٢ بيروت ـ مؤسسة علوم القرآن جدة دار القبلة ١٩٨٨ .

٣٤ ـ خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي .

بذيله كتاب الجلي تبنحريج خصائص علي لأبي أسحق الحويني الأثري ، ط ١ بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٩٨٧ ، وطبعة أخرى ، تحقيق الشيخ محمد باقر

المحمودي ١٤٠٣ هـ .

٣٥ - الخصائص الكبرى .

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ت ٩١١ هـ .

بيروت - دار الكتب العلمية ١٩٨٥ .

٣٦ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور (بهامشه تنوير المقباس) .

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ت ٩١١ هـ .

بيروت - الناشر محمد أمين دمج .

٣٧ - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة .

أبو بكر أحمد بن الحسيني البيهقي ت ٤٥٨ هـ .

وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه ، د . عبد المعطي قلعجي ، ط ١ بيروت - دار الكتب العلمية ١٩٨٥ .

٣٨ - ديوان ابو تمام .

٣٩ - ديوان المتنبي .

٤٠ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى .

الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري .

بيروت - مؤسسة الوفاء ١٩٨١ .

٤١ - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار .

أبو القاسم محمود الزمخشري ت ٥٣٨ هـ .

تحقيق ، د . سليم النعيمي ، ط ١ قم - منشورات الشريف الرضي ١٤١٠ هـ .

٤٢ - رسائل الجاحظ .

السندوبي .

٤٣ ـ روح البيان في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الآلوسي) .

أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ت ١٢٧٠ هـ .

بيروت ـ دار أحياء التراث العربي .

٤٤ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة .

الحافظ أبو جعفر محي الدين أحمد الطبري .

ط ١ بيروت ـ دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤ .

٤٥ ـ سنن أبن ماجة .

بيروت محمد بن يزيد القزويني .

بيروت ـ دار الكتب العلمية .

٤٦ ـ سنن أبي داود .

الحافظ أبي داود الأزدي السجستاني .

ط ١ مصر ـ ، ١٣٧١ هـ .

٤٧ ـ سنن البيهقي (السنن الكبرى) (بزية الجوهر النقي للمارديني) .

الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ت ٤٥٨ هـ .

وضع فهارس الأحاديث د . يوسف عبد الرحمن المرعشلي ـ بيروت ، دار المعرفة .

٤٨ ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح) .

أبو عيسى محمد بن عيس الترمذي ت ٢٩٧ هـ .

(ج ١ و ٢) تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر و ج ٣ تحقيق وتخرج وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي و ج ٤ و ٥ تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض بيروت ـ دار أحياء التراث العربي .

٤٩ ـ سنن النسائي .

٥٠ ـ السيرة الحلبية في سيرة (الأمين المأمون (إنسان والعيون) .

علي بن برهان الدين الحلبي ت ١٠٤٤ هـ .
بيروت ـ دار المعرفة .
٥١ ـ السيرة النبوية .
ابن هشام .
ط ٢ بيروت ـ دار الكتاب العربي ، ١٤٠٩ هـ .
٥٢ ـ السيرة النبوية .
أبو الفداء أسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٤٧ هـ .
تحقيق مصطفى عبد الواحد ، بيروت ـ دار أحياء التراث العربي .
٥٣ ـ شرح نهج البلاغة .
عزالدين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي المدائني .
تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم بيروت ـ دار أحياء التراث العربي ، عن الطبعة الثانية دار أحياء الكتب العربية القاهرة ، ١٩٦٥ .
٥٤ ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل في الآيات النازلة في أهل البيت (ع) .
الحافظ عبيد الله بن عبد الله بن أحمد الحاكم الحسكاني الحنفي .
حققه وعلق عليه الشيخ محمد باقر المحمودي ط ١ بيروت مؤسسة الأعلمي ، ١٩٧٤ .
٥٥ ـ شيخ المضيرة أبو هريرة .
الشيخ محمود أبو رية .
ط ١ قم ـ دار الذخائر ١٤١٠ .
٥٦ ـ صحيح البخاري .
أبو عبد الله محمد بن أسماعيل البخاري .
ضبطه ورقمه وشرحه ومزجه ووضع فهارسه د . مصطفى ديب البُغا مطبعة الهندي .

٥٧ ـ صحيح مسلم .
أبو الحسن مسلم القشيري النيسابوري ت ٢٦١ هـ .
تحقيق وتعليق د . موسى شاهين لاشين ، و د . أحمد عمر هاشم ط ١ بيروت مؤسسة عزالدين ١٩٨٧ وبيروت دار المعرفة .

٥٨ ـ الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة .
الحافظ أحمد بن حجر الهيتمي الملكي ت ٩٧٤ هـ .
خرج أحاديثه وعلق حواشيه وقدم له عبد الوهاب عبد اللطيف ط ٢ (مزيدة محققة) القاهرة مكتبه القاهرة ، ١٩٦٥ .

٥٩ ـ الطبقات الكبرى .
بيروت ـ دار صادر ، ١٩٨٥ .

٦٠ ـ العقد الفريد .
أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي .
بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٩٨٦ .

٦١ ـ عمدة التحقيق .
العبيدي المالكي .

٦٢ ـ الغارات (الأستنفارات والغارات) .
أبو أسحق إبراهيم بن هلال الثقفي .
حققه وعلق عليه السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب ط ١ ايران ـ مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ١٩٩٠ .

٦٣ ـ الغدير في الكتاب والسنة والأداب .
الشيخ عبد الحسين أحمد الأمين النجفي .
طهران ـ دار الكتب الإسلامية .

٦٤ - فتح الباري في شرح صحيح البخاري .

العسقلاني .

٦٥ - فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة في ذريتهم .

المحدث إبراهيم بن محمد بن المؤيد الجويني الخراساني ت ٧٣٠ هـ .

حققه وعلق عليه وتصدى لنشره الشيخ محمد باقر المحمودي ، ط ١ بيروت - مؤسسة المحمودي ١٩٨٠ .

٦٦ - فصل الأصول الإسلامية في نظرية أبن خلدون السياسية .

هاملتون جيب .

٦٧ - الكافي .

ثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني ت ٣٢٩ هـ .

ضبطه وصححه وعلق عليه الشيخ محمد جعفر شمس الدين ، ط ١ بيروت - دار التعارف ١٩٩٠ .

٦٨ - الكامل في التاريخ .

عزالدين أبو الحسن علي بن الأثير .

بيروت - دار صادر ١٩٨٢ م ، بيروت - دار بيروت ، ١٣٨٥ هـ .

٦٩ - كتاب السنة : معه ظلال الجنة في تخريج السنة للألباني .

الحافظ عمر بن أبي عاصم الشيباني ت ٢٨٧ هـ .

ط ٢ بيروت دمشق - المكتب الإسلامي ، ١٩٨٥ .

٧٠ - كتاب عيون الأخبار .

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري .

بيروت - دار الكتاب العربي .

٧١ ـ كتاب الفتوح .

بيروت ـ دار الندوة الجديدة ، عن الطبعة الأولى الهندية .

٧٢ ـ الكشاف عن حقائق التزيل وعيون الأقاويل في وجوة التأويل .

أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري ت ٥٣٨ هـ .

بيروت ـ دار الفكر ، عن طبعة انتشارات آفتاب طهران .

٧٣ ـ كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب .

محمد بن يوسف الكنجي الشافعي .

تحقيق د . محمد هادي الأميني ، ط ١ طهران ـ دار أحياء تراث أهل البيت ١٤١٤ هـ .

٧٤ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والفعال .

علاء الدين علي المتقي الهندي ت ٩٧٥ هـ .

ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حياني ، وصمم ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ صفوة السقا ، بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٧٩ و ط ٥ ١٤٠٥ هـ .

٧٥ ـ لسان العرب .

أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور .

قم ـ نشر ادب الحوزة ١٤٠٥ هـ .

٧٦ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .

الحافظ نورالدين علي الهيثمي ت ٨٠٧ هـ .

بيروت ـ مؤسسة المعارف ١٩٨٦ .

٧٧ ـ مختصر تاريخ دمشق .

محمد بن منظور .

تحقيق د . نسيب نشاوي ، ط ١ دمشق دار الفكر ١٩٨٥ .

٧٨ - **مروج الذهب ومعارف الجوهر .**

أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ت ٣٤٦ هـ .

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت - دار المعرفة ، ١٩٨٢ .

٧٩ - **المستدرك على الصحيحين (بذيله التلخيص للذهبي) .**

لحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري .

بيروت - دار المعرفة .

٨٠ - **مسند الإمام أحمد (بهامشه منتخب كنز العمال للهندي) .**

أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني .

بيروت - دار صادر .

٨١ - **مصابيح السنه .**

أبو محمد الحسيني بن مسعود الغراء البغوي ت ٥٦١ هـ .

تحقيق د . يوسف عبد الرحمن المرعشلي ومحمد سليم سماره وجمال حمدي الذهبي ، ط ١ بيروت - دار المعرفة ١٩٨٧ .

٨٢ - **المصنف في الأحاديث والآثار .**

الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ت ٢٣٥ هـ .

تحقيق وتعليق محمد سعيد اللحام ، ط ١ بيروت - دار الفكر ١٩٨٩ .

٨٣ - **المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين علي وبيان أفضلية .**

الشيخ أبو جعفر محمد بن عبدالله الآسكافي المعتزلي ت ٢٤٠ هـ .

تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، ط ١ بيروت - ١٩٨١ .

٨٤ - **مقاتل الطالبين .**

أبو الفرج الأصفهاني ت ٣٥٦ هـ .

شرح وتحقيق السيد أحمد صقر ط ١ قم - منشورات الشريف

الرضي ١٤١٤ هـ .

٨٥ ـ **مقتل الحسين .**

أبو المؤيد الموقف بن أحمد أخطب خوارزم الخوارزمي ت ٥٦٨ هـ .

تحقيق وتعليق الشيخ محمد طاهر السماوي ، قم ـ منشورات مكتبة المفيد .

٨٦ ـ **الملل والنحل .**

أبو الفتح الشهرستاني ت ٥٤٨ هـ .

ط ٢ بيروت ـ دار ومكتبة المتنبي ، ١٩٩٢ .

٨٧ ـ **المناقب .**

الموقف بن أحمد بن محمد الملكي الخوارزمي ت ٥٦٨ هـ .

تحقيق الشيخ مالك المحمودي ، ط ٢ قم ـ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم ، ١٤١١ هـ .

٨٨ ـ **مناقب الإمام علي بن أبي طالب .**

أبو الحسن علي بن محمد بن المغازلي الشافعي .

تحقيق وتعليق محمد باقر البهبودي ، بيروت ـ دار الأضواء ١٩٨٣ .

٨٩ ـ **الموافقات .**

أبو أسحق الشاطبي .

٩٠ ـ **الموطأ .**

مالك بن أنس .

٩١ ـ **ميزان الأعتدال في نقد الرجال .**

أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ت ٧٤٨ هـ ، تحقيق علي محمد البيحاوي ، بيروت ـ دار الفكر .

٩٢ ـ **نزهة المجالس .**

الصفوري .

٩٣ ـ النظم والفسفة والدين في الإسلام .

هاملتون جيب .

٩٤ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر .

مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير .

تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي بيروت ـ المكتبة العلمية .

٩٥ ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار (بهامشه أسعاف الراغبني للصبان) .

الشيخ مؤمن بن حسن بن مؤمن الشبلنجي ، القاهرة ـ البابي الحلبي ، ١٩٤٨ .

٩٦ ـ وقعة صفين .

نصر بن مزاحم المنقري .

تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، بيروت ـ دار الجيل ، ١٩٩٠ .

٩٧ ـ ينابيع المودة .

الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي ت ١٢٩٤ هـ .

قدم له السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان ط ١ قم ـ منشورات الشريف الرضي ١٤١٣ هـ وبيروت ـ مؤسسة الأعلمي .

احذروا قراصنة الكتب

الى المؤسسات القانونية .

ودور النشر ومؤسسات التوزيع .

والى القاريء الكريم .

تعالوا نتكاتف لندافع عن حقوق بعضنا بعضا .

لقد تم طباعة كتاب لقد شيعني الحسيني (الانتقال الصعب في رحاب المعتقد) من قبل منشورات أنوار الهدى ومنشورات الاعتصام للطباعة والنشر بالاشتراك مع مكتبة سعيد بن جبير في مدينة قم المقدسة (پاساچ قدس) من دون أذن دار النخيل او المؤلف ، وقد تم الاتصال بكلا الدارين المذكورتين والمكتبة للتفاهم معهم حول حقوق الدار باعتبارها (الوكيل الحصري لطباعة كتب الاستاذ ادريس الحسيني) وإيقاف طباعة الكتاب في الطبعات اللاحقة ، ولكن للآسف انطبق قول الشاعر العربي عليهم :

لقـد أسمعـت لو ناديت حـيا ولكن لاحـيـاة لمـن تنـادي

وانطلاقا من الشرع المبارك الذي كفل حقوق الجميع ، ننوه ان هذه الطبعات التي تحمل شعار هذين الناشرين (انوار الهدى ـ سعيد بن جبير) او شعار (أنوار الهدى ـ الإعتصام) ، تعتبر في حكم السرقة او الشبهة الشرعية ، مع أن الدار مازالت تلاحقهم قانونياً ، كي تنتهي هذه القرصنة في عالم الكتاب الاسلامي (وبالخصوص الشيعي) .

كما نتمنى من الاخوة القراء وبالذات في قم المقدسة (مدينة الشرع) التعاون معنا في ايقاف هذه القرصنة عبر مقاطعة هذه النسخ المسروقة كي تنتهي هذه القرصنة التي يرفضها الشرع والقانون والضمير الانساني .

دار النخيل للطباعة والنشر ـ بيروت

١ / ١ / ١٤١٦ هـ

- الفهرست -

ـ الباب الثالث ـ

عبقريات في الميزان